مَعَارِكُ العَرَب

منذ ما قبل الإسلام حتى حرب الخليج





معارك العرب 16

اسم الموسوعة	:	معارك العرب منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب	:	الصراع ضد الصليبيين (1) -عصر التمدّد الصليبي
المؤلّف	:	العميد الركن أبو طلال الفغالي
قياس الكتاب	:	20x28 سم
عدد الصفحات	:	232
عدد صفحات الموسوعة	:	5920
مكان النشر	:	بيروت - لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبليس
تلفاكس	:	961 1 58 34 75
هاتف	:	961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني	:	NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى	:	2007

العميد الركن أبو طلال الفغالي
ماجستير في التاريخ

معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (16)

الصراع ضد الصليبيين (1)
عصر التمدّد الصليبي

NOBILIS
2007

مرحلة التمدّد الصليبي
في الشرق العربي

(١٠٩٨ - ١١٢٨)

المقدّمة

تعرّض الشرق الأدنى في أواخر القرن الحادي عشر لحركة استعمارية من قبل الغرب الأوروبي، لم يشهد لها مثيل في العصور الوسطى، فاتخذت من الدين ستاراً لإخفاء ما انطوت عليه من مطامع وأهداف. ومما لا شك فيه أن مراكز الحضارة استقرّت قبل نشوب الحروب الصليبية في العالم الإسلامي وبيزنطية، بينما غلب على دول أوروبا النظام الإقطاعي. فلما ركدت ريح الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر، اختفى في أوروبا ما سبق أن اشتهرت به في مستهلّ الحركة الصليبية من الروح الدينية والتفكير في الحياة الأخرى، وسيطرت عليها العلمانية والدنيوية، فانصرفت إلى دراسة القانون والفلسفة.

وكان النظام الإقطاعي في أوروبا يدعو للتوسّع والسيطرة والقتال. فلم تجد نفعاً فكرة سلام الله وهدنة الله، فما لجأت إليه الكنيسة من فرض قيود على المبارزات الفردية لم يؤدّ إلى نتيجة إيجابية، ولذا حرصت الكنيسة على تشجيع الفرسان على قتال المسلمين، فيشبع الفارس بذلك نزعته الحربية، وينال الخلاص والتطهير من الذنوب، وهو ما يرضي الجانب الروحي من طبيعته. يضاف إلى ذلك ما حدث في غرب أوروبا من ازدياد عدد السكان، وتقاصر الأراضي عن سدّ حاجة الإقطاعيين، فكان لا بدّ من السعي للحصول على إقطاعات جديدة، بالتوسّع شرقاً، وهذا يفسّر اشتراك أمراء كبار أمثال بودوان وبوهمند وتانكرد في الحملات الفرنجية، إذ هيّأت لهم الفرصة لإقامة إمارات في الشرق الإسلامي والعربي.

إن نجاح الصليبيين في أول الأمر، لم يرجع فحسب إلى كثرة عددهم، وإلى ما تلقّوه من مساعدات من الغربِ الأوروبي المسيحي ومن الدولة البيزنطية، بل يرجع أساساً إلى تفرّق كلمة المسلمين، ونشوب الفتن الداخلية واضطراب الأمن، وإلى ما اتبعه القادة الفرنج من أساليب الغدر والخيانة، واستخدام العملاء من السكان الوطنيين في تحقيق أغراضهم، وإلى ما أجروه من مذابح في سكّان البلاد التي استولوا عليها برغم ما بذلوه لهم من الأمان، الأمر الذي أدّى إلى خروج فكرة الجهاد إلى حيّز التنفيذ. واشتدّت ثائرة المسلمين، وتهيّأ لهم القادة الذين أمضوا بهم إلى طريق النصر النهائي وإخراج الفرنجة من الشرق العربي بعد حوالى مئتي سنة من تجذّرهم فيه.

ومما لا شكّ فيه تاريخياً، أننا نجد في إطلالة سريعة على الوضع السياسي في بلاد الشام والمشرق العربي، في نهاية القرن الحادي عشر، القرن الذي شهد وصول الغزاة الفرنجة إلى مشارف الشام، أن جميع البلدان كانت تعيش في حال من الفوضى السياسية والاقتصادية والعقائدية. فقد كان هناك خلافتان: الواحدة في بغداد والثانية في القاهرة، وكانتا في صراع دائم، ونزاع عقائدي دموي مستمر، كما ان الأحوال الداخلية في كلّ من هاتين الخلافتين كانت جدّ سيّئة حيث كان الخلفاء محكوماً عليهم من قبل جند نسوا كيف يقاتلون للدفاع عن شعوب دولهم ضد الظلم والعدوان الخارجي والاستغلال والتسلّط على سدّة الحكم.

كانت غالبية سكان بلاد الشام في القرن الحادي عشر من الشيعة ومعظمهم من أتباع المذهب الاثنا عشري، وكان بين الشيعة بعضاً من الإسماعيلية في الشمال والجنوب وبعضاً من الدروز في شمالي غربي حلب ووادي التيم في لبنان. وكان هناك النصيرية في جبل بهراء - العلويون الآن - وكان السنّة يقطنون في المدن الكبرى، وكانوا في جنوب بلاد الشام أكثر منهم في الشمال. وكالعادة كان النزاع يقع حاداً بين الجماعات الإسلامية هذه، وكان هذا النزاع من الأساليب التي زادت تجزؤ بلاد الشام عمقاً وقوّته ضعفاً، وقد وُجدت في المدن الكبرى كدمشق وحلب طائفة لا بأس بحجمها من اليهود. وكان النصارى منتشرون في ريف

دمشق ومدنه الكبرى وفي الجبال اللبنانية الشمالية وكانوا كثرة مؤثّرة في شمالي البلاد وغربيها، وكان بعض هؤلاء النصارى من أصل أرمني. ولم تكن العلاقات بين النصارى واليهود والمسلمين دائماً سليمة، بل غالباً ما توفّرت أسباب الخلاف إنما كانت الحرية الدينية على العموم متوفّرة، وكانت أحوال النصارى المعيشية جيّدة، وكانت معظم أعمال الإدارة في أيديهم. ويمكننا أن نعتبر القرن الحادي عشر، عصراً ذهبياً بالنسبة لأوضاع مسيحيي بلاد الشام، لكنّما قدوم الفرنج إلى هناك أدّى إلى بعض ردات الفعل العنيفة ضد النصارى الشاميين.

وكان هناك يقظة سنّية عامة، وتراجع شيعي واضح، وقد زاد في سرعة هذا التفسير ما شهدته أرض خراسان وما وراء النهر من أحداث جسام تجلّت بتأسيس السلطنة السلجوقية، وباجتياح قبائل الغزّ التركمان، اجتياحاً مدمّراً شمال الشام والجزيرة وآسيا الصغرى، بعد اجتياح خراسان والعراق.

ومعروف أنّه عندما ترسّخت أركان السلطة السلجوقية في بلاد الشام، ترسّخت قواعد الإقطاع العسكري، ورافق ذلك نشوء الإقطاع الديني من رجالات الاشراف وأصحاب الوظائف الدينية، وشغل هذان الاقطاعان أهم الأدوار في تاريخ البلاد منذ ذلك الحين وحتى وقت قريب جداً من دخول الفرنج.

لقد بلغت الامبراطورية السلجوقية، غاية اتساعها وعظمتها زمن ملكشاه، فقد دانت له بالإضافة إلى خراسان والعراق: بلاد الشام مع مناطق من آسيا الصغرى. وفي زمنه استطاع التركمان الانسياح في بلاد الشام، فتمكّنوا من التدمير والخراب فيها بشكل مريع جداً، مما كان له أكبر الآثار في نجاح الصليبيين الفرنج عندما وصلوا إلى مشارف بلاد الشام عام ١٠٩٨. لقد كانت هذه البلاد في حال من الانهاك والضعف والتداعي الداخلي والخارجي لا نظير له، «وكانت هذه البلاد مثل رقعة الشطرنج فيها مربّعات عديدة، على كلّ مربّع دمية لها اسمها وصفاتها ومزاياها تتصارع مع بقية الدمى التي كانت بغالبيتها تركمانية الأصل، غريبة المولد والنشأة، لا ارتباط لها بحضارة البلد ولغته وتقاليده ومعتقداته.

وكانت كلّها تتصارع في سبيل السّلطة والمزيد من الأرباح الخاصة والمال فقط دونما رادع واعتبار». لقد أسّس السلاجقة إمبراطورية مترامية الأطراف، وكانوا مسلمين سنّة، وقد احتفظوا بالخلفاء بمثابة حكّام اسميين. كما أن توسّع سلطنتهم على حساب الشيعة، دعّم من مركز الخليفة العباسي السنّي. وحاول بعض الخلفاء استرداد كامل سلطانهم فصارعوا السلاطين ففقدوا حياتهم. وهذه الصراعات السلجوقية - العباسية بدّدت قوى العراق والمشرق العربي وشغلت حكّام وجيوش تلك البلدان وحتى شعوبها عن أحداث الحملات الصليبية وعن المساهمة الإيجابية فيها وهزمتهم في بادىء الأمر عن الجهاد ضد الفرنجة وعرضتهم للمؤامرات المشرقية.

القسم الأول

جولة أفق تاريخية عن المسلمين والمسيحيين في الشرق قبل قيام الحملات الصليبية (١٠٠ م - ١٠٩٧ م)

الفصل الأول
المسيحيون في الشرق حتى مجيء الإسلام (١٠٠ - ٦٣٢)

١ - المسيحية في عصورها الأولى (القرن الأول بعد المسيح):

نشأت الكنيسة المسيحية الأولى في أورشليم يوم العنصرة، وفقاً لسفر أعمال الرسل. ولقد تأسّست على الإيمان المشترك بالمسيح القائم من بين الأموات والمعترف به مخلّصاً.

رافقت نمو الكنيسة صراعات وأزمات متعدّدة، لكنها لم تمنعها من أن تحقق ثقافة مبتكرة، في القرون الأولى من تاريخها، بلقائها الحضارات القديمة في الشرق الأوسط، وهي ثقافة عالم البحر المتوسّط، والعالم الغربي.

لم يترك الرسل أورشليم مباشرة بعد صعود المسيح إلى السماء، بل اجتمعوا والتلاميذ الأوائل حول مريم أمّه وبطرس تلميذه في العليّة التي احتفل فيها المسيح بالعشاء الأخير. وتخبّرنا «أعمال الرسل» أن ثلاثماية شخص من الجماهير التي أتت إلى أورشليم للاحتفال بعيد العنصرة اليهودي قد اعتنقوا المسيحية. إنها الجماعة المسيحية الأولى.

وبدون أن تنفصل تلك الجماعة عن اليهودية، فقد اعتمدت سلوكاً يشير إليه كتاب «أعمال الرسل» كما يلي: «وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والمشاركة والصلوات: وكان جماعة الذين آمنوا، قلباً واحداً ونفساً واحدة، لا يقول أحد منهم أنه يملك شيئاً من أمواله، بل كان كلّ شيء مشتركاً بينهم».[١]

(١) أعمال الرسل، ٤:٣٢.

وسرعان ما ستسبّب تعدّدية أصول المهتدين، توتّرات في الجماعة، لاسيما بين أصحاب التيار «العبراني» وأصحاب التيار «الهلّيني». كان زعيم التيار الهلّيني «اسطفانوس» يرفض أولوية هيكل أورشليم بل يعطيه فقط معنى روحياً، الأمر الذي عارضه أعضاء مجلس اليهود «السنهدريم» لأنه ينتقص من رجال الكهنوت ومن الطقوس الدينية عندهم. لم يحكم هذا المجلس على اسطفانوس بالموت، لكن الشعب جرّه خارج أسوار المدينة وقتله رجماً بالحجارة. وقد عُدّ مقتله الشرارة الأولى التي أطلقت حملة اضطهاد اليهود للمسيحيين «فتشتّتوا في نواحي اليهودية والسامرة. وبدأت بشرى الإنجيل في أنحاء فينيقيا والسامرة والجليل».[1] ويُقال إن بولس الرسول كان يبغض الجماعات المسيحية الأولى بغضاً شديداً ويحاربهم، وقد شارك في مقتل اسطفانوس.

لقد اعتنق بولس المسيحية وأصبح رسول الأمم الذي لا يكلّ، وقد ترك للمسيحيين في رسائله نصوصاً لاهوتية، لا تزال الكنيسة تنهل منها حتى أيامنا هذه.

أنشأ بولس جماعات مسيحية اتّسمت بالحيوية في انطاكية وبسيدية ولسترة ودربة. وقد كرّس نفسه لهداية الأمم.

١١ - كنيسة أورشليم:

في العنصرة نشأت هذه الكنيسة، وقد تألّفت من الرسل الاثني عشر الذين تبعوا المسيح في حياته، ومن سبعين تلميذاً، وشكّلوا عنصر القيادة في الجماعة المسيحية.

احتفظ هذا الفريق بموقف الأولويّة وبالتحكّم بالجماعات التي تكوّنت في محيط البحر المتوسّط. وكان هذا الفريق يرسل مبعوثين للتحقّق من استقامة إيمان تلك الجماعات الناشئة. وكان الرسل هؤلاء يعودون إلى أورشليم ليخبروا عمّا فعلوه في مهمّتهم الإرسالية أو لطلب المشورة.[2] أما الجو الذي طغى على جماعة أورشليم فقد كان جواً عبرانياً متمسّكاً بالطقوس اليهودية، مما سيسبّب نقاشات ويؤدّي إلى القطيعة،

---

(١) أعمال الرسل، ٨: ٢ - ٣.

(٢) أعمال الرسل، ١٥: ١ - ٢.

كتلك التي جرت مع بطرس الرسول ويعقوب رئيس جماعة أورشليم.

وخلال الحرب التي أطلقها اليهود ضد الرومان في السامرة، وقف المسيحيون على حياد، وقد لجأوا إلى «پيلاّ» في تجمّع المدن العشر في شرق الأردن (ديكاپوليس).

وبعد سقوط أورشليم في يد الرومان في العام ٧٠، أعاد بعض من هؤلاء إنشاء كنيسة اتسمت بطابع يهودي صرف، لذلك أضاعت أورشليم سلطتها لحساب انطاكية.

١٢ - كنيسة انطاكية:

عندما اضطُهد التلاميذ في أورشليم على أثر استشهاد اسطفانوس في العام ٣٤، غادروها إلى فينيقيا، ثمّ رحلوا إلى قبرص وانطاكية حيث لم يبشّروا بالكلمة سوى اليهود.[(١)] وكان فيما بينهم قبارصة وقيروانيون خاطبوا اليونانيين. ويظهر أن كثرة الاهتداءات، أدّت إلى نقاشات حامية في مسألة الحفاظ التام على الشرائع اليهودية، حتى رأى التلاميذ أنفسهم مضطرين إلى أخذ رأي كنيسة أورشليم. وهكذا وصل برنابا إلى انطاكية وشجّع التلاميذ الجدد على البقاء أمناء للسيّد المسيح،[(٢)] ثمّ طلب مساعدة شاوول وقصد طرطوس ليأتي به. مكث الاثنان حوالى السنة في انطاكية، ولأول مرّة سُمّي التلاميذ «مسيحيين». نمت هذه الكنيسة وازدهرت، وأرسلت إلى مدينة أورشليم، أثناء المجاعة التي حلّت بها، إعانات بواسطة شاوول وبرنابا، اللذين عادا إليها مع تلميذ جديد: هو يوحنا المدعو مرقس. كما كان في انطاكية، من ناحية أخرى، «معلّمون وأنبياء» يؤمّنون التعليم وقيادة اجتماعات الجامعة المسيحية.[(٣)]

وقع جدال حول مسألة اختتان المهتدين الجدد، الذي أثاره «أناس نزلوا في اليهودية»، أحدث اضطراباً، فعاد بولس وبرنابا إلى أورشليم لأخذ رأي كنيستها.

---

(١) أعمال الرسل، ٢: ١٩.

(٢) أعمال الرسل، ٢ - ٢٤.

(٣) أعمال الرسل، ١٣ - ١٣

في العام ٤٩ عقد اجتماع، عرف باسم «مجمع أورشليم» وتمّ الاتفاق ألا يفرض الاختتان على المعتدين الجدد، بل فقط «اجتناب ذبائح الأوثان والدم والميتة والزنى».(١)

نسب التقليد إلى بطرس الرسول تأسيس كنيسة انطاكية، وفق شهادة اوسابيوس في القرن الرابع. ويقال إن كتابة النص النهائي لإنجيل متى قد تمّت في انطاكية. في القرن الرابع كان يشار إلى «كرسي بطرس» في المنزل الذي وضعه تيوفيلوس تحت تصرّف الجماعة المسيحية. وفي أيامنا هذه، ما زال الحجاج يصلّون في الكنيسة المشادة مع المنزل المذكور على اسم بطرس على سفح مدينة سيليبسوس. لقد كانت انطاكية والاسكندرية المدينتان اللتان أصبحتا، بعد تدمير أورشليم، مركز المسيحية الحيوي في الشرق المتوسّط، وقبل أن تصبح مدينة القسطنطينية العاصمة. وما زال رؤوساء الكنائس الشرقية حتى اليوم يحملون لقب «بطريرك انطاكية وسائر المشرق».

إن سلطة انطاكية قد أقرّها مجمعا نيقية والقسطنطينية اللذان أعلنا أوّليتها الشرفية وحقوقها وامتيازاتها.

لم تكن التجارب، التي قاستها الكنيسة الناشئة، في المجتمع الوثني أقلّ شدّة من تلك التي قاستها من السلطة الحاكمة. فلقد عانى المسيحيون في آسيا الصغرى من قساوة معاملة الوثنيين لهم، الذين انتفضوا ضد الروح التجديدي لأولئك. وفي سوريا، لا يبدو أن المسيحيين قد تعرّضوا للإزعاج أثناء حكم تيطُس.(٢)

بعد ثورة العام ١٣٥، مُنع اليهود من الإقامة في أورشليم، فانضمّت جماعات كثيرة منهم إلى الكنيسة، لكن اليهود المسيحيين كان عليهم أن يجمعوا أنفسهم في الإمبراطورية الرومانية التي كانت تفرض عليهم الوثنية للحفاظ على وحدتها.

عندما حدثت هزّة أرضية في انطاكية، صبّ السكّان الوثنيون جام غضبهم على المسيحيين، مما أدّى إلى سجن الأسقف اغناطيوس ثمّ ارساله إلى روما لكي يتمّ قتله

---

(١) أعمال الرسل، ١٥: ٢٣: ٢٩.

(٢) أعمال الرسل، ٧٩ - ٨١.

هناك. وانطلاقاً من انطاكية وسوريا، تمّ التبشير بالانجيل في العالم الشرقي: اسروان (الرها)، ادیابان، ما بين النهرين، لا بل أبعد أيضاً: في بلاد فارس وفي الهند. ويعزو التقليد تبشير الهند والمناطق المتصلة بها إلى «توما». وما زالت كنائس حية قائمة فيها حتى اليوم. وستصبح كنيسة الرها هذه، مركز الثقافة المسيحية ذات اللغة السريانية.

٢ - انتشار المسيحية في القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية:

خلال القرنين الثاني والثالث، كانت المسيحية قد تأصّلت بعمق في القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، لا بل انتشرت إلى حدّ إلى خارج تخومها. فكنيسة قيصرية فيليبوس في فلسطين، أصبحت أعظم من كنيسة أورشليم. وقد كانت من عام ٢٣١ إلى عام ٢٥١، أحد أكبر المراكز اللاهوتية في الشرق. وما اشتراك تسعة عشر أسقفاً من فلسطين في مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥، إلاّ دليلاً واضحاً على انتشار المسيحية في تلك الأصقاع التي واجهت فيها اضطهاداً عنيفاً، خصوصاً في المناطق ذات الغالبية اليهودية كالجليل مثلاً. اما شرقاً، في المناطق العربية، فإننا نجد في المدّة تلك، الجماعات التي راحت تدريجياً تبتعد عن الكنيسة الأم، بالرغم من مشاركة ستة أساقفة منهم في مجمع نيقيا، بينهم أسقف «بصرى». كما أحصي شمالاً على الساحل الفينيقي، كنائس عدّة منها كنيسة صور (٢٥١) وكنيستا بيروت ودمشق.

أمّا المنطقة السورية، وخصوصاً في قسمها الغربي، فقد كان فيها باكراً عدد من الكنائس. وكان في منطقة اللاذقية، بعد العام٢ ٥٠، سلسلة من الأساقفة تميّزوا بالعلوم والثقافة المسيحيّة. وفي القسم الشرقي بجانب الفرات، لم يُعرف قبل مجمع نيقية من هم الأساقفة الأولون. ولكن كان يوجد أساقفة منذ القرن الثالث. وقد أوفدت المناطق السورية إلى المجمع النيقاوي ثلاثة وعشرين أسقفاً بينهم نائبان أسقفيان، فذكر هذين النائبين الأسقفين من «أساقفة الارياف» دليل على أن المسيحية قد وصلت إلى الأرياف، حتى لو لم تتوغّل في داخلها. أما منطقة كيليكيا فقد تمثّلت في المجمع بعشرة أساقفة، من بينهم أسقف طرسوس ونائب

أسقف، بل أكثر من ذلك فان ايزوريا التي كانت تشكّل وقتئذٍ قسماً من كيليكيا، قد أوفدت سبعة عشر ممثّلاً بينهم ثلاثة نواب أساقفة.

في شرق الفرات، انطوت منطقة ما بين النهرين على مسيحية ذات طابع خاص، فهي في نشأتها من أصل يهودي متنصّر على «مذهب عداي»،[1] جعل تنصّر الملك الأبجر من أعمال أحد تلاميذ توما الرسول، وهذا ما يفسّر استعماله ترجمة سريانية للكتاب المقدّس، ومن خلالها احيا ما تبقى من تقاليد التفسير اليهودي. أما الايمان المسيحي فقد كان يفسّر تبعاً لأطر الفكر السامي. والكنيسة هذه كانت تعظّم البتولية وأعمال التقشّف وفي بعض الأحيان حرّمت الزواج، وحرّمت الخمرة تحريماً مطلقاً حتى في الافخارستيا. وانتشار المسيحية في بلاد فارس كان، بلا ريب، انطلاقاً من الرها، حيث صادفت بعضاً من النجاح بالرغم من الديانة المزدكية. وقد تمكّنت النصرانية في نهاية القرن الثالث من الاستقرار في بلاد فارس بشكل مرض، بالرغم من الاضطهادات التي واجهتها سنة ٢٨٦.

أما في آسيا الصغرى، كان الوجود المسيحي، في القرنين الثاني والثالث على جانب عظيم من الكثافة، لكن ذلك لا يعني أبداً أن المسيحيين كانوا أكثرية عددياً.

أما في المناطق التقليدية التي يعود فيها التبشير إلى بطرس الرسول، كالبثنية والپنطُس وكبادوقيا والقسم الشمالي من غلاطيا،[2] تبدو الشواهد كثيرة وهامة على وجود خمسة أساقفة لتلك المنطقة في مجمع نيقية. وانطلاقاً من كبادوقيا، بدأ في نهاية القرن الثالث التبشير بالإنجيل في أرمينيا.

أما الناحية الجنوبية من آسيا الصغرى (جنوبي غلاطية او ليڤانية وليقية وپمفيليا) فكان يوجد فيها كنائس عديدة والدليل أن عشرين أسقفاً منها حضروا مجمع نيقية.

---

(١) ....عداي، مخطوط يعود إلى القرن الثالث يحوي أخبار تبشير الرها في زمن الرسل، ويتضمّن بالتالي رسائل بين الملك الأبجر والمسيح.

(٢) راجع رسالة القديس بولس الأولى في كتاب الرسائل عند الموارنة أو غيرهم، ١: ١.

أما الناحية الغربية من آسيا الصغرى، وهي منطقة كانت تذخر بالتجارة والصناعة، فقد بنيت فيها كنائس عديدة. ولعب المسيحيون فيها دوراً بارزاً ومهماً. وباختصار مفيد أن اليونان تقريباً كانت قد أصبحت مسيحية تماماً في هذين القرنين من الزمن.

في مصر، أخيراً، نرى أنه تكوّن في القرنين الثاني والثالث، مجتمع مسيحي مهم، وقد أحصي، في أوائل القرن الرابع، ما يربو على مئة أسقف.

أن القرنين الثاني والثالث كانا من العهود الرئيسية في تاريخ المسيحية في الشرق، ففيهما شهدت قيام وتبلور مؤسّسات عدّة تضع اللبنة لحياة المسيحيين في الكنيسة الكبرى، الكنيسة الجامعة والرسولية كما حدّدها وأوضحها «قانون الإيمان» النيقاوي: تمييز صارم بين اكليريكي وعلماني، تراتبية الاكليروس برئاسة أسقف، إنشاء المؤسّسات الأسقفية (المطرانيات)، عقد المجامع الأولى إلى آخره. فعلى هذه الأسس سيتمّ في ما بعد تشييد مسيحية القرون التالية وقبل كلّ شيء الأسس التي ستتطوّر في الامبراطورية الرومانية التي ستغدو مسيحية.

٣ - المسيحية في ديار العرب قبل ظهور الإسلام:

٣١ - المسيحية في بلاد الشام:

انتشرت المسيحية في صفوف العرب ببلاد الشام، حيث كانوا قد تأثّروا باليونان والرومان في القرون السابقة وها هم يتنصّرون الآن، باعتبارهم يعيشون عيشة مواطنين داخل الإمبراطورية الرومانية وعلى رأسها قسطنطين الذي اعتنق الديانة المسيحية: «والناس على دين ملوكهم». وأصبحت الامبراطورة الرومانية مسيحية. وكان نفر غير قليل منهم قد اتخذ أسماء توراتية، مثلما كان قد تسمّى بأسماء يونانية/ رومانية قبل القرن الرابع.

هذه القبائل العربية المسلّحة التي استوطنت بلاد الشام، عقدت معاهدات مع بيزنطية وباتت من حلفائها. وقد بات هؤلاء العرب مسيحيين متحمّسين حقاً، وحافظوا على هويتهم العربية على مدى تلك القرون الثلاثة. وقد عرفت بيزنطية ثلاث فئات من العرب الذين سلّطتهم على بقية العرب الأحلاف في تلك الفترة.

أ - التنوخيون:

كانت ديار هؤلاء التنوخيين، في الأغلب، في القسم الشمالي من بلاد الشام وكانوا الفئة المسيطرة في القرن الرابع. تاريخهم يكتنفه الغموض، لكن المصادر التاريخية تبرز سيرة ملكة مسيحية عربية تدعى ماويّة أو ماوية. وقد سجّلت بعض الانتصارات، حوالي سنة ٣٧٥م. في محاربة جيوش الامبراطور ڤالنس الذي كان قد مال إلى البدعة الاريوسية في المسيحية. وقد أصرّت ماوية على أن يكون أسقف شعبها رجلاً عربياً هو الراهب موسى وكان خلقيدونياً وقد سيم أسقفاً وأصبح قديساً في النهاية يحتفل بعيده في السابع من شباط.

ب - الغساسنة:

كان الغساسنة من حلفاء الإمبراطورية البيزنطية، وقد سادوا في القرن السادس وسطروا أهم فصل في تاريخ المسيحية العربية في بلاد الشام، في تلك الفترة. كانوا على مذهب ساويروس يقولون بالطبيعة الواحدة في المسيح. من أشهر ملوكهم كان «الحارث ابن جبلة (٥٢٩ - ٥٦٩)»، فقد قام بإحياء الكنيسة المونوفيزية بعدما أبطلها الامبراطور يوستينوس في حوالى سنة ٥٤٠. كان للحارث، بمعاونة الامبراطورة تيودورا، دور أساسي في سيامة أسقفين: أحدهما للكنيسة المونوفيزية، وهو يعقوب البرادعي، والآخر ثيودورس لكنيسة النصارى العرب الحلفاء وعرب الحجاز.

وقد أصبح الحارث «القبضة الحديدية» للكنيسة المونوفيزية في بلاد الشام. وصار ابنه المنذر (٥٦٩ - ٥٨٢)، أبعد نفوذاً في تاريخ هذه الكنيسة. فقد سار على منوال والده واجتهد في جمع ما تشتّت من جراء النزاعات المونوفيزية الداخلية. وقد ظهر المنذر، في مجمع القسطنطينية (٢ آذار ٥٨٠)، بصورة الرأس الزمني للكنيسة هذه قاطبة ومنها كنيسة مصر. ويبدو أن أميرات الغساسنة، كنّ يحملن مسيحيّتهن على محمل الجد: مثل ماريا وسلمى وهند وهند الحارث. وقد شيّدت إحداهما ديراً عرف «بدير هند» قرب دمشق، الذي بقي حتى زمن متأخّر في الإسلام.

كان الغساسنة بناة عظاماً، وكانت أبنيتهم قائمة على طول حزام السهوب، البادية

الممتدّة من الفرات إلى خليج العقبة. وقد شيّدوا أدياراً كثيرة ودعموها وقد بقي من تلك المباني مبنيان ضخمان حتى يومنا هذا هما: برج الدير في قصر الحيرة الغربي بين دمشق وتدمر، والايوان بالرصافة.

٣٢ - المسيحية في بلاد ما بين النهرين:

اعتنق عرب ما بين النهرين، الديانة المسيحية في القرن الثاني، والأرجح انها تلقّت دفعاً قوياً إلى الامام مع اعتناق الملك الأبجر، ملك الرها، المسيحية. وكانت هذه المنطقة تعرف آنذاك بديار ربيعة. ومع سقوط الرها في أيدي الرومان في العام ٢٤٣، انتقل مركز النفوذ السياسي العربي إلى الحيرة، عاصمة اللخميين، وقد حكمت لمدّة بضعة قرون، وباتت الحيرة مركز المسيحية العربية الكبير في تلك الفترة الذهبية. وقد احتلّت الحيرة ذلك المركز على الرغم من ان حكامها لم يكونوا من المسيحيين ما خلا واحداً في القرن الرابع وآخر في القرن الخامس وآخر ملوك اللخميين حوالى العام ٥٩٠، على مذهب نسطور.

لقد أصبحت الحيرة مركزاً أسقفياً مهماً فالمسيحية كانت منظّمة فيها تنظيماً ممتازاً وقد أصبحت قاعدة لبعثة مسيحية في جنوب بلاد ما بين النهرين والمنطقة المجاورة.

وكان فيها جماعة مسيحية تدعى «العبّاد» متميّزة بديانتها. و«العبّاد» كانوا جماعة من العرب مؤلّفة من قبائل عدّة لكنها كانت مجتمعة على المسيحية، وكلّ فرد منها يدعى «العبّادي»، على نحو يشبه تماماً ما كان من اتحاد قبيلتي الأوس والخزرج في المدينة وتسميتهما «بالانصار»، بعد هجرة النبي محمّد ﷺ إلى المدينة. وقد ظلّ «العبّاد» جماعة متراصة من المسيحيين المتعدّدي القبائل بعد ظهور الإسلام واستمرّوا على ذلك مدّة بقاء الحيرة بلداً مغموراً في العصور الإسلامية الأولى.

ومثلما كانت الرها درعاً واقية للمسيحية في شمال ما بين النهرين، كذلك كان دور الحيرة في الجنوب. وقد تجلّى الحضور المسيحي القوي في الحيرة من خلال كثرة عدد الكنائس والأديرة داخلها وفي ضواحيها، ومنها الأنبار وعين التمر.

ساهمت الحيرة كثيراً في الحضارة العربية في عصور ما قبل الإسلام وكانَت أهم مركز مسيحي عربي، نظراً إلى ديومتها مدّة ٣٠٠ سنة. فقد ساهمت في تطوّر الخط العربي الذي بات شائعاً في العراق ولاسيما في الكوفة الإسلامية والذي يشبه خط الأسطر انجلا السرياني المستخدم في نسخ الكتاب المقدّس. كانت السريانية اللغة المسيطرة في ثقافة المشرق المسيحي، وكان من الطبيعي أن يتخذ مسيحيو الحيرة العرب الكتاب المقدّس السرياني وخطّه نموذجاً لهم. كما أنها ساهمت أيضاً بمسألة وجود أدب مسيحي غزير بالعربية. فقد تطوّر الشعر أكثر مما تطوّر في شمالي شرق الجزيرة العربية حيث كانت تعيش بكر وتغلب وتميم وهذه قبائل متنصّرة. لقد أنجبت الحيرة الشاعر عدي بن زيد العبادي الذي أفصح بشعره عن عقيدته المسيحية. ومن غير الممكن أن يكون هو الشاعر المسيحي الأوحد.

٣٣ - المسيحية في شبه الجزيرة العربية:

انتشرت المسيحية في شبه الجزيرة هذه وقد بلغت العرب الرعاة في شرقها وغربها بواسطةِ قنوات مختلفة. ففي شرقها أتت موجة التبشير من بلاد ما بين النهرين، من الكنيسة النسطورية. ومن المحتمل لا بل المؤكّد، أن التبشير قد تمّ بين القبائل العربية، على أيدي عرب كانوا قد اعتنقوا المسيحية في بلاد ما بين النهرين، حيث كانت الحيرة مركز المسيحية العربية الكبير. ومن أبرز تلك القبائل المسيحية: بنو بكر، وتغلب، وعبد القيس وكلّها قبائل مشهود على مسيحيتها. ويبرز هنا وجه تاريخي كبير هو، «هوذه بن علي» ملك بني حنيفة، كحاكم مسيحي عربي نسطوري المذهب.

وفي وسط الجزيرة العربية، شهد بروز قبيلة «كندة» القوية التي أوجدت لنفسها حضوراً سياسياً وعسكرياً قوياً بين قبائل الشمال العربية. وقد أصبحت كنده مسيحية على أيام ملكها الحارث بن عمر، في الربع الأول من القرن السادس. وقد أصبح أمراء كندة ولاة للرومان في بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية أيضاً. وقد أسهموا في نشر المسيحية في الجزيرة. وقد بقي بعض أفراد القبيلة على عقيدتهم حتى خلافة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣)، يوم ظهر عبد المسيح سليل آل كنده

في مناظرة مشهورة مع محاور مسلم دافع فيها عن مسيحيته وعلاقة قبيلته بها.

ومن قبائل الجزيرة التي يمكن تمييزها لمسيحيتها، قبيلة طيء/ طي المشهورة التي كانت تعيش في شمالي الجزيرة. ويظهر في شعر طي الكثير من آثار الفكر المسيحي كما في ديوان حاتم، أعظم وجوهها في عصور ما قبل الإسلام.

أما في غرب شبه الجزيرة، فقد انتشرت المسيحية، حيث كانت سلسلة من المدن العربية يثرب، مكة، نجران، قائمة على طريق التوابل القديمة. فهذه هي المنطقة التي شهدت ظهور الإسلام بمكة وتحوّله إلى دولة في يثرب. وأول اتصال له بالمسيحية في تلك المراكز الثلاثة كان في:

أ - يثرب:

كانت فيها جالية يهودية كثيرة العدد، عندما وصلت إليها قبيلة الأزد، فأصبحت مدينة تسكنها جماعتان: العرب واليهود. كان عرب يثرب الأقرب نسبياً إلى الغساسنة من بين الازديين (الذين هاجروا من جنوب شبه الجزيرة العربية). وان قبيلتي الاوس والخزرج الازديتين كانتا تدينان بمسيحيتهما للغساسنة الذين كانوا على صلات وثيقة بهم، وكان شاعرهم حسان بن ثابت عربياً من يثرب. ومن أهم وجوهها، أبو عامر الملقّب بالراهب الذي كان، ولا شك، وجهاً مسيحياً بارزاً بين مسيحيي هذه المدينة.

ب - مكة:

هي مدينة مولد الإسلام. مسقط رأس النبي محمد ﷺ ومنطلق دعوته التي توّجت بالنجاح في يثرب/ المدينة، بعد الإخفاق في مكة. ومن آثار المسيحية فيها: مقبرة تدعى «مقبرة النصارى» وفي جوارها مساجد مريم، وداخل الكعبة كانت ثمة صور لعيسى ومريم والتي أنقذها النبي محمد ﷺ بعد فتح مكة وتحطيمه الأصنام في الكعبة. وعلى طريق الحج إلى عرفات كان يوجد موقف يعرف بـ« موقف النصراني»، مما يستدعي القول إن المسيحيين العرب كانوا يشاركون بمناسك الحج في عصور ما قبل الإسلام. وفي مكة كان يوجد جماعات من المسيحيين من عرب وأحباش وأشهرهم أسقف مكة، ورقة بن نوفل الذي كان

نصرانياً على المذهب الأبيوني، نظراً إلى ارتباط اسمه بالإنجيل في المصادر.(١)

ج - نجران:

كانت هذه المدينة أهم مراكز المسيحية العربية في شبه الجزيرة. وقد قبلت نجران المسيحية في القرن الخامس على يد تاجر من تجّارها يدعى حيّان/ حنّان. وقد سادت فيها صيغة مونوفيزية من المسيحية، نظراً إلى كون نجران في منطقة البحر الأحمر ولصلاتها القوية بمصر والنوبة والحبشة، ولكون عرب نجران الازديين يرتبطون بالغساسنة. وقد استقبلت أول أسقف لها حوالى العام ٥٠٣، وأصبحت مركزاً مهماً للمسيحية في جنوب شبه الجزيرة العربية، لا بل في شبه الجزيرة كلّها.

حوالى العام ٥٢٠، وقعت سلسلة اضطهادات لمسيحيي نجران وقد استشهد من أهلها حوالى مئتي رجل ومئة وعشرين امرأة. وقد ثأرت بيزنطية والحبشة لهذه المجزرة. وصار جنوب شبه الجزيرة العربية من جراء استشهادهم بلداً مسيحياً لمدّة ستين سنة خضع خلالها لسيطرة الحبشة المسيحية.

وهذا الاستشهاد جعل من مدينة نجران مدينة شهداء عربية ومحجة يحجّ إليها العرب والأحباش. وقد سمّيت كنيسة الشهداء فيها «كعبة نجران». وقد أعطت عظام الشهداء دفعاً قوياً لعادة اتخاذ الذخيرة من مخلّفات القدّيسين في سائر أنحاء الشرق الأدنى. ولنجران مقامها في ما يتصل بالعلاقات المسيحية - الإسلامية، فمعظم مفسّري القرآن الكريم يفسّرون «سورة البروج» على أنها إشارة إلى شهداء نجران. وقد ذكر النبي محمد ﷺ بالخير أحد أساقفتها، «قس بن ساعدة» بعد أن التقى به مرّة في سوق عكاز.

د - اليمن:

بلغت المسيحية اليمن في القرون الأولى للميلاد، من ثلاث مناطق على التناوب: الحبشة وبيزنطية وبلاد ما بين النهرين. وقد وصلت البعثة البيزنطية إلى هذا البلد في

(١) LAMMENS, Henri, L'Arabie Occidentale avant l'Hêgire, Beyrouth, 1928, P: 1 - 49.

القرن الرابع، يوم بعث الإمبراطور البيرنطي قسطنطين (٣١٧ - ٣٦١) إلى ملك اليمن الحميري، ثيوفيلس إندوس والاريوسي، الذي يقال إن الملك اعتنق المسيحية على يده، وأسّس كنيستين، واحدة في العاصمة ظفار، والثانية في عدن.

لكن مدينة نجران العربية تحوّلت في القرن الخامس إلى المسيحية التي وردت إليها من الحيرة، وصارت قاعدة وأداة لاعتناق المسيحية في اليمن، لاسيما بعد الاستشهادات في العشرينات من القرن السادس. وقد أدّى ذلك إلى الحملة الحبشية على اليمن وما عقبها من اعتناق للمسيحية تحت السيطرة الحبشية التي انتهت عام ٥٧٠ عند احتلال الفرس للمنطقة. وفي خلال هذه السنين الخمسين، تطوّرت اليمن إلى بلد مسيحي وظهرت عاصمة جديدة لليمن، إلى جانب مركز نجران وكعبة الشهداء، هي صنعاء التي حلّت محل ظفار. وقد اشتهرت المدينة بتشييد كنيستها الكبرى «القليس». وكانت بناء رائعاً شيّده ابرهة الحبشي حاكم اليمن الحبشي في تلك الفترة. وبلغت جهوده ذروتها، في سياسته المسيحية، في الحملة التي شنّها على مكة، وهي تعبير عن المنافسة بين المركزين الدينيين في غرب شبه الجزيرة العربية. لكن الحملة على مكة العام ٥٧٠ المسمى «عام الفيل»، أخفقت ومات قائدها ابرهة، وبعيد ذلك تحوّل البلد إلى ولاية فارسية دينها الزردشتية، فبدأت المسيحية تتراجع لتتلاشى تماماً عند الفتح الإسلامي لجنوب الجزيرة.

وهكذا زال أحد المراكز الكبرى الثلاثة للمسيحية العربية زوالاً تاماً وهو نجران وكف الثاني عن أن يكون عاصمة مستقلّة، وهو الحيرة الذي استسلم لخالد بن الوليد. أما الجماعة المسيحية العربية في الجابية في بلاد الشام من روﻣﺎﻥ وأحلاف فقد تحوّلت إلى أهل كتاب أو أهل ذمّة، حفظ الإسلام حقوقهم الدينية.

بعد الجابية في بلاد الشام، نشأ مركز آخر في وادي الأردن، وأصبح مركزاً للمسيحية العربية والمستعربة في أوائل الإسلام. وكان هذا المركز «دير مار سابا» الذي شهد الألق الجيد لغروب شمس المسيحية العربية، ففيه كان يعيش ويعمل آخر آباء الكنيسة في المشرق، القديس العربي «يوحنا الدمشقي».

الفصل الثاني

بيزنطية ومسيحيو بلاد الشام في العقود الإسلامية الأولى (٦١٠ - ٦٦٠)

١ - توطئة:

عندما اعتنق الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الكبير (٣١٧ - ٣٦١) الديانة المسيحية، نقل عاصمة ملكه جهة الشرق، إلى بيزنطية الواقعة على البوسفور. وحينما صار لزاماً على الإمبراطورية في القرن التالي، بعد أن تطرّق إليها التداعي في الداخل، أن تواجه هجوم البرابرة، تحطّم الغرب، بينما بقي الشرق قائماً بفضل سياسة الإمبراطور إلى حدّ كبير. بينما أقام البرابرة ممالكهم في غالة (فرنسا) واسبانيا وافريقية، وفي بريطانيا وإيطاليا، كان الامبراطور الروماني يحكم من عاصمته القسطنطينية الأقاليم الشرقية.

كان سكّان بلاد الشام ومصر غير راضين على حكومة روما، ولم يطل الزمن حتى لقيت حكومة القسطنطينية من الكراهية في هذه البلدان ما يزيد على ما لقيته حكومة روما. على ان هذه الكراهية ترجع إلى حدّ كبير إلى ظروف وأحوال خارجية. فما أصاب الغرب من الفقر وأضاع ما كان من أسواق للتجار السوريين ولصناعة المنسوجات المصرية. وما نشب من حروب مستمرّة مع الإمبراطورية الفارسية، عطّل طريق التجارة الذي كان يجتاز الصحراء إلى انطاكية والمدن اللبنانية. وما حدث بعد فترة قصيرة من سقوط الإمبراطورية الحبشية، ومن الفوضى السائدة في بلاد العرب أغلق مسالك البحر الأحمر، التي كان يسيطر عليها الملاحون المصريون، وأرباب القوافل في البتراء (PETRA) وشرق الأردن وفلسطين. وأضحت القسطنطينية أكبر أسواق الإمبراطورية

وزاد في مرارة أهل بلاد الشام ومصر، قيام النظام الحكومي الجديد على المركزية. فما كان من امتيازات محلية واستقلال ذاتي، جرى انتقاصه. فكثرت الضرائب وقست الدولة في جبايتها إلى جانب ابتزازها أموال الناس بطرق غير شرعية وملتوية.

٢ - المناقشات الدينية وانقسام المسيحيين (٤٥١ - ٦٦٠):

على أثر المجمعين المسكونيّين في افسس السنة ٤٣١ وخلقيدونية السنة ٤٥١، انقسم المسيحيون على مسائل تتعلّق بطبيعة المسيح (الكريستولوجية) إلى ثلاثة مذاهب رئيسية:

أ - «النساطرة»، وقد تبعوا نسطور، الذي رأى في المسيح شخصاً بشرياً وشخصاً الهياً، ورفضوا وحدة الشخص المحدّدة في مجمع افسس.

ب - «المونوفيزيون»، الذين رفضوا ثنائية الطبيعة المحدّدة في مجمع خلقيدونية وقالوا بطبيعة الهية واحدة للمسيح.

ج - «الخلقيدونيون»، الذين قبلوا ثنائية الطبيعة المحدّدة في مجمع خلقيدونية، ورأوا أن في المسيح طبيعة بشرية وطبيعة الهية، وتبنّوا المذهب الخلقيدوني، وهو المذهب الرسمي للامبراطور البيزنطي.

إذاً، كانت طبيعة المسيح الموضوع الأساسي الذي دارت حوله خصومات المسيحيين ومنازعاتهم، وقد اعتبرت طبيعة المسيح أهم وأعقد المشاكل في أصول الدين المسيحي. إلى جانب ذلك، لقد حاول تيودوسيوس الكبير، بعد نصف قرن أن يجعل من برنامجه الامبراطوري، فكرة التوفيق بين المذاهب الدينية وتوحيدها. على أنه لم تتحقق هذه الفكرة بسهولة إذ أن الشرق اشتدّ تعلّقه بالمسيحية، واستخدم اليونانيون في حلّ هذه المشاكل، الجدل الرزين والمنطق المتزن. ومع الأيام نمت الأحقاد والغيرة في قلوب كبار رجال الدين المصريين والسوريين ضد رجال الدين الرومان مما حملهم على كراهيتهم خاصة عندما أصبح لبطريرك القسطنطينية، حق الصدارة على بطريركيي الإسكندرية وانطاكية.

وبعد مرور مئة وتسعة وخمسين عاماً على مجمع خلقيدونية، لم تضمحل أو تتلاشى تلك المناقشات، بل ازدادت حدّة. وكنا نجد

في سائر الدوائر الكنسية أنصاراً متعصّبين لكل من المذاهب الثلاثة. ففي ولايتي بابل وبلاد ما بين النهرين، الخاضعتين للفرس، كان المسيحيون منقسمين بين نساطرة وقائلين بالطبيعة الواحدة. أما في ولايات سوريا وفلسطين ومصر، الخاضعة للحكم البيزنطي، فكان المسيحيون الخاضعين لبطريركيتي انطاكية والإسكندرية، منقسمين إلى خلقيدونيين وقائلين بالطبيعة الواحدة، والمسيحيون الخاضعون إلى بطريركية القدس كانوا خلقيدونيين حصراً.

كان رؤساء الاكليروس والرهبان، والمؤمنون في سائر هذه الدوائر، يتناصرون ويتنازعون الاسقفيات والكنائس والأديرة، ولا يتورّعون عن الاستعانة بالسلطة المدنية، للتنكيل بالمسيحيين من الطوائف الأخرى.

أما في شبه الجزيرة العربية، فكانت النسطورية قد تغلغلت شرقاً، في مملكة اللخميين - (الحيرة)، وفي مناطق البحرين وقطر وعُمان، في حين دخلت الطبيعة الواحدة إلى الجنوب، إلى مملكة بني الحارث - (نجران) وامتدّت شمالاً في مملكة الغساسنة - الجابية.

٣ - المسيحيون في بداية الدعوة الإسلامية (٦١٠ - ٦٣٢):

٣١ - الفرس في بلاد الشام والديار المصرية (٦١١ - ٦١٩):

في السنة ٦٠٢، استولى على السلطة في بيزنطية المدعو فوكاس، قائد إحدى الكتائب الإمبراطورية واغتصب العرش الإمبراطوري. فوقعت الاضطرابات وعانت العاصمة القسطنطينية عهد إرهاب وسادت الفتن والحروب الداخلية في الأقاليم بين المذاهب الدينية المتنازعة. وعقد البطريركان النسطوري واليعقوبي (البرادعي)، مجمعاً مشتركاً في انطاكية، للتشاور في اتخاذ إجراء مشترك لمناهضة الارثوذكس. على أن فوكاس انزل بهما العقاب، فأرسل جيشاً أجهز على أعداد ضخمة من المتهرطقين وبذل اليهود عن طيب خاطر مساعدتهم. وبعد سنتين ثار اليهود، وعذّبوا البطريرك الارثوذكسي في المدينة ثمّ ذبحوه.

في السنة ٦١٠، قام شاب نبيل من أصل أرمني يدعى هرقل، وأزاح فوكاس عن العرش واستلم هو الحكم. وبعد بضعة أشهر من تولّيه سدّة الإمبراطورية، دخلت الجيوش

الفارسية أرض الامبراطورية البيزنطية، فاستولى جيش من جيوش كسرى على بلاد الأناضول وأطاح بانطاكية السنة ٦١١، وقام جيش آخر بفتح بلاد الشام، فاستولى على دمشق السنة ٦١٣. وقد حاول هرقل أن يقاوم الغزو الفارسي لكنه لم يفلح.

في ربيع ٦١٤، دخل فلسطين جيش فارس بقيادة شهرباراز المشهور وتوغّل فيها ناهباً الأراضي والأملاك وحارقاً الكنائس والأديرة ولم يفلت من يده إلاّ كنيسة المهد في بيت لحم، لما كان يعلو بابها من فسيفساء تمثّل رسم صورة الحكماء «المجوس» الذين كانوا أتوا من الشرق لرؤية ولادة المخلّص المسيح، وهم باللباس الفارسي.

تقدّم شهربازار حتى وصل إلى القدس. وبعد عشرين يوماً من حصارها، اقتحمها، واستعدّ البطريرك زكريا لتسليم المدينة، ليتجنّب سفك الدماء، غير أن السكان المسيحيين رفضوا الاستسلام. وفي الخامس من أيار سنة ٦١٤، وبفضل مساعدة اليهود المقيمين داخل القدس، شقّ الفرس طريقهم إلى داخل المدينة، فذبحوا أهلها ونهبوا منازلهم وأحرقوا الكنائس بما فيها كنيسة القيامة وبلغ عدد الذين تعرّضوا للقتل نحو ستين الفاً. وقد بيع خمسة وثلاثون ألفاً من السبايا عبيداً أو أرسلوا إلى بلاد فارس. وقد اشترك اليهود بهذه المجزرة. واستولى القائد الفارسي على الصليب الحقيقي وبعث به إلى كسرى. أما البطريرك زكريا، الذي كان قد حاول المفاوضة لتسليم القدس صلحاً فقد سيق أسيراً إلى قطيسفون عاصمة الفرس، وبعدما زرع الجيش الفارسي الهلع، اثر غزوة أوصلته في العام ٦١٥ إلى خلقيدونية حيث، عرض الامبراطور البيزنطي هرقل التفاوض ولكن كسرى رفض. وقد استولى الفرس على بيلور بعدما وطّدوا النظام في سوريا وفلسطين. والسنة ٦١٧ زحفوا إلى مصر وتوغّلوا فيها، كما تمكّنوا من دخول الاسكندرية في العام التالي، بعد حصار عسير وطويل، وعلى الرغم من مقاومة الوالي البيزنطي نيقيتاس لهم مقاومة عنيفة. هرب الوالي والبطريرك الخلقيدوني إلى القسطنطينية، واستجرّ سقوط العاصمة فتح مصر عن آخرها السنة ٦١٩.

كان سقوط القدس بأيدي الفرس، صدمة عنيفة للعالم المسيحي. وما قام به اليهود من دور في ذلك لم يجر مطلقاً نسيانه أو اغتفاره، فاتخذت الحرب مع الفرس صفة «الحرب المقدّسة».

٣٢ - أوضاع المسيحيين تحت الحكم الفارسي (٦١١ - ٦٢٩):

خلّف الاحتلال الفارسي الطويل لبلاد الشام والديار المصرية - ثماني عشرة سنة في بلاد الشام، وإحدى عشرة سنة في مصر، آثاراً خطيرة الشأن من الوجهة الدينية، إذ تمكّن المونوفيزيون من ممارسة عقيدتهم بحرية تامة، ذاك ان الفرس مالوا إلى هذه الجماعات لأنهم اعتبروا أن اندادهم الخلقيدونيين كانوا حلفاء الامبراطورية البيزنطية. وقد قرّر كسرى أنه يتوجّب على كافة رعاياه من المسيحيين اعتناق إيمان الأرمن أي المونوفيزية. وذلك بعدما استدعى كسرى أساقفة الشرق إلى قطيسفون، لكي يحدّدوا الإيمان الصحيح.

وفي سوريا تولّى السلطة في الكنيسة، البطريرك اثناسيوس الجمّال، القائل بالطبيعة الواحدة خلفاً للبطريرك انسطاس الثاني، الذي كان قد اغتاله اليهود السنة ٦٠٩. في مصر حصل الشيء نفسه واستلم البطريرك اندرونيقس. وفي السنة ٦١٦ عقد البطريركان، اثناسيوس وانسطاس الاسكندري ليعلنا توحّد كنيستهما بعد اجتماعات سمح الوالي بعقدها.

أما في فلسطين، فقد أعاد كسرى إلى المسيحيين كنائسهم وأديارهم وأذن لهم بإعادة بناء المباني التي هدّمت، فأعادوا البناء بمساعدات تلقوها من بطريرك الاسكندرية وجاثليق ارمينيا.

٣٣ - البيزنطيون يستعيدون سوريا ومصر (٦٢٢ - ٦٢٩):

عندما أصبح الامبراطور البيزنطي هرقل قادراً أن يتخذ خطة الهجوم على عدوّه الفارسي، نذر نفسه وجيشه للباري تعالى، ومضى على أنه محارب مسيحي يقاتل قوى الظلمة والشر. ففي السنة ٦٢٢، شرع في استعادة البلدان التي احتلّها الفرس، وكان ذلك بفضل حملات عسكرية دامت ست سنوات. فبعد أن طرد الجيش الفارسي من البنطس وكبادوقيا، توغّل هرقل في ارمينيا

السنة ٦٢٣، وقد استدعى كسرى قواته من سوريا السنة ٦٢٤ وصدّ هجوم البيزنطيين، ثمّ وجّه في العام ٦٢٦، جيشين لمهاجمة القسطنطينية واتفق مع «الاڤار» على أن يهاجموا المدينة في الوقت نفسه، في شهر حزيران. وبعد حصار دام شهراً، باء الهجوم النهائي بالفشل في ٧ آب ونجت القسطنطينية. وخلال حصار عاصمته، كان هرقل قد أعدّ لاجتياح بلاد فارس انطلاقاً من شمال القوقاز، بمعاونة الأرمن والجورجيين والخزر. بعد أن استولى على تفليس في العام ٦٢٧، توغّل الجيش البيزنطي في بلاد ما بين النهرين وانتصر على الجيش الفارسي قرب نينوى وبلغ عاصمة الفرس قطيسفون وفتحها عنوة. وكان كسرى قد هرب عند اقتراب هرقل ثمّ قُتل غدراً في ٢٩ شباط ٦٢٨، من جراء مكيدة دبّرها ابنه «كواذ». وفي ٣ نيسان التالي، وقّع هرقل وكواذ معاهدة صلح، غير أنها لم تنفّذ فوراً. وفي تموز ٦٢٩، تمّ الاتفاق مع قائد الجيش الفارسي في أرابيس على الجلاء عن البلاد المحتلّة وإعادة الصليب الحقيقي. وفي الشهر التالي استُقبل هرقل في القسطنطينية استقبال الأبطال الظافرين. ولم يدخل إلى القدس إلاّ في ٢١ آذار ٦٣٠، حيث أعاد الصليب الذي سلب إلى موضعه.

لقد أعاد هرقل، بانتصاره هذا، الإمبراطورية إلى وضعها وحال دون تفكّكها، غير أنه لم يذلّل المصاعب الاقتصادية التي تفاقمت من جراء ست سنوات من الحملات العسكرية التي أدّت إلى إفلاس الدولة، خاصة وأنه كان قد ورث خزانة خالية من المال. ولم يستطع الانفاق على حروبه إلاّ بما حصل عليه من الكنيسة من قرض كبير، وما حازه من بلاد فارس من غنائم، لم تكن كافية لتسديد هذا القرض.[1] وكان لا بدّ للسوريين والمصريين من أن يؤدّوا لمرّة أخرى ضرائب باهظة.

في بداية الأمر اتخذ هرقل بعض الإجراءات ضد اليهود، وذلك عندما وقف على التفاصيل الكاملة لما قاموا به من دور اثناء غزوات الفرس، وانتهى الأمر بأن أصدر

(١) رنسيمان، ستيڤن، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ج ١، ص ٢٩.

أمراً بفرض التنصير على جميع اليهود بالامبراطورية، وكتب إلى ملوك الغرب يحثّهم على أن يحذوا حذوه. بعد ذلك انغمس الامبراطور في أغوار أصول الدين المسيحي برغم خطورتها.

ظنّ بطريرك القسطنطينية، سيرجيوس المونوفيزيقي، السوري الأصل أنه قد نجح في عقيدة شأنها أن توفّق بين الخلقيدونية والمونوفيزية وهي: الفعل الواحد في المسيح (الإرادة الواحدة) وقد عرضها على هرقل الذي تحمّس لها باعتبار أنها الحل الوسط القادر على تحقيق الوحدة الدينية في الامبراطورية. وقد أقرّها بابا روما في شيء من التحفّظ والاحتراز. لم يجمع الناس على قبول هذا الحل، إذ بادر إلى رفضه رجال الدين المونوفيزيون ومعظم رجال الدين الأرثوذكس. وقد حاول هرقل جاهداً فرض هذه العقيدة وقد زار لأجل ذلك عدداً من الأديار في سوريا لاسيما دير القديس مارون في ناحية حمص، حيث استقبله الرهبان استقبالاً حسناً وقبلوا بالعقيدة الجديدة.

وعدّل هرقل فيما بعد في هذه العقيدة، فما أصدره السنة ٦٣٨، من تقرير الإيمان المعروف باسم Ecthesis لم يكن أيضاً مثمراً في الدفاع عن مذهب المشيئة الواحدة. هذا التقرير زاد، بعد المجمع المسكوني السنة ٦٨٠، فيما كان يعمل على تدمير المسيحيين في الشرق، من العداء والكراهية والفوضى.(١)

في ارمينيا، أمر هرقل الجاثليق عزرا، المونوفيزيتي، بأن يدعو إلى سينودس، انعقد في ارضروم في العام ٦٣٣، ووقّع عزرا شهادة الإيمان الذي أعدّه الامبراطور والذي لم يؤتَ على أي ذكر لمجمع خلقيدونية.

في مصر عيّن هرقل الأسقف قورش بطريركاً على الاسكندرية وخوّله صلاحيات الولاية والقيادة العسكرية. فقام هذا السنة ٦٣١ بحملة اضطهادات عنيفة ضد أصحاب الطبيعة الواحدة. وقّع هرقل مع أصحاب الطبيعة الواحدة في سوريا وأرمينيا ومصر اتحاداً على مبدأ العقيدة التي نادى بها، وظنّ انه أعاد الوحدة الدينية إلى امبراطوريته.

(١) Brehier, L, L'Eglise et l'Orient au M.A: Les Croisades, Paris, 1928, III. P, 124, 166, 200. -

لكن ذلك لم يكن إلاّ وهماً وقع به، لأن المونوفيزيين من سريان وأقباط لم يسلّموا بالاتحاد إلاّ مكرهين ومرغمين.(١)

٤ - ظهور الإسلام (٦١٠ - ٦٣٢):

وفيما كان المسيحيون: نساطرة وخلقيدونيين ومونوفيزيين، يتنازعون في شأن عدد الأشخاص، والطبائع، والأفعال التي ينبغي تمييزها في المسيح. وبينما كان هرقل في القسطنطينية، السنة ٦٢٩، يستقبل السفارات القادمة من الجهات النائية، من فرنسا ومن الهند، وصل إليه وقتئذٍ كتاب وجّهه إليه رجل عربي، أعلن أنه رسول الله، وأمر الإمبراطور بأن يعتنق دينه. لقد ولدت ديانة توحيدية جديدة في الحجاز في شبه الجزيرة العربية التي كانت عاصمتها الدينية مكة، هي الديانة الإسلامية.

- فابتداءً من العام ٦١٠م، بدأ الوحي ينزل على النبي محمد ﷺ بواسطة الملاك جبرائيل، فينقله إلى قبيلته قريش، ومما فيه أن محمد هو نبي الله والمرسل لنشر رسالته السماوية. وقد دوّنت الآيات لاحقاً في القرآن الكريم الذي أصبح كتاب المسلمين المقدّس، وفيها أن الله قد علم الناس على أيدي الأنبياء والكتاب المقدّس. ولكن لما كان اليهود والنصارى قد زيّفوا التوراة والإنجيل، فقد أرسل نبيّه محمد ﷺ لكي ينقل باللغة العربية النقية الدين الحق: الإسلام.

لاقت دعوة محمد ﷺ هذه، مناوءة بني قريش، سدنة معبد الكعبة وأصحاب الحج إليه، ولذلك اضطرّ إلى الهجرة من مكة إلى يثرب (المدينة) في العام ٦٢٢ (العام الأول للهجرة). وقد نظّم محمد ﷺ من المدينة غزوات عدّة على المكيين، كغزوة بدر الظافرة السنة ٦٢٤ وغزوة أحد الخاسرة في العام ٦٢٥. وبعد أن منع المكيين من اجتياح المدينة بفضل معركة الخندق في العام ٦٢٧، عقد معهم في العام ٦٢٨ هدنة عشرة أعوام، ثمّ تمكّن في العام التالي من دخول مكة حاجاً. ولكنه ألغى الهدنة في العام ٦٣٠ وفتح مكة من دون مقاومة وأتمّ الحجّ ثمّ أمر بتحطيم أصنام الكعبة كافة باستثناء الحجر الأسود.

(١) Brehier, op. cit. III, P, 124 - 166 - 200. -

ثمّ ما لبثت القبائل العربية المنتشرة في شمالي الحجاز وجنوبه أن راحت تعتنق الإسلام تدريجياً اثر غزوات كغزوة الطائف وتبوك.

سيّر النبي ﷺ غزوة إلى الأراضي البيزنطية، سنة دخول هرقل إلى القدس بالصليب الحقيقي، في العام ٦٣٠، وقد حصلت المعركة في المؤتة (بالأردن اليوم) انتهت بهزيمة للقوات العربية. وبعد سنتين كان النبي محمد ﷺ يعدّ غزوة جديدة عندما توفي.

في العام ٦٣١ استقبل محمد ﷺ بالمدينة وفداً من مسيحيي نجران جاء يطلب منه عقد معاهدة صلح، عقب غزوات عدّة شنت عليهم، وبعد أن دعاهم إلى الإسلام عرض عليهم المباهلة فرفضها المسيحيون مفضّلين الاستسلام. فتمّ التوقيع على معاهدة، كفل النبي ﷺ بمقتضاها لأهل نجران سلامة أنفسهم، وأموالهم ودياناتهم، لقاء عدد من الخدمات والمؤن.

ولمعاهدة نجران، أهمية رئيسية لأنها غدت نموذجاً للمعاهدات التي عقدها المسيحيون لاحقاً من دون قتال.

٤١ - الفتح العربي لبلاد الشام والعراق (٦٣٢ - ٦٣٩):

وفيما كان أبو بكر، الخليفة الأول لمحمد ﷺ، يقمع حركة الردّة التي انتشرت بين القبائل العربية، بعيد وفاة النبي ﷺ، باشر في فتح بلاد الشام والعراق من خلال حملات عسكرية عدّة أرسلها إليها. فمنذ العام ٦٣٣، غزت قوات خالد بن الوليد جنوب العراق، فاحتلّت قطر والبحرين واليمامة (ميسين)، واستولت على الحيرة عاصمة بني لخم التي استسلمت بلا قتال.

بعد وفاة أبي بكر السنة ٦٣٤، ولي عمر ابن الخطاب الذي اتصف بالعزم والاصرار على مدّ سلطان الإسلام.

وفي تلك الأثناء أدرك الامبراطور هرقل، الذي لا زال وقتذاك بشمال الشام، أنه لا بدّ من اتخاذ الحزم والشدّة في معالجة غارات العرب. من أين له ذلك، فحربه مع الفرس كبّدته خسائر فادحة لذلك سرّح كتائب عديدة من جيشه على سبيل الاقتصاد والتوفير. ثمّ أن الحماس قد خفّ للانخراط في سلك الجيش، وخيّم على الامبراطورية جو التراخي والتشاؤم. ومع ذلك انفذ هرقل

أخاه تيودور على رأس جيوش إقليم الشام، لإعادة الأمن إلى فلسطين. والتقى تيودور بالجيشين العربيين معاً في «جالوت» أو اجنادين، جنوبي غربي بيت المقدس، فتعرّض لهزيمة ساحقة. وواصل العرب الزحف عل الطريق التجاري الذي يسير من شرقي نهر الأردن إلى دمشق ووادي نهر العاصي. فسقطت في أيديهم دون قتال، طبرية وبعلبك وحمص وأذعنت دمشق في آب ٦٣٥ بعد حصار قصير الأمد. فاشتدّ قلق هرقل ولم ينفذ جيشاه صوب الجنوب إلاّ بمشقّة وعناء. وتألّف أحد الجيشين من وحدات أرمنية بقيادة الأمير الأرمني ڤاهان ومن عدد كبير من العرب المسيحيين يرأسهم أمير من بني غسان. أما الجيش الأخر فتولّى قيادته تيودور تريتيريوس وتألّف من أخلاط من الجنود. بادر العرب بالجلاء عن وادي نهر العاصي ودمشق وتراجعوا نحو الأردن. والتقى بهم تريتيريوس عند الجابية في حوران، غير أن الهزيمة حلّت به. ومع ذلك استطاع ؟أن يتخذ له مركزاً على نهر اليرموك، في الجنوب الشرقي لبحيرة طبريا، حتى يلحق به جيش ڤاهان.

وفي هذا الموضع دارت المعركة الحاسمة في العشرين من آب، في يوم حجبت فيه الرؤيا العواصف الرملية. كان عديد الجيش البيزنطي أكبر من عديد الجيش العربي غير ان العرب تفوّقوا عليهم في المناورات الحربية. وفي قمة المعركة انحاز إلى العرب المسلمين أمير بني غسان مع رجاله البالغ عددهم حوالى الاثني عشر ألف مقاتل. كانوا يدينون بالطبيعة الواحدة ويكرهون الامبراطور هرقل ولم ينالوا مرتّباتهم شهوراً عديدة. فحسمت المعركة بذلك أمر النزاع، وأحرز العرب المسلمون نصراً تاماً وقتل تريتيريوس وفاهان وعدد كبير من رجالهما وأصبحت فلسطين والشام مفتوحة أمام هؤلاء المقاتلين الجدد.

بلغت الإمبراطور أنباء المعركة ونتيجتها، وكان في انطاكية، فاستبدّ به اليأس لأنه كان يفتقر إلى الرجال والأموال لمتابعة القتال والدفاع عن مملكته وأقاليمها. فترك انطاكية بحراً وعاد إلى عاصمته القسطنطينية. ويقال إن هرقل قبل أن يغادر بلاد الشام، نهب وسرق ما زخرت به مدنها من الثروات، وقد أمر بنقل الصليب الحقيقي إلى عاصمته القسطنطينية.

بادر العرب إلى احتلال الأقاليم، فلم يتردّد المسيحيون في الخضوع لهم، وبذل اليهود لهم خدمة جليلة، بأن عملوا أدلاّء لهم. ولم يلقوا مقاومة منظّمة إلاّ في المدينتين الكبيرتين بفلسطين: قيسارية والقدس، ومن حصني بيلا Pella ودارا على تخوم فارس. ففي القدس، حينما علم البطريرك صفرونيوس بأنباء معركة اليرموك، رمّم استحكامات المدينة، وجمع ما يتعلّق بالمسيح من مقدّسات دينية، وأرسلها ليلاً إلى الساحل حيث أخذت طريقها إلى القسطنطينية.

حاصر العرب المدينة لمدّة سنة تقريباً. وبعد هذا الحصار تفاوض البطريرك صفرونيوس على استسلام القدس مع الخليفة عمر بن الخطاب الذي جاء سوريا زائراً في أواخر العام ٦٣٨.(١)

وقد تمّ فتح سوريا بفتح انطاكية في العام نفسه وقيصرية في العام ٦٣٩.

بعد سوريا جاء فتح بلاد ما بين النهرين: فتحت الرقة والرها صلحاً. وانتصارهم في القادسية، أكسبهم العراق. وبعد معركة النهوند السنة ٦٣٨، صارت لهم هضبة ايران. على أن يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين، ظلّ في خراسان حتى السنة ٦٥١. في حين أن العرب بلغوا يومذاك الأطراف الشرقية لإيران عند نهر جيحون وتلال الافغان.

٤٢ - الفتح العربي لمصر (٦٣٩ - ٦٤٥):

فيما كان الخليفة عمر بن الخطاب في فلسطين، قام عمرو بن العاص، على رأس جيش صغير، بالاستيلاء على عريش مصر في كانون الأول ٦٣٩. وبعد أن تلقّى تعزيزات من الخليفة عمر، استولى على بيلوز. هزم عمرو بن العاص الجيش البيزنطي في هليوبوليس السنة ٦٤٠، ثمّ راح يضرب الحصار على الفسطاط التي استسلمت في نيسان ٦٤١. وقد أتاح سقوط الفسطاط لعمرو فتح صعيد مصر، حيث لم يواجه مقاومة تذكر، كما فتح له الاستيلاء على نيكيو في الدلتا في الأول من أيار ٦٤١، طريق الاسكندرية.

(١) رنسيمان، مرجع سابق، ص ٣٧.

بعد سقوط هليوبوليس، اتهم الامبراطور البطريرك قورش بالخيانة، لأنه حاول التفاوض مع عمرو فاستدعاه إلى القسطنطينية. وإذ توفي هرقل في هذه الأثناء، أعادت مارتين الوصية على العرش، البطريرك إلى الاسكندرية فوصلها في أيلول ٦٤١. ولما كان البطريرك، في ما سلف، أسقف في القوقاز، فقد لقّبه الأقباط، الذين يكرهونه، بالقوقازي ومنه اسم المقوقس الذي تطلقه عليه المصادر العربية.

بعد وصوله إلى الاسكندرية، ذهب المقوقس إلى مقابلة عمرو في الفسطاط وتفاوض معه على صلح وقّع في تشرين الثاني ٦٤١. كما وقّعت هدنة منحت الجيش البيزنطي ١١ شهراً لمغادرة الاسكندرية لقاء جزية معلومة.

في ٢٩ تشرين الثاني من السنة نفسها تمّ جلاء الجيش البيزنطي عن الاسكندرية التي دخلها عمرو. بعدها تابع فتوحاته متوغّلاً نحو الغرب، لكنه مني بسخط الخليفة عمر الذي فرض عليه زميلاً، ثمّ استدعاه الخليفة الجديد، عثمان إلى المدينة في تشرين الثاني ٦٤٤، بعد وفاة عمر.

حاول الإمبراطور قسطنطينوس استغلال سخط الخليفة على عمرو لاستعادة مصر فجرّد جيشاً نزل إلى شاطىء الإسكندرية وفاجأ الحامية ودخل المدينة في العام ٦٤٥، ثمّ سار إلى معسكر الفسطاط. لكن عمرو بن العاص، الذي أعيد إلى مصر، انزل هزيمة حاسمة بالجيش البيزنطي الذي ركب البحر عائداً من الإسكندرية. وقد تفاوض البطريرك بنيامين المونوفيزي مع عمرو على صلح جديد، وفقدت الإمبراطورية البيزنطية مصر نهائياً.

وفي سنة ٧٠٠، صارت افريقيا الرومانية في أيدي العرب. وبعد ١١ سنة استولى العرب على اسبانيا، وفي سنة ٧١٧، امتدّت الامبراطورية العربية من جبال البرنس في فرنسا إلى جوف الهند، وأخذ المحاربون العرب يدكّون أسوار القسطنطينية.

٤٣ - أهل الذمّة والجزية والخراج:

قَبِلَ المسيحيون في الشرق عن طيب خاطر سيطرة العرب المسلمين. فلم يكن ثمة إلاّ احتمال ضئيل في أن تنهض بيزنطية من جديد، مثلما حدث زمن الحرب الفارسية

لإنقاذ الأماكن المقدّسة. لقد أنشأ العرب أسطولاً بحرياً سيطر على البحار لمدّة ٣ قرون، اتخذ قاعدته بالاسكندرية. أما في البر فقد احتفظوا بالمبادرة الهجومية طوال هذه المدّة.

يقول البطريرك اليعقوبي بانطاكية، ميخائيل السرياني، أن تبديل الحكام جلب إليهم الراحة والسرور «أن الله المنتقم القهّار، أثار من الجنوب أبناء إسماعيل لإنقاذنا من أيدي الرومان».(١) وبالرغم من الجزية التي فرضها المسلمون على النصارى. فقد كانت الضرائب أقل بكثير عمّا كان معروفاً زمن البيزنطيين.

أ - أهل الذمة:

باتت العهود التي أعطيت لأهل الكتاب، أشبه بإطار عام لمنظومات قانونية تحدّد حقوق أهل الذمة. في البداية نظّمت العلاقات بين الفاتحين العرب والنصارى في البلاد المفتوحة بمقتضى آية قرآنية وعقد الصلح الذي أبرمه النبي محمد ﷺ في العام ٦٣١ مع أهالي نجران. والآية القرآنية هي تلك التي تأمر المسلمين بمقاتلة أهل الكتاب الذين لا يمارسون الديانة الحقيقية ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾.(٢) وأما عقد الصلح فقد رأينا أنه يكفل للنصارى جوار الله وذمّة رسوله لقاء شيء معلوم من المؤن والخدمات.

وأن عقود الصلح التي أبرمها القادة المسلمون لسكّان المدن التي فتحت صلحاً إنما تستلهم هذين العنصرين. ففي هذه العقود كافة، التي حفظها لنا المؤرّخون العرب، نجد الشروط نفسها تقريباً. وهذه الشروط هي كما يلي: لقاء دفع الجزية، وتقديم خدمات متنوّعة للجيش المسلم، وبعض القيود على ممارسة الطقوس الدينية المسيحية، يكفل القائد العربي لأهل المدينة التي تعقد صلحاً حماية أنفسهم وأهلهم وذراريهم وأموالهم.(٣) وهو ما سمي

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٤٠.

- Michel, Le Syrien, Chroniques, 4 volumes, Paris, 1910, vol. 2, P 412 - 113.

(٢) التوبة: من الآية ٢٩.

(٣) المسيحية عبر تاريخها في المشرق، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، ط ١، ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

«بالذمة»، وهذا اللفظ الذي يرد مرّتين في القرآن الكريم، ويظهر أيضاً في صلح نجران يعني، في آنٍ معاً، العهد والعقد، والأمان الذي يكفله هذا العقد. والمستفيد من هذا العقد يُسمّى «ذمياً» والنصارى يسمّون «أهل الذمّة». لقاء هذه الحقوق كان على النصارى واجبات وأهمها تأدية «الجزية». وهي ليست كالصدقة والضريبة العادية التي يدفعها المسلمون. فالجزية، لغةً، تتحمّل معنى الجزاء ويرتبط ذكرها في القرآن الكريم بالصغار، وهذا يفسّر اعتراض عدد من النصارى العرب، الذين لم يعتنقوا دين بني قومهم الجديد. ومن المعروف أن الخليفة عمر تجاوب مع اعتراض بني تغلب، آخذاً في الحسبان عددهم ومكانتهم في العربية، فأعفاهم منها.

كانت الجزية نوعاً من الضريبة الشخصية، الأمر الذي جعلها تدعى لاحقاً «جزية الرؤوس». وإضافة إليها، جاء في المصادر العربية ذكر «الخراج» بالتلازم معها تارة أو بالاستقلال عنها طوراً. و«الخراج» نوع من الضريبة العقارية تؤخذ من أهل الذمة، الذين لا تدخل أراضيهم في حكم الفيء الذي يصرف في سبيل الجماعة الإسلامية. وقد تفاوتت، الجزية والخراج بين الحلم والشدّة، نسبة إلى طباع الحكام المختلفين.

الفصل الثالث

الحج إلى المقدّسات الدينية في الشرق من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر

١ - توطئة:

مما لا شكّ فيه أن الرغبة في الحج، هي من الأمور المتأصّلة في الطبيعة البشرية. فالإنسان مفطور على الذهاب إلى الأماكن التي يرى أنها تذكّره باولئك الذين يجلّهم ويبجّلهم، مما يجعله يشعر بما يربطه بهم من صلة روحية واعراباً عملياً على ما يكنّه من ولاء. فالأنبياء في الكون لهم مزاراتهم وكذلك الأرض التي عاشوا عليها والأماكن التي انتقلوا منها وإليها، تعني الكثير للمؤمنين، خاصة تلك الأمكنة التي يعتقدون أن الله بارك بها الأرض وقدّسها، لذلك نرى الناس يأتون من أماكن بعيدة لزيارتها والتبرّك بمياهها وترابها ويتخيّلون حياة وتحرّك هذا النبي أو ذلك الولي، فيتبرّكون من متروكاتهم إذا وجدت أو من المكان الذي عاشوا في كنفه، لاكتساب الفضائل الروحية والتعبّد والصلاة والابتهال.

٢ - الحجّاج المسيحيون الأوائل:

في الأيام الأولى للمسيحية كان الحج أمراً نادراً. فالمسيحيون كانوا ينظرون إلى تأليه المسيح وإلى عالميته، لا إلى بشريته. والسلطة الرومانية الحاكمة آنذاك، كانت تدين بالوثنية وتحارب هذه البدعة المسيحية وترسل معتنقيها إلى ملاعب وأشداق الحيوانات المفترسة، لذلك لم يتشجّع هؤلاء بالذهاب إلى فلسطين للتبرّك من الأماكن التي كانوا يعتبرونها مقدّسة. فمدينة القدس التي دمّرها الامبراطور

«تيتوس»، بقيت خراباً بلقعاً حتى أعاد بناءها الإمبراطور «هادريان» وأسماها ايلياء.

كان المسيحيون الأوائل يعلمون مأساة حياة المسيح، فأولوا الموضع الذي استقرّت به رفاته والمكان الذي ولد فيه والجبل الذي صلب عليه، الاحترام والتبجيل.

ولم يأتِ القرن الثالث حتى أصبحت المغارة ولتي وُلد فيها المسيح في بيت لحم، مكاناً معروفاً ومحدداً بدقة من قبل المسيحيين وصار في وسعهم أن يحجّوا إليها وإلى جبل الزيتون وإلى مكان القبر الذي دفن فيه وإلى الموضع الذي صعد منه إلى السماء. فأضحى من الشعائر المسيحية، زيارة هذه الأماكن المقدّسة من أجل العبادة، واكتساب الفضائل الروحية.

في هذه الأثناء اعتنق الامبراطور الروماني الديانة المسيحية وكذلك الرعية، من دواعي سروره وغبطته، أن يهب القوّة للديانة التي اختارها، فشيّد في بيت لحم، موضع الكهف أو المغارة التي ولد فيها المسيح، كنيسة هي كنيسة القيامة.[1] منذ ذلك التاريخ راح المؤمنون يحجّون إلى تلك الأماكن، ليعودوا إلى ديارهم بعد الزيارة، يصفون ما رأوا وما شاهدوا أثناء سفرهم وإقامتهم.

في نهاية القرن، استقرّ في فلسطين أحد كبار آباء العالم المسيحي اللاتيني، هو القديس «جيروم». والكلّ يعلم كيف أنه سار على الطرقات نفسها التي سار عليها المسيح حتى وصل إلى صور وصيدا في لبنان. أما القديس اوغسطينوس والذي كان من أشد أباء الكنيسة روحانية في الغرب، فأنه اعتبر الحج، لا علاقة له بالدين، بل يعتبر مصدر خطر عليه، وقد اتفق معه على ذلك أباء الكنيسة اليونانية.[2]

تضاعف عدد الحجاج بفضل تشجيع السلطات الحاكمة آنذاك في الامبراطورية الرومانية، حتى أنه في أوائل القرن الخامس، صار في مدينة القدس وحولها نحو مائتي دير ونزل، جرى تشييدها لاستقبال الحجاج، وتكاد تكون جميعاً تحت رعاية

---

(١) اوسابيوس، التاريخ الكنسي (بالإنكليزية)، لندن ١٩٢٨، ج ١، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٢) رنسيمان، ج١ ، ص ٧٥.

الإمبراطور.[1] وكان البعض من الحجاج يزداد شغفاً بجمع المقدّسات الدينية، مثل صورة مريم العذراء التي رسمها القديس لوقا والتي استولت عليها الإمبراطورة ايدوسيا.

٣ - الحج في القرنين الثامن والتاسع:

بعد الفتوحات العربية، لم يعد التجار السوريون يرتادون سواحل فرنسا وايطاليا، يحملون الأواني والأنباء. وظهر القراصنة من جديد في البحر المتوسّط. ودخلت في نفوس حكام فلسطين الريبة فيمن يأتي من الخارج من المسافرين المسيحيين. وأضحى السفر بالغ التكاليف، شديد المشقة. وحلّت بالعالم الغربي أزمات اقتصادية متتابعة وقلّت الأموال بين أيادي الناس وأصبح الأثرياء قلائل، غير أن الاتصال لم ينقطع نهائياً بين الشرق والغرب، أما الرحلة فكانت تستغرق سنوات عديدة ودونها عقبات كثيرة.[2]

وعندما كان الحجاج يعودون إلى ديارهم، كانوا يحملون معهم تقارير وافية عن أحوال بلاد الشام والمشرق العربي من كافة النواحي، وبالغوا في تصوير أحوال الرفاه وتوفّر الثروات وكثرتها، كما تمّ الافصاح بشكل منقطع النظير عن قضايا الخلافات الدينية والصراعات المذهبية التي تجدّدت بشكل عنيف ابتداءاً من نهاية القرن العاشر واستعرت بشكل أعنف في القرن الحادي عشر.

بالرغم من هذه العقبات الكأداء التي كانت تعترض الحجاج إن كان في الغرب أو في الشرق، بقي المؤمنون يصرّون على السفر إلى أرض ميلاد المسيح ويتبارون في زيارة الآثار الأعظم مكانة فيها. لقد صار أمر الحج عادة وعقيدة جديدة دخلت إلى أركان الديانة المسيحية، لذلك لم تفاجئنا الكنيسة الإسبانية بإرسال راهبات منها للخدمة في كنيسة القيامة.

---

(١) Cauret, A. La Palestine sous les Empereurs grecs, Grenoble, France, 1869, P. 212 -

(٢) رنسيمان، جزء ١، ص ٧٩.

٤ - الحج في القرنين: العاشر والحادي عشر - دير كلوني (٩١٠):

يعتبر القرن العاشر عهد الحجيج الكبير ذاك أن القراصنة العرب فقدوا ملجأهم قبالة إيطاليا وجنوب فرنسا، وجرى أيضاً انتزاع جزيرة كريت منهم سنة ٩٦١. وكان الأسطول البيزنطي في أوج قوته، يسيطر على سيادة البحر المتوسّط. لذلك انتعشت التجارة البحرية، فصارت السفن اليونانية والايطالية، تمخر عباب البحر في حرية تامة متنقلة بين موانىء ايطاليا والإمبراطورية البيزنطية، وانتعشت التجارة أيضاً بين الغرب وبرّ الشام ومصر بفضل تسامح السلطات الإسلامية في هذه الديار. وصار ميسوراً للحجاج أن يحصلوا على تراخيص بالدخول إلى موانىء طرابلس والإسكندرية إلى جانب القدوم إلى القسطنطينية،[1] ليشاهدوا ما اشتهرت به من مجموعة كبيرة للمخلفات الدينية، ثمّ يواصلون سيرهم بالطريق البري أو البحري إلى فلسطين. وكانت السلطات الإسلامية ترحّب بهم ترحيباً ممتازاً، سواء كانت هذه السلطات عباسية أو اخشيدية أو فاطمية، لما يجلبونه للأقاليم من أموال كبيرة.[2]

لقد راجت في تلك الأيام من بلاد الغرب، أن الحجّ يعتبر من أركان التكفير عن الخطيئة والتوبة. وهذا الاعتقاد أخذ يزداد مع الأيام ومع فكرة أن لبعض الأماكن المقدّسة، أهمية روحية خاصة، تؤثّر في أولئك الذين يقومون بزيارتها، بل أنها، كما قلنا سابقاً، قد تهب للحاج، التحلّل والتوبة من الذنب، ويمكنه أن يؤمّن الاتصال الروحي مع الله والقدّيسين. على أن السفر أو الارتحال لا يزال يستغرق من طول الزمن ويثير من الحماس الديني، ما يكفي لإرضاء ما اشتهر به الرجل الغربي في العصور الوسطى من الإدراك السليم أو الشعور الديني.[2]

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٨١.

(٢) - Rosière, E. De. Recueil géneral des Formules usitées dans l'Empire des Francs du Vème du Xème siècle, 2 vols, Paris, 1879, vol 2, P 939 - 941.

- رنسيمان، ج١ ، ص ٨٢.

لقد استمرّت حركة الحج خلال هذا القرن، وأمّت فلسطين كبار الشخصيات وكبار رجال الكنيسة، نذكر البعض منهم: أسقف كونستانس كنراد الذي حجّ ٣ مرات إلى القدس وأسقف بارما الذي حجّ ٦ مرات وأسقف اوليڤولا الذي أتى فلسطين سنة ٩٣٠، والعدد الكبير من رؤوساء الأديرة وقد أتوا ومعهم جماعات من الفقراء، رجالاً ونساء.(١)

٤١ - ديركلوني وتنظيم الحج:

في سنة ٩١٠، إنشاء وليم الأول كونت اكيتانيا دير «كلوني» الذي أصبح مركزاً مهماً لأمور كنسية ضخمة، بالغة التنظيم، شديدة التعلّق ووثيقة الاتصال بالبابوية. وقد أقرّ مذهبهم الحج. وأرادوا أن يبذلوا له مساعدة عملية. ففي بداية القرن التالي، خضع لإشرافهم معظم الحجاج الذين توجّهوا لزيارة الأماكن المقدّسة في فلسطين بعد أن نظّموا الرحلات إلى القدس. وبفضل تشجيعهم، أتى إلى القدس السنة ٧٩٧ كونت ڤردان والسنة ٩٩٩ رئيس دير ستافيلوت (STAVELOT).

وفي القرن الحادي عشر كثر عدد الحجاج القادمين من فرنسا واللورين والالزاس، ومن الجهات القريبة لدير «كلوني» ومن الأديرة التابعة لها. وكذلك كثر عدد الحجاج الالمان والانكليز. إلى جانب الدير هذا، شجّع النبلاء الفرنسيون، أمثال كونت انجو وكونت نورماندیا الحج إلى فلسطين، كما أن الأول، أتى شخصياً إلى القدس سنة ١٠٠٢ لأول مرّة وقد أعاد الكرة مرتين. أما الثاني فقد أرسل الصدقات إلى الأراضي المقدّسة. أما وريثه فقد قاد سنة ١٠٣٥، رحلة الحج مع جماعة كبيرة من منطقته، للتكفير عن ذنوبهم والتوبة.(٢)

٤٢ - حجيج شمالي أوروبا:

في منتصف القرن الحادي عشر، كثر عدد الحجاج النورمانديين واشتدّ حماسهم، ما

(١) Brehier, op., cit, III, P, 32 - 33.

(٢) - Brehier, op., cit., P. 42 - 45.

حمل الحكومة البيزنطية، التي اشتهرت بسخطها على النورمانديين لما شنّوه من الغارات على أملاك بيزنطية في إيطاليا، على أن ترتاب في حركة الحج، وكثيراً ما كانت هذه الحكومة تغلق طريق الحجاج إلى جانب أن موظّفيها لم يكونوا دائماً مهذّبين في معاملتهم لهؤلاء الحجاج.(١)

أما السكنديناقيون فلم يكونوا أقل حماسة دينية من النورمانديين، فقد درجوا منذ زمن طويل على زيارة القسطنطينية، واشتدّ تأثّرهم بما اشتهرت به من ثروة وعجائب. وتقول حوليات ذلك الزمان، أنه كان في الجيش البيزنطي فعلاً، سنة ٩٣٠، جماعة من هؤلاء. وفي أوائل القرن الحادي عشر، بلغوا من كثرة العدد، أن تألّفت كتيبة خاصة منهم، وهي التي اشتهرت بحرس الورنك. وقد درج هؤلاء على أن يقضوا الإجازة في رحلة حج إلى القدس. إلى جانب هؤلاء، لقد أتى فلسطين، حاجاً، كثير من أمرائهم ونبلائهم، طالبين التوبة والمغفرة على جرائم قتل كانوا قد ارتكبوها سابقاً.

كان الشماليون يأتون إلى الشرق، آخذين طريقاً دائرياً، بأن يقدموا بطريق البحر مجتازين جبل طارق، وأن يعودوا بطريق البر، عبر روسيا.(٢)

٤٣ - رحلة الحجيج إلى القدس:

في القرن العاشر، كان الحجاج يضطرّون للانتقال بحراً للوصول إلى القسطنطينية أو إلى بلاد الشام. كانت أجور السفر باهظة الثمن، ولم يكن من السهولة إطلاقاً، الحصول على مكان في السفينة المغادرة.

في العام ٩٧٥، اعتنق ملوك المجر المسيحية، فانفتحت بذلك الطريق البرية التي تسير محازية لنهر الدانوب، وتجتاز البلقان حتى الوصول إلى القسطنطينية. وقد كان هذا الطريق محفوفاً بالخطر حتى سنة ١٠١٩، حين تمكّنت الإمبراطورية البيزنطية من السيطرة التامة على البلقان، فتسهّلت الأمور وأصبح الأمان سيّد الموقف في تلك النواحي.

وكان بإمكان الحجيج أن يأخذ طريقاً، بأن يأتي إلى «باري» في إيطاليا (وكانت من

(١) - Brehier, Op., Cit., P 42.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٨٥ - ٨٦.

أملاك بيزنطية)، ويجتاز البحر الادرياتيكي في رحلة قصيرة من باري إلى دوراتزو ثمّ يسلك الطريق الروماني القديم Via - Egnatia - مجتازاً سالونيك إلى البوسفور حيث يوجد ثلاث طرقات تؤدّي به، عبر آسيا الصغرى إلى انطاكية ومنها إلى الساحل، إلى اللاذقية، إلى طرسوس والوصول إلى فلسطين عبر الأراضي اللبنانية.

وكان السفر براً، برغم بطء السير، أقل كلفة وأكثر راحة من السفر بحراً، وهو أكثر ملاءمة للجماعات الكبيرة من الحجاج.[1] كلّما سار الحجاج في هدوء ونظام، استطاعوا أن يرتكنوا إلى ما يبذله لهم الفلاحون بالإمبراطورية من الضيافة والمعاملة الطيّبة. ففي المرحلة الأولى من رحلتهم، كان رهبان دير كلوني يشجّعونهم ويتلقّون منهم تحبيذاً تاماً. وكان هؤلاء يشجّعونهم في الواقع بجميع الوسائل: فقد شيّدوا على جوانب الطرق، الفنادق لأجل الحجاج، فقامت في إيطاليا منازل عديدة. وفي القدس كان بوسع الحجاج البائسين أن ينزلوا في مستشفى القدّيس يوحنا، الذي أنشأه تجار أمالفي لهذا الغرض.[2] ولم يكن ثمة ما يمنع «كبار السادة الحجاج، من أن يصحبوا معهم حرساً مسلّحاً، طالما يجري ضبطهم، وحاول معظم الحجاج أن يلتحق بهذه الجماعة».

تأزّمت أمور الحج على أيام الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢١) الذي هدم كنيسة القيامة سنة ١٠٠٩، وهذا الهدم جاء بمثابة إشارة لتدمير كنائس النصارى في كلّ مكان في سوريا.[3] فلم يكن من اليسير أن يقيم الحجاج زمناً طويلاً في فلسطين، على الرغم من أن سيل الحجاج لم ينقطع مطلقاً.

في السنة ١٠٥٥، كان يعتبر العبور إلى أراضي المشرق العربي أمراً بالغ الخطورة.

---

(١) زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، دار التقدّم موسكو، ترجمة الياس شاهين، ١٩٨٦، ص ٢٢.

(٢) زابوروف، ص ٢٣.

- الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبية، دار نوبليس بيروت ١٩٩٠، ج ١، ص ١٦١.

- رنسيمان، ج ١، ص ٨٨.

(٣) وليم، م. س، ص ١٤٧.

وفي السنة ١٠٥٦، «منع المسلمون، بإيعاز من الإمبراطور البيزنطي فيما يبدو، الحجاج القادمين إلى فلسطين، من دخول كنيسة القيامة، حتى يدفع كلّ منهم قطعة ذهبية فرضت كجزية نقدية.(١) كما طردوا من القدس نحو ثلاثماية منهم.(٢)

على أن هذه المضايقات كانت نادرة، فطوال القرن الحادي عشر، حتى العشرين سنة الأخيرة منه، لم ينقطع سيل الحجاج عن التدفّق صوب المشرق العربي، ففي بعض الأحيان، كانوا يأتون جماعات يبلغ عددها الألوف من الرجال والنساء، من جميع الأعمار والطبقات، فيتوقّفوا في القسطنطينية لرؤية وتمجيد المخلّفات الدينية من تاج الشوك ورداء المسيح وكلّ المخلفات الكبيرة المتعلّقة بآلام المسيح وصورة العذراء مريم التي رسمها القدّيس لوقا، وشعر يوحنا المعمدان وعباءة النبي الياس وعدد لا يحصى من أجساد القديسين والأنبياء والشهداء. ومن القسطنطينية يذهبون إلى فلسطين، إلى الناصرة وجبل الطور وإلى نهر الأردن وبيت لحم. ثمّ يتخذون طريق العودة الطويل إلى بلادهم، فيستقبلهم قومهم بالتحيات والترحاب على أنهم حجّاج المسيح، الذين قاموا بأقدس الرحلات. ونجاح الحجيج توقّف على شرطين:(٣)

- الأمن في فلسطين شرط تأمينه من قبل السلطة الحاكمة.
- أن يظل الطريق مفتوحاً وزهيد الكاليف وهذا يؤمنه الرخاء وبذل الخير في بيزنطية.

(١) وليم، م. س، ص ١٦٠.
(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٨٩.
(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٩٠.

الفصل الرابع

الحالة العامة في بلاد الشام وبيزنطة عشية وصول جيوش الفرنجة إلى المشرق العربي (١٠٥٠م - ١٠٩٧)

١ - الوضع العام في بلاد الشام:

١١ - جغرافية بلاد الشام:

بلاد الشام لدى الجغرافيين الأوائل، هي صقع يحدّه من الشرق سقي نهر الفرات، ومن الغرب البحر المتوسّط، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر، ومن الشمال سفوح جبال طوروس المتصلة ببدايات آسية الصغرى، حيث الخط الذي عرف لقرون عديدة باسم: «الثغور الشامية والجزرية مع بيزنطية». وهي تتوغّل عميقاً حتى ما بعد مدينة طرسوس، ولدى البلاذري وسواه، حتى ما بعد عرب سوس «افسوس» في الجمهورية التركية اليوم. هذا التحديد الجغرافي أثبته ابن العديم في المجلّد الأول من كتابه «بغية الطلب في تاريخ حلب».

ويعتبر هذا الموقع موقعاً متميّزاً، وقد كان ذا أهمية بالغة جداً بالنسبة لبلدان قارات العالم القديم الثلاث: آسيا وأوروبا وافريقيا، فهذه البلاد الواقعة في البر الآسيوي والمالكة لشواطىء طويلة على البحر المتوسّط، قامت بدور صلة الوصل بين افريقيا وآسيا براً: عبر مصر، وبحراً عبر المتوسّط، وفي نفس الوقت، وصلت بين افريقيا وأوروبا الشرقية، على اعتبار أن بداية أوروبا الشرقية تاريخياً، حضارياً وبشرياً ولغوياً وحتى اقتصادياً عند آسيا الصغرى، في نقاط تماس مع بلاد الشام، كلّ هذا على الرغم من الاقرار الجغرافي بان مضيق البوسفور يفصل بين البرين الآسيوي والأوروبي.

لقد التقت على أرض بلاد الشام تيارات المد لأمواج الهجرات البشرية في العصور القديمة والوسيطة، من سهوب

(STEPPES) ما وراء النهر (ترانس اوكسانيا في آسيا الوسطى) من الأصل التركي - المغولي، عبر عدد من الحقب التاريخية إلى الشام، مثل الهون والغزّ والتركمان والمغول والتتار. أما في أوروبا، فان جميع الشعوب التي اجتاحت هذه القارة أو تحرّكت من داخلها مندفعة نحو الخارج، وصلت نهايات تيارات مدّها إلى أرض الشام مثل شعوب البحر: الفلسطينيون (Palesto) والإغريق والفرنجة مع سواهم من الشعوب الجرمانية.

أما في افريقيا، فيجب أن نتذكّر دائماً المصريين القدماء، والسودانيين والبربر، وكان لهم أدوارهم الخاصة.

أما من حيث البنية الجغرافية والتضاريس لبلاد الشام، بدءاً من سواحل البحر المتوسّط في الغرب إلى الشرق، نلاحظ أولاً وجود شريط ساحلي ضيّق، ثمّ سلسلة من الجبال الحاجزة حيث تقع خلفها منطقة قلب بلاد الشام وفيها وديان الأنهار الكبيرة، وعلى أطراف هذه الوديان تأتي السهوب شبه الصحراوية العائدة لهذه البلاد.

١٢ - بلاد الشام اجتماعياً ومميزات:

يمكن تقسيم بلاد الشام إلى قسمين: شمالي وجنوبي، فالشطر الجنوبي أكثر حضارة والشمالي أقل استقراراً وبالتالي أغنى بالحوادث التاريخية، ثم هناك نمط شواطىء البحر المتوسّط، ونمط الأقليات المتقوقعة في الجبال، ونمط المجتمعات الزراعية والصناعية (الحرفية) والتجارية للمنطقة الجوفية - سوريا الفعلية - وبعد ذلك نرى المجتمع القبلي غير المستقر لسكان السهوب.(١)

إن وجود الأنماط الاجتماعية المختلفة، والتيارات البشرية المتباينة وما تحمله من طبيعة الماضي في كافة الجوانب، جعل بلاد الشام لا تنعم في كثير من الأحيان بالوحدة السياسية. وغالباً ما كانت في الماضي مسرحاً تلتقي عليه قوى العالم أجمع وتتصارع وتتزاوج وتتمازج، ولذلك امتاز تاريخ بلاد الشام بمزايا خاصة وعامة، وقامت على أرضه أكبر أحداث التاريخ الإنساني وأعظمها وقعاً واستمرارية من حيث النتائج.

---

(١) وليم، م. س، الجزء ١، ص ٢٤ - ٢٥.

١٣ - الوضع السياسي:[1]

كان الوضع السياسي العام في الجزيرة وبلاد الشام في النصف الثاني من القرن الحادي عشر كما يلي:

أ - في الجزيرة:

- دولة عربية مستقلّة في الموصل، هي الدولة العقيلية.
- دولة كردية مستقلّة هي الدولة المروانية.
- دويلات عربية لنمير وقشير في حران وقلعة جعبر.

ب - في بلاد الشام:

- الإمارة المرداسية في حلب وكانت تحكم معظم الأجزاء الشمالية من بلاد الشام مع أقسام من الجزيرة.
- أجزاء من شمالي بلاد الشام وسواحله، تحت الإدارة البيزنطية المتمركزة في انطاكية.
- إمارة شبه مستقلّة في طرابلس تحكمها أسرة بني عمار.
- دولة شبه مستقلّة في صور تحكمها أسرة بني عقيل.
- دويلة شبه مستقلّة في شيزر وكفرطاب قرب حماة، هي الإمارة المنقذية مع محاولات لتأسيس حكومات مستقلّة في حمص وحماة وأفامية.
- عدد من الاقطاعيات والإدارات شبه المستقلّة في مناطق الساحل خاصة في جبلة ومنطقتها الجبلية.
- دمشق وفلسطين تحت حكم الخلافة الفاطمية المتأرجح.

٢ - انحلال الحكم العباسي وسيطرة الأتراك:

بعد وفاة الخليفة العباسي هارون الرشيد، بدأت تظهر التناقضات في الدولة. وساهمت التحرّكات والثورات السياسية

---

(١) مكّي، محمد علي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٧، ص٨٧ - ١٠٦.
- بولس، جواد، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عواد للنشر، دون تاريخ، ص ١٨٨ - ١٩٢.

والدينية والاجتماعية في تفكيك الوحدة السياسية.

لقد اضطرّت النزاعات بين العرب والفرس، في بغداد، في عهد الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣)، هذا العاهل أن يقتني، لحراسته الشخصية، قوات «مرتزقة» مأجورة، من المماليك (الارقاء)، أغلبية عناصرها من الأتراك الأسيويين.

وفي عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢)، بات زعماء هذا الحرس التركي أسياداً في الدولة. وقد منح الخليفة الواثق (٨٤٢ - ٨٤٧) رئيس حرسه التركي لقب سلطان. وبين عامي ٨٦١ و٨٧٠، قتل الحرس التركي خمسة خلفاء، كلّما حاول أحدهم التحرّر من سيطرتهم.

في هذا الوقت، كانت بعض السلالات الإقليمية أو أحكام المقاطعات تقتطع لنفسها مراكز نفوذ من ممتلكات الخلافة، في المناطق والأقاليم الغربية والشرقية. وجلّ هؤلاء الحكام الجدد من الأتراك والفرس. في السنة ٨٧٢، استقلّت مصر، على يد حاكمها التركي أحمد بن طولون (٨٧٢ - ٨٨٤)، الذي سلخ فلسطين عن بغداد وضمّ إلى حكمه لبنان وسوريا. وفي سنة ٩٠٥، استرجعت بغداد مؤقتاً سيادتها على مصر. لكن هذه الأخيرة استعادت سيادتها واستقلالها، السنة ٩٣٥، على يد حاكمها التركي محمد بن طغج، الملقّب بالاخشيد، واسترجعت فلسطين ولبنان وسوريا (٩٣٥ - ٩٦٩).

وهكذا «فإن الدولة الكبرى الموحّدة (الخلافة العباسية)، التي كانت تمتد بالأمس من تركستان حتى مصر... راحت منذئذٍ تتوزّع على عدد من الولايات الصغيرة، تعادي الواحدة منها الاخريات».

٢١ - الخلافة الفاطمية (٩٦٩ - ١١٧١):

مؤسّس الخلافة الفاطمية في افريقيا الشمالية، هو عبيد بن محمد الحبيب، عربي من المشرق، أصبح بعد استيلائه على الحكم في افريقيا، السنة ٩١٠، عبيدالله المهدي وأمير المؤمنين (٩١٠ - ٩٣٤). ويتحدّر عبيدالله من سلالة الإمام علي بن أبي طالب والسيّدة فاطمة بنت النبي ﷺ عن طريق إسماعيل جعفر

الصادق (٧٠٠ - ٧٦٥). آخر إمام شيعي وسليل علي وفاطمة. من هنا إسم «الفاطميين».

جاء عبيدالله من بلدة سَلَميَة، الواقعة إلى الجنوب الشرقي من حماه، هرباً من مطاردة عمّال العباسيين، فلجأ إلى افريقيا الشمالية. في السنة ٩١٠، حلّ عبيدالله محلّ الأغلبيين في الحكم، فاتخذ لقب «المهدي» وأمير المؤمنين فأسّس مدينة «المهدية» (في تونس سنة ٩١٦).

في السنة ٩٦٩، في عهد الخليفة الفاطمي «المعزّ لدين الله» (٩٣١ - ٩٧٥)، احتلّ جيشه دلتا النيل وكان مؤلّفاً من مزيج من المرتزقة من البربر والأرمن والأكراد والأتراك والزنوج، بقيادة جوهر الصقلي فاستسلم الاخشيديون الأتراك، السنّة، بلا مقاومة، للجيش الشيعي القادم إليهم من تونس. ثمّ بعدها وجّه الفاطميون جيشاً إلى بلاد الشام بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي، فاحتلّوا دمشق بالقوّة وعيّنوا ريان الخادم حاكماً على طرابلس وابن الشيخ في صيدا وهو رئيس المغاربة، وظالم بن موهوب على بعلبك. أما الأمير منذر التنوخي فقد أقرّه القائد الفاطمي على حكم جبل لبنان.(١)

لكن الفتح الفاطمي كان يقابله من جهة ثانية محاولة بيزنطية لاستعادة سوريا، فقد تمكّن الامبراطور البيزنطي «نقفور» في سنة ٩٦٨، من اجتياح شمالي سوريا واحتلال انطاكية وحمص وحماه واللاذقية وحلب (٩٦٧) دون أية مقاومة تذكر.(١)

أثناء ذلك شنّ القرامطة المتحالفون مع العباسيين، هجوماً كبيراً على دمشق، فيقتلون القائد الفاطمي جعفر بن فلاح ويعيّنون القرمطي أحمد بن مستور متولّياً على دمشق باسم رئيس القرامطة الحسن الاعصم. أما الأمير منذر حاكم جبل لبنان فقد بقي على ولائه للفاطميين.

وجّه المعز لدين الله الفاطمي قوّة جديدة تمكّنت من استرداد دمشق من أيدي القرامطة. وفي السنة ٩٧٤، وجّه العباسيون القائد التركي «أفتكين» إلى دمشق فانتزعها من الفاطميين ثمّ انتزع البقاع أيضاً وحاول

---

(١) مكي، ص ٨٨.

مهاجمة فلسطين، لكن الفاطميين تمكّنوا من استعادة دمشق وفلسطين ولبنان وهزموا افتكين وأبعدوا القرامطة عن البلاد.(١)

لقد حاول الفاطميون السيطرة على بلاد الشام بكاملها، فهاجموا الحمدانيين في حلب، لكن هؤلاء استنجدوا بالبيزنطيين، مما أدى إلى تدخّل الإمبراطورية البيزنطية في هذه البلاد، وهو حلم كان قد راودها منذ زمن طويل لاستعادة بلاد الشام.

في السنة ٩٧٣، ترك الخليفة الفاطمي «المعز لدين الله» عاصمته «المهدية» في تونس واتجه نحو مصر، عاصمته الجديدة، التي أسّسها القائد جوهر والتي سمّيت «القاهرة» أي «المنتصرة» فاتخذها مقراً له ومركزاً للخلافة الفاطمية. وكان جوهر قد أنهى، في القاهرة بناء المسجد الجامعي المعروف بـ«الأزهر»، مع قصر العاهل الجديد.

في الواقع، لم تتجاوز سلطة الفاطميين المباشرة الأراضي المصرية. أما المناطق الواقعة بين القاهرة وبغداد، فكانت منقسمة إلى منطقتي نفوذ، تتغيّر حدودها باستمرار. فبغداد كانت تحت ضغوط عديدة. ولم يمتلك الفاطميون مطلقاً جيشاً قوياً يكفي لفرض سلطتهم أو سياستهم. أما تطوّر سوريا فكان معقّداً للغاية: في المدن كان الجنود المغاربة، التابعون للفاطميين، يصطدمون بمقاومة السكان المحليين. وفي الأرياف، كان الجنود ينتقلون باستمرار من دمشق إلى حلب ومن صور إلى فلسطين. أن وباء العصيان والتمرّد كان عاماً. لكنه كان فوضوياً يعوزه التنسيق.(٢)

٢٢ - إمارة بني عمار في طرابلس (١٠٧٠ - ١١٠):

في أواسط القرن الحادي عشر، كانت الدولة الفاطمية تمرّ في فترة من الانحلال والفوضى، مما جعلها غير قادرة على حكم بلاد الشام. وفي هذا الوقت كانت الدولة

(١) مكي، ص ٩٠.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار بيروت للنشر ١٩٦٥، ج ٨، ص ٦٥٧.
(٢) - ENEYEL. UNIVERSALIS, FATIMIDES, VOL 6, P 943.
- بولس، ص ٢٠٢.

السلجوقية بدأت بالسيطرة على العراق وتتوسّع على حساب بيزنطية. وأصبح العالم الإسلامي الشرقي منقسماً إلى قسمين: قسم يسيطر عليه الشيعة بزعامة الفاطميين، وقسم تركي يسيطر عليه الأتراك السلاجقة المتعصّبين لمذاهب السنة. هذا التجاذب أدى إلى قيام إمارات محلية وطنية في طرابلس وحلب وصور ودمشق وفلسطين. وكان أبرزها إمارة بني عمار في طرابلس.

أسّس هذه الإمارة القاضي أمين الدولة أبو طالب عبدالله بن عمار الطائي السنة ١٠٧٠ وكان أديباً مؤلّفاً بالإضافة إلى شهرته في الفقه والقضاء. وبعد وفاته استلم الحكم ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن علي وحكم حوالى ٢٨ عاماً ويعود الفضل له بتوسيع الإمارة من جبلة شمالاً إلى جبيل جنوباً. وقد وضع سياسة مرنة تجاه الفاطميين وتجاه السلاجقة. وفي السنة ١٠٩٨ استلم الإمارة أخوه فخر الملك أبو علي، وحكم حتى السنة ١١٠٥ وهي الفترة المناسبة لبدء الحروب الصليبية حتى سقوط الإمارة في أيدي الفرنجة. وقبل سقوط إمارته حاول الاستنجاد بالعباسيين لكنه فشل. وبعد سقوط طرابلس انتقل إلى دمشق حيث ولّي منطقة الزبداني.[1]

٢٣ - إمارة بني عسيل في صور (١٠٧٠ - ١٠٩٨):

أسّس هذه الإمارة القاضي عين الدولة ابن أبي عقيل السنة ١٠٧٠. لكن الفاطميين أرسلوا قائد الجيوش بدر الجمالي لاستردادها نظراً إلى أهميتها ولأنها تشكّل المرفأ الرئيسي لمنطقة دمشق. حاصر الفاطميون صور إلاّ أن ابن أبي عقيل استنجد بالأتراك من دمشق وعليهم الأمير قرلو، فأرسل إليه ١١ ألف مقاتل حاصروا صيدا، مما أجبر الجمالي إلى فكّ الحصار عن صور، فعاد الأتراك عن صيدا.[2] ثمّ عاد القائد المصري وشدّد

---

(١) مكي، ص ١٠١ - ١٠٢.

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار بيروت للنشر ١٩٦٥، ج ١٠، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) ابن الأثير، ج ١، ص ٦٠.

الحصار على صور لمدّة سنة وضيّق على أهلها. فحدثت مجاعة كبيرة.

وقد مكّن هذا الثبات لابن أبي عقيل في صور أن يثبّت دعائم إمارته له ولعائلته من بعده. وزادت صور مناعة عندما أصبحت دمشق والمناطق البقاعية بأيدي السلاجقة في دمشق، مما استدعى الفاطميين إلى محاصرتها مجدداً السنة ١٠٨٩ والاستيلاء عليها وانتزاعها من أولاد بن أبي عقيل واحتلّوا كذلك صيدا وجبيل، وعيّنوا حاكماً جديداً عليها لقبه منير الدولة الجيوشي. وفي السنة ١٠٩٣، حاول هذا الحاكم ان يعود إلى حظيرة السلاجقة، فثار عليه الأهالي فتدخّل الفاطميون واحتلوا صور وفرضوا غرامة كبيرة على البلد بقيمة ٦٠ ألف دينار وسيق الوالي وأعوانه إلى مصر وقتلوا جميعاً.[١] بعد ذلك عيّنوا عليها والياً جديداً اسمه «كثيلة»، ولم يطل الوقت حتى أعلن عصيانه فهاجمه الفاطميون واحتلّوا صور من جديد وقتلوا الكثيرين من أهلها، ونهبوا المال الجزيل وأخذوا الوالي أسيراً إلى مصر حيث قتلوه هناك[٢] وكان ذلك السنة ١٠٩٨. وبقيت صور بعد فشل ثوراتها المتكرّرة بأيدي الفاطميين حتى وصول الجيوش الفرنجية إليها.

٢٤ - السلاجقة الأتراك (١٠٥٥ - ١٠٧١):

إن الأتراك، في الأصل البعيد، قبائل رحّل، يتكلّمون التركية ويتنقّلون عبر الصحاري والهضاب والجبال والسهول والأحراج الشاسعة في بلاد مونغوليا، في آسيا الوسطى. فهم والمغول أبناء عم في الأصل.[٣]

في القرن السادس ب.م.، هاجر بعض هذه القبائل من مونغوليا نحو الغرب، واستوطنوا بلاد «ما وراء النهر» التي سميت بعد ذلك باسمهم: تركستان (ترك استان).

(١) ابن الأثير، ج ١، ص ٢٢٣.

(٢) ابن الأثير، ج ١، ص ٢٦٤.

إن سيطرة العنصر التركي في بلدان الشرق الأدنى، سياسياً وعسكرياً، بدأت مع حكم الطولونيين والاخشيديين لمصر وسوريا وفلسطين ولبنان (٨٦٨ - ٩٦٩). وهؤلاء كانوا يستندون على قوات عسكرية تركية مرتزقة، كما كانت الحال في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل في بغداد. أما سيطرة الأتراك السلجوقيين، فكانت عكس ذلك. إذ أن الحكام والجيوش، يشكّلون أسرة واحدة، تنتسب إلى قبيلة تركية واحدة. «اوغوز» التي سيطرت على الشرق الإسلامي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. فهم أول قبائل تركية كبيرة أسّست، في الشرق الأدنى، دولة كبيرة، جمعت إيران والعراق وسوريا وقسماً كبيراً من آسيا الصغرى (الأناضول)، في القرن الحادي عشر.(١)

كانت قبائل الغز تخضع للامبراطورية الخزرية. وفي نهاية القرن الثامن انفصل الغز عنها وأصبح لهم زعامتهم الخاصة. ودعا العرب، الغز أحياناً باسم «التركمان» وكان عددهم حوالى ٢٢ قبيلة. وكانت قبيلة «قنق» أكثر هذه القبائل قوّة وشهرة، وبرز منها مقاتل اسمه «دقاق» الذي وصل إلى مرتبة الزعامة، وولد له ولد سماه «سلجوق»، ثمّ ولد لسلجوق أربعة أولاد عاش منهم ثلاثة هم: ميكائيل وموسى وارسلان. وقد اعتنق دقاق الاسلام وتورّط في أعمال تصفية الإمبراطورية السامانية. وأثناء ذلك شرعت جموع كبيرة من التركمان بالهجرة عبر نهر جيحون إلى خراسان. وكثر عدد التركمان في خراسان وتفجّرت زمن مسعود بن محمود الذي لم يستطع إنهاء مشكلتهم، فقامت معارك بين التركمان والغزنويين كانت غالبيتها لصالح التركمان. آلت زعامتهم إلى ثلاثة أخوة من الأسرة السلجوقية هم: طغرل بك، وجغري بك والبيغو بك. في السنة ١٠٤٠ أوقعوا هزيمة نكراء بالسلطان مسعود في معركة دندانقان وبعدها راحوا يستعدون للزحف على بغداد. وكان من

(١) بولس، ص ٢٢٤.
- رنسيمان، ج ١، ص ١٠٣ - ١٠٤.

أهدافهم الآن فتح الطريق إلى ارمينيا، فبلاد الامبراطورية البيزنطية، حتى تهاجر قبائل التركمان إليها.(١)

في السنة ١٠٣٨، استلم الحكم محمد طـغـرل بك (١٠٣٨ - ١٠٦٣) صـفـيـد سلجوق. وبعد أن هزم الزعيم الغزنوي التركـي مسـعـود السـنـة ١٠٤٠، في آسـيـا الوسطى، انتزع منه خراسان، حيث اعترف به كرئيس للسلجوقيين. ثمّ وسّع سيطرته عـلـى بـلاد فـارس فـانـتـزع مـن الـبـويـهـيـين الإيـرانـيـيـن مـديـنـة أصـفـهـان (١٠٥١). ثمّ استولى على جرجان وخوارزم. وفي العام ١٠٥٥، كانت جيوش طغرل بك على أبواب بغداد يستقبلها الخليفة، «القائم بأمر الله» الذي كان خاضعاً لنفوذ القواد الفرس من آل بويه. وهكذا دخل الخليفة العباسي في حماية السلاجقة الذين كانوا أكثر تسامحاً مع الخليفة وأقل استبداداً به من آل بويه. وذلك لأن السلاجقة كانوا من السنّة، في حين أن البويهيين كانوا شيعة. وفي بغداد التقى بالخليفة القائم بأمر الله، فمدّ له القائم يده وقام طغرل بك بتقبيلها، فشكره القائم ومـنـحـه لـقـب «ملك المشرق والمغرب» أي إيران والعراق. ثمّ صار لقب طغرل بك ومن حـكـم بـعـده مـن أمـراء الـسـلاجـقـة «السلطان».(٢)

لقد نال طغرل بك، المقام الأول في الدولة العباسية ونال لقب جديد «ملك الفرس والعرب» (١٠٦٠). وهو أول عاهل مسلم نقش على نقوده لقب سلطان.

ومـنـذ ذلك الـوقت، اقـتـسـمت دولـة السلاجقة في بغداد ودولة الخلفاء الفاطميين في الـقـاهـرة، فيما بينـهـمـا الـبـلاد الـسـوريـة، فاستولى السلاجقة على شماليها (حلب

---

(١) وليم، ج ١، ص ٣٨.

(٢) - NIKITA, ELISSÉEFF, NŪR. AD.DĪN, Damas 1967, Institut Française de Damas, Vol. II, P. 278.

- بولس. ص ٢٢٥.
- حتي، ص ٣٣٧.
- حنظل، فالح، العرب والبرتغال في التاريخ، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط ١، ١٩٩٧، ص ٥٠ - ٥١.
- رنسيمان، ج ١، ص ١٠٥.

ومنطقتها) وسيطر الفاطميون على جنوبيها (دمشق وفلسطين). لكن النزاعات لم تنته بين الدولتين، في المناطق المذكورة. وكانت الأراضي في الدولة موزّعة على الأمراء السلجوقيين، كإقطاعات، لا تنتقل بالوراثة. لقد أصبح الخليفة العباسي ظل رئيس ديني. ومنذ هذا الوقت، بدأ يظهر ويتوسّع الدور الكبير الذي قام به العنصر التركي على مسرح الشرق الأدنى. لقد انساحت السلطة السلجوقية في العراق والجزيرة وآسيا الصغرى محدثة خراباً عظيماً ودماراً مريعاً.

توفي طغرل بك السنة ١٠٦٢ وخلفه ابن أخيه ألب ارسلان بن جغري بك، ويُعد ألب ارسلان من أعظم الحكّام السلاجقة، وهو مع ابنه ملكشاه كانا أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق. ففي سنة ١٠٧٠، تحرّك السلطان ألب ارسلان على رأس جيش لمهاجمة الشام وبعدها الديار المصرية، ولكنه أخفق في الذهاب أبعد من أسوار مدينة حلب، حيث قضى على الدولة المرداسية واستتبع حاكمها المرداسي.[(١)] وفي السنة ١٠٧١ اقتحم، قائد جيوشه «فاتزيز»، وهو تركماني من خوارزم، بلاد فلسطين وانتزع من يد الفاطميين: رام الله والقدس وسواهما من المدن. وظلّ الفاطميون مسيطرين على الشواطىء اللبنانية.[(١)]

٢٥ - السلاجقة وبيزنطية (١٠٧١ - ١٠٩٥):

كانت بيزنطية، وريثة الامبراطورية الرومانية، فقد فقدت من زمان بعيد الكثير من ممتلكاتها السابقة في الشرق. وغدت مواقع القسطنطينية في آسيا الصغرى أقل فأقل صلابة. وكان زحف السلاجقة الأشد خطراً على الدولة البيزنطية.[(٢)]

العام ١٠٧١، وفي طريق عودة السلطان السلجوقي ألب ارسلان من حلب، علم بتحرّك جيش بيزنطي كبير على رأسه الامبراطور نفسه، كان يريد طرد السلاجقة من أراضي الإمبراطورية، وإغلاق طرق

---

(١) بولس، ص ٢٢٩.

(٢) زابوروف، ص ٢٩.

ارمينيا في وجوههم.[1] لكن القائد السلجوقي اقتحم مقاطعة ارمينيا البيزنطية واشتبك في حروب ضد جورجيا، وتغلغل مع جيشه أوسع فأوسع في إقليمي بيزنطية في آسيا الصغرى - كبدوقية وفريجيا.[2]

وكان قد حاول الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٨ - ١٠٧١) أن يضع حداً لتقدّم السلاجقة. فشنّت قواته المسلّحة ضدّهم حملتين ناجحتين. وأمكن عقد هدنة مع السلطان آلب ارسلان. لكن ديوجين دفع فجأة السنة ١٠٧١ ضد عدوّه السلجوقي جيشاً كبيراً بلغ عديده ٣٠٠ ألف مقاتل أو يكاد، أي أقوى جيش بين الجيوش التي جهّزها قبل ذاك. وتقول حوليات ذلك الزمان أن الجيش البيزنطي كان مؤلّفاً من قوات من المرتزقة من قوميات مختلفة، وكانت داخلياً هشّة، ضعيفة، غير موثوقة بولائها.[2] وعشية الاشتباك العام، انتقل عدد كبير من المجموعات التركية داخل هذا الجيش إلى جانب الجيش السلجوقي. كذلك كانت الخيانة تعشعش بين القادة العسكريين البيزنطيين أنفسهم.[3]

في ١٩ آب ١٠٧١، اشتبك الجيشان في معركة هائلة لمقاييس ذلك الزمن، شمالي بحيرة ڤان - في ارمينيا غير بعيد عن قلعة «مانزكرت» (مانتسيكرت). وقد مني الجيش الإمبراطوري البيزنطي بهزيمة نكراء فاصلة أنزلها به السلجوقيون الذين لجأوا إلى الحيلة التكتية التي سبق لهم أن خبروها مراراً أثناء القتال: فقد تراجعوا في الظاهر فلحق بهم البيزنطيون ثمّ ارتدّوا فجأة عليهم وشنّوا حملة عاصفة بفرسانهم. وقد أبيد جيش رومانوس تقريباً، ووقع الإمبراطور نفسه في الأسر، الأمر الذي لم يحدث يوماً قبل ذلك في تاريخ هذه الامبراطورية. ومكّنت هذه

---

(١) وليم، ج ١، ص ٣٩.

(٢) زابوروف، ص ٢٩.

- وليم، ج ١، ص ٣٩.

(٣) حنظل، ص ٥١.

المعركة، ولأول مرّة، السلاجقة من التمتّع بحريّة العمل والانسياح في آسيا الصغرى، وبلاد الشام والجزيرة، وكانت بداية تحويل بيزنطية إلى تركيا.(١) وقد أصبح السلاجقة أبطال الإسلام في الشرق الأدنى. وقد حلّوا، منذ تلك الحقبة، محلّ الفرس والعرب المنهوكين، فيعيدون الهيلينية إلى مهدها.(٢)

لم يطل الوقت حتى أفرج آلب ارسلان عن الإمبراطور البيزنطي وما أن عاد إلى عاصمته، حتى انفجرت في الأمبراطورية حرب حقيقية بين المجموعات الإقطاعية، واضطرّ رومانوس إلى الاستسلام لهؤلاء الإقطاعيين ووضع نفسه تحت رحمتهم، لكنهم أسروه وسملوا له عينيه(٣) في العام ١٠٧٢ وحلّ محلّه الإمبراطور ميخائيل السابع دوكا، الذي راسل، سنة ١٠٧٥، البابا غريغوري السابع، المالك في روما، يطلب المساعدة لطرد هؤلاء السلاجقة «الكفار»، إلاّ أن البابا المذكور لم يستطع تلبية طلب الإمبراطور.(٤)

توفي السلطان ألب ارسلان، السنة ١٠٧٢، بطعنة خنجر من ثائر، كان قد حكم عليه بالإعدام. وخلفه ابنه ملكشاه، الذي يعتبر آخر عظماء سلاطين السلاجقة.

قبل وفاته عهدّ ألب ارسلان إلى نظام الملك، وآليه على خراسان بأن يكون وصياً على ابنه الصغير ملكشاه، الذي دام ملكه عشرين سنة (١٠٩٢). وبتوجيه من وزيره نظام الملك، نعمت بلاد فارس والعراق، بعهد زاهر من الرخاء الاقتصادي والازدهار العلمي. وقد جعل ملكشاه مقرّه في بغداد بعد أن كان مقام طغرل بك في مروا (خراسان) ومقام ألب ارسلان في أصفهان. واتسعت حدود المملكة فامتدّت من كاشغر

---

(١) زابوروف، ص ٣٠.
- وليم، ج١ ، ص ٣٩.
- حتي، فيليب، دكتور، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء ٢، ص ٢٠٥.

(٢) بولس، ص ٢٢٨.

(٣) زابوروف، ص ٣٠.

(٤) حنظل، ص ٥١.

في أقصى تركستان شرقاً إلى القدس غرباً، ومن القسطنطينية شمالاً إلى بلاد الخزر جنوباً. وبعد أن تمّ انتزاع سوريا من الفاطميين، أسّس السلاجقة في دمشق والقدس إمارتين خاضعتين للسلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك الذي اغتيل السنة ١٠٩٢ على يد رسول من رسل حسن الصباح، زعيم جمعية «الحشاشين» الدموية[١] والذي كان زميلاً لنظام الملك في الدراسة. ولما خاب مطمح الصباح بأن يقوم بدور مهم في السلطنة السلجوقية، قرّر أن يقوّض دعائمها بالسم والخنجر. ومع الأيام استولى الحشاشون تدريجياً على بعض أمنع القلاع في البقاع الجبلية من شمالي فارس والعراق والشام واغتالوا أفضل رجال المسلمين.[٢]

في هذه الأثناء، كانت بيزنطية تعاني من الفوضى في أكمل مظاهرها. فقد كانت مختلف تكتّلات الأعيان الإقطاعيين، في العاصمة والأرياف على السواء، تتخاصم وتتهاتر بلا نهاية بعضها مع بعض، وتحاول بشتى المكائد والدسائس أن تزيد امتيازاتها وسلطتها. وكان من المستحيل تقريباً الاعتماد على الجيش المؤلّف على الأغلب من المرتزقة. وكانت الخزينة تشكو على الدوام نقصاً في الأموال، مردّ ذلك أن بيزنطية كانت تتعرّض للتقسيم إلى ممتلكات إقطاعية شبه مستقلّة في الميدان السياسي.[٣]

تجزؤ سلطنة السلاجقة:

لم تلبث سلطنة السلاجقة الواسعة أن تجزّأت، وحكم أجزاءها أمراء من السلالة السلجوقية. فاستولى على آسيا الصغرى السنة ١٠٧٧ (بلاد الروم) سليمان، ابن عم ألب ارسلان. وقد ثبّت قدميه في نيقية (ازنيق) وهو مكان غير بعيد عن القسطنطينية. في السنة ١٠٩٧، نقلت

(١) بولس، ص ٢٣٢.

(٢) سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، نقله إلى العربية عفيف البعلبكي، بيروت، ص ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠.

(٣) زابوروف، ص ٣٠.

العاصمة إلى قونيا. وفي العام ١٠٨٤ استرجع السلاجقة مدينة انطاكية من الروم، وردّوها إلى الإسلام وسميت المقاطعة هذه «دولة سلاجقة الروم».ثمّ تطلّع سليمان بعد ذلك نحو حلب ودخل في صراع من أجلها مع القوى البدوية العربية في الشام والجزيرة بقيادة مسلم بن قريش العقيلي، ثمّ مع تُتُش ابن ألب ارسلان حاكم دمشق السلجوقي، وقتل سليمان في هذا الصراع، كما قتل مسلم بن قريش وأدّى هذا الصراع إلى قدوم جيش سلجوقي كبير على رأسه السلطان ملكشاه نفسه، ونجم عن هذه الحملة إلحاق الشام كلّه بالسلطنة، ولكن ليس تحت إدارة مركزية واحدة، بل تحت عدّة إدارات إقطاعية: واحدة في الرها (اورفا الحالية في تركيا) ولاّها إلى أمير سلجوقي اسمه «بوزان»، وثانية في حلب عهد بها إلى زعيم سلجوقي كبير اسمه «آق سنقر»، حمل اسم قسيم الدولة وهو والد «عماد الدين زنكي» الذي قام فيما بعد بدور عسكري هام، في سوريا الشمالية والداخلية، ضد الصليبيين الفرنج.[1] وثالثة في انطاكية جعل عليها أميراً سلجوقياً آخراً اسمه «يغي سيغان» أو «سيان» وزوّده بحامية عسكرية عديدها أربعة آلاف مقاتل، ورابعة في دمشق، عيّن عليها أخاه «تُتُش». وبقيت الدويلات الساحلية والداخلية السالف ذكرها متمتّعة باستقلالها.

إن مقتل سليمان بن قطلمش، وانتزاع انطاكية لصالح السلطان ملكشاه، لم يؤدّ إلى سقوط دولته في نيقية، فقد ورث الحكم فيها أحد أولاده واسمه «قلج ارسلان»، وعندما عبرت حشود الصليبيين الفرنجة من أوروبا إلى آسيا سنة ١٠٩٧، حاولت قوى دولة «سلاجقة الروم» التصدي لهذه الحشود، فعجزت عن ذلك، وهكذا وصل الفرنج العام ١٠٩٨ إلى مشارف الشام.[2]

---

(١) وليم، ص ٣٩ - ٤٠.
- بولس، ٣٠٢ - ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٢) سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ص ٢٩١.
- وليم، ج ١، ص ٤٠.

سرعان ما تفرّقت كلمة السلاجقة بعد مصرع الوزير نظام الملك السنة ١٠٩٢ ووفاة السلطان ملكشاه ونشبت الفتن، في كلّ ناحية وحلّت الحروب والاضطرابات محل السلام والطمأنينة.(١) وانقسمت الدولة بين الأمراء أقارب ملك شاه وأمراء أتراك كان قد عيّنهم أوصياء عليهم بعدما أعطاهم لقب «الأتابكة» (وهي جمع أتابك = اتا: المربــي + بك: الامير، أي مــربــي الأمير) وكانوا أولاً أوصياء أو مربّين ومؤدّبين أتراكاً لصغار أمراء السلاجقة ثمّ خلفوهم في السلطة العليا. وأصبحت كلمة «أتابك» لقباً كبيراً في الدولة.

أ - سلاجقة الشام:

لقد تورّط في الصراع من أجل خلافة ملكشاه، أمراء السلاجقة في الشام، حيث حاول «تتش» شقيق ملكشاه، أن يصبح سلطاناً فاصطدم مع «آق سنقر» قسيم الدولة أمير حلب، فقتله واستولى على خلب، فصار سيّد الشام شماله وجنوبه، ثمّ توجّه نحو خُرَسان فقُتل هناك، وعقب مقتله ورث أملاكه والحكم، ولداه: «رضوان» و«دقاق»: الأول في حلب (١٠٩٥ - ١١١٣) والثاني تولّى الحكم في دمشق (١٠٩٥ - ١١٠٤) وكان صهر لتتش يتولّى اقطاع القدس. دخل الشقيقان فيما بينهما في صراع دموي. وهكذا عادت سوريا إلى حالة التجزؤ التي كانت فيها قبل غزوة السلاجقة السنة ١٠٥٥.(٢)

وفي السنة ١٠٩٨، أجبر صهر تتش على التخلّي عن اقطاع القدس للفاطميين. وفي السنة ذاتها، خرجت القدس من يد الفاطميين ولتقع في يد أعداء غرباء، لم يكونوا في الحسبان، هم الصليبيون - الفرنجة.(٣)

ب - سلاجقة العراق:

بعد وفاة محمد الأول (١١٠٥ - ١١١٨) ابن السلطان ملكشاه، خلفه ابنه محمود (١١١٨ - ١١٣١)، الذي امتدّت مملكته فشملت إيران الغربية والعراق.

(١) بولس، ص ٢٣٥.

(٢) وليم، ص ٤٠.

(٣) بولس، ص ٢٣٧.

ومنذ عهد داود (١١٣١ - ١١٣٢)، حفيد ملكشاه، اكتسب الاتابكة حقيقة الحكم في العراق، وأصبح العاهل الشرعي آلة في أيديهم.[١]

يجب أن نعتبر وصول السلجوقيين إلى بغداد (١٠٥٥) نقطة تحوّل في تاريخ الإسلام.

في السنة ١٠٩٨، وصلت إلى شمالي سوريا أول حملة من الحملات الصليبية أو الفرنجة، فحاصرت انطاكية. فقاوم السلاجقة الغزاة الجدد طوال سبعة أشهر، انتهت بسقوط المدينة في يد الصليبيين السنة ١٠٩٨.

(١) بولس، ص ٢٣٦.

القسم الثاني

الصليبيون يغزون الشرق

والمسلمون يتصدّون لقواتهم المتقدّمة

(١٠٩٦ - ١٠٩٨)

الفصل الخامس

- الحملة الصليبية الأولى
- الموجة الأولى
- من أوروبا إلى القسطنطينية
- الفرنجة الفقراء ينتحرون أمام أسوار نيقية السلجوقية
(١٠٩٥ - ١٠٩٦)

١ - الحروب الصليبية، فصل من فصول المسألة الشرقية:

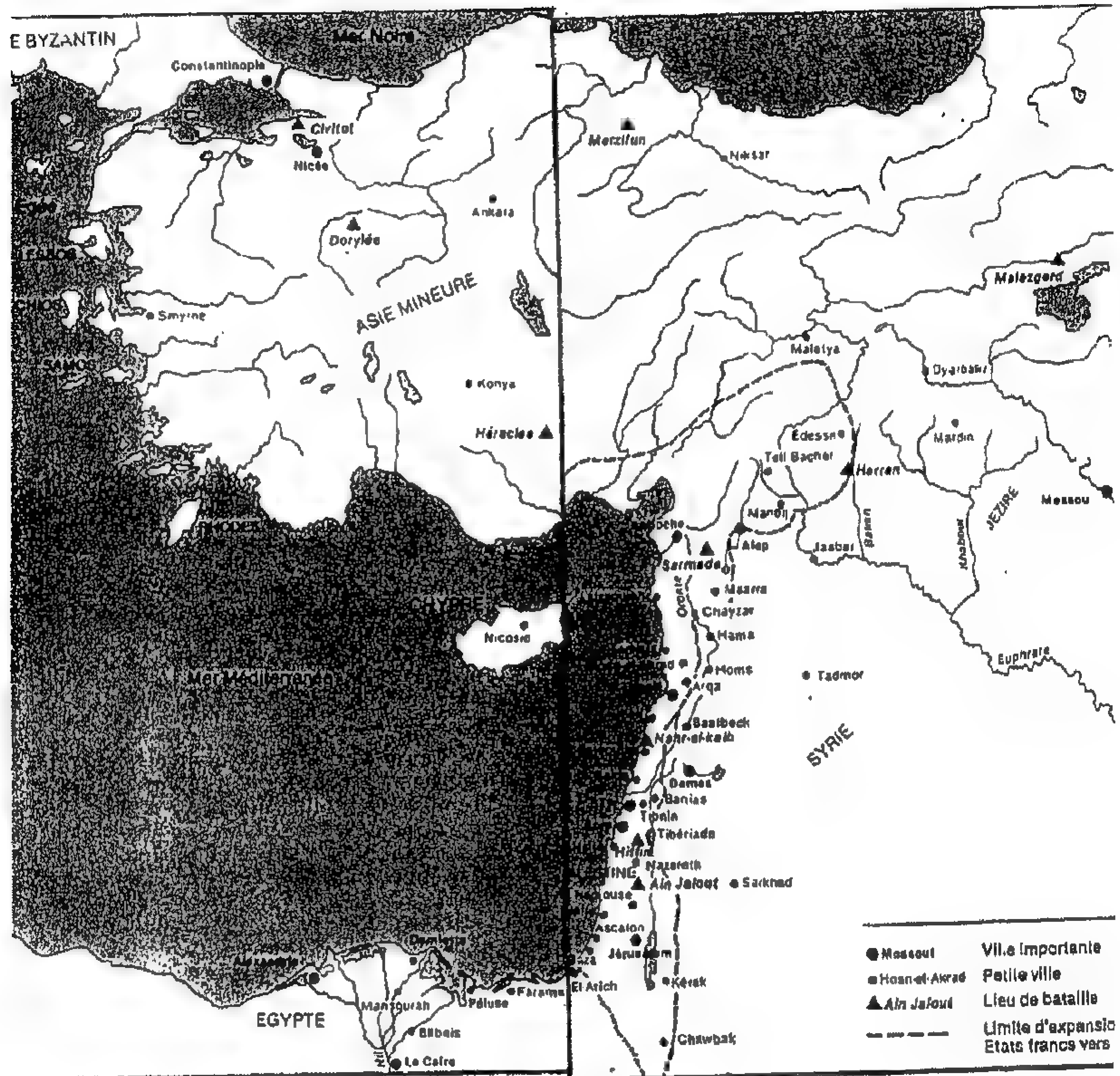
تمثّل الحروب الصليبية فصلاً من الفصول العديدة للمنافسة المستمرّة والنزاع شبه الدائم، بين الشرق من جهة والغرب الأوروبي من جهة ثانية، هذا النزاع المستمر، منذ أقدم الأزمنة، والمعروف باللغة الأوروبية الغربية، باسم «المسألة الشرقية - La Question d'Orient».

بدأ هذا الصراع بين عالمين متناقضين، مع حرب طروادة، حوالى ١٢٠٠ق.م.، بين طروادة، في آسيا الصغرى على شاطىء الدردنيل، والإغريق، في بلاد اليونان. والبعض من المؤرّخين يقول إنها ابتدأت في عهد داريوس واحشويروس من ملوك الفرس في القرن الخامس ق.م.، عندما هاجما اليونان في اوروبا. وأعاد الاسكندر المقدوني الزيارة لهما في أرض فارس. بعد الإسكندر جاء الرومان الغربيون منهم والشرقيون. ثمّ جاء الإسلام وقضى على السيطرة الغربية في الشرق التي دامت ألفا سنة (٣٣٠ق.م. - ٦٤٠ب.م.) في هذه المنطقة، وراح يهدّد أوروبا: في مؤخّرتها من الأندلس وفي أواسطها، من جزيرة صقلية، وفي مقدّمتها، على أيدي السلاجقة، الذين كانوا يطمعون بالاستيلاء على القسطنطينية. فكانت ردّة الفعل حروباً قام بها أناس من أوروبا يحملون صلباناً في أعناقهم وخيطت على ملابسهم. ولذلك عرفوا بالصليبيين.(١)

---

(١) حتي، فيليب دكتور، صانعو التاريخ العربي، ترجمة أنيس فريحة، ص ١٦١ - ١٦٢.

بلاد الشام وآسيا الصغرى



٢ - أسباب الحروب الصليبية:

يعتقد البعض من المؤرّخين، أن الحملات الصليبية، كانت تعبيراً عن شعور ديني عميق وصادق شمل المسيحيين في الغرب الأوروبي، وأيقظهم واستحثّهم فتمنطقوا بالسيوف والخناجر واندفعوا، بإشارة من يد بابا روما، إلى إنقاذ المقدّسات المسيحية في فلسطين. أما الاختصاصيون ذوو التفكير السليم، فإنهم يرون أن الغلاف الديني للحروب من «أجل قبر المسيح» ليس سوى قناع يستتر وراءه أسباب متعدّدة ومتنوّعة.(١)

في أواخر القرن الحادي عشر، ابتدأ الأوروبيون بغزو الشرق وقد استمرّت حركة الغزو هذه مدّة قرنين كاملين وسمّيت الحروب الصليبية. لأن الجنود كانوا يحملون شارة الصليب على صدورهم. وكانت الحملات الصليبية تأتي تباعاً من أوروبا بطريق البر أو البحر وتلتقي في البلدان الشرقية الممتدّة على ساحل البحر المتوسّط في آسيا الصغرى حتى البلاد المصرية. أما هدفها الرئيسي، كما كان يبدو فقد كان انتزاع مدينة القدس وسائر الأراضي المقدّسة عند المسيحيين من أيدي المسلمين.

لقد اشترك في تلك الحملات العسكرية عددٌ كبير من الأوروبيين، وقد جاوز مئات الآلاف عداً. ولقد كان التأييد لها عظيماً للغاية واختياراً، قلّ نظيره في تاريخ الحروب في العالم.

لا يوجد سبب واحد معيّن، يمكننا أن نقول باطمئنان إنه هو وحده الدافع إلى كلّ ما جرى. فالأسباب متعدّدة والدوافع متباينة. فهدف الرجل المتديّن المؤمن منها، كان غير هدف وغرض التاجر، وهدف رعاع الناس ونواياهم كان مختلف تماماً عن هدف ونوايا النبلاء والقادة الكبار الذين اشتركوا في الحملات العسكرية. وسنحاول أن نذكر أهمها:

٢١ - الأسباب الدينية:

أ - اضطهاد الحجاج المسيحيين:

كانت مدينة القدس من أهم الأماكن المقدّسة عند المسيحيين، وهم يحجون إليها من مختلف أنحاء الأرض. ولما استولى العرب عليها السنة ٦٣٧، لم يتعرّضوا

(١) زابوروف، ص ٤.

للحجاج النصارى بل احترموهم وأحسنوا معاملتهم وحموهم من قطّاع الطرق واللصوص.

ففي شباط السنة ٦٣٨، دخل إلى القدس، الخليفة عمر بن الخطاب، راكباً جملاً أبيض اللون. وكان يرتدي وقتذاك ثياباً شبة قديمة، كما تقول التواريخ. وسار إلى جانبه البطريرك صفرونيوس باعتباره رأس رجال الإدارة في المدينة التي أذعنت للفتح على ان عمر بادر بالتوجّه، إلى الموقع الذي صعد منه النبي محمد ﷺ إلى السماء. ثمّ طلب الخليفة زيارة مشاهد المسيحيين، فصحبه البطريرك إلى كنيسة القيامة وأطلعه على كلّ ما فيها. وبينما كان بالكنيسة، اقترب وقت الصلاة عند المسلمين. فتساءل الخليفة، أين يستطيع أن يفرش قباءه للصلاة، فطلب إليه البطريرك ان يبقى في مكانه، غير أن عمر تراجع إلى المدخل الخارجي للكنيسة، كيلا يطالب، على حدّ قوله، أتباعه المتحمّسون في دينهم، بأن للإسلام حقاً في المكان الذي أدّى فيه عمر الصلاة.(١)

لم تستمرّ هذه المعاملة الطيّبة بعدما ضعفت الدولة العباسية وانقسمت إلى دويلات، فلقي المسيحيون كثيراً من الاضطهاد وهدمت كنيسة القيامة وتعرّضت حياة الحجاج للخطر الشديد.(٢)

ازدادت الحالة سوءاً، عندما سقطت القدس في يد السلاجقة السنة ١٠٧٦، فنكّل بالنصارى وكثر التعدّي على الحجاج الأوروبيين بشكل خاص، بسبب ما كانوا يحملونه معهم من الأموال وغيرها. نشر الحجاج في بلدانهم أخبار الاضطهاد الذي تعرّضوا له في الشرق مما أثار حماسة المسيحيين وراحوا يفكّرون في تأمين حرية العبادة للنصارى وحرية الوصول إلى الأماكن المقدّسة بأمان.(٣) وهذا الشعور الديني المجرّد عن كلّ غاية كان أحد العوامل

(١) رنسيمان، ج١، ص ١٨.

(٢) حتي، لبنان في التاريخ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

(٣) جواهر لآن نهرو، لمحات من تاريخ العالم، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، ط ٢، بيروت ١٩٥٧، ص ٥٠.

الأساسية التي حملت كثيراً من المتدينين على التطوّع للقتال في الشرق. وهذا الشعور أيضاً كان في جملة العوامل التي جعلت البابا يدعو إلى الحروب الصليبية ويتزعّم حركة تنظيمها.(١)

ب - رغبة بابا روما في السيطرة على الأماكن المقدّسة:

كان يرمي بابا روما إلى أبعد من حماية الحجاج وتأمين وصولهم إلى قبر المسيح بحرية وأمان. كان يريد السيطرة المباشرة على الأماكن المقدّسة في فلسطين والتي هي في أيدي المسلمين وتحت رعايتهم. وقد عطف على الحركة الصليبية وأيّدها بكلّ قواه لأنه كان يأمل أن تحقق له هذه الأمنية الغالية.(٢)

ج - طمع الخاطئين في الغفران عن الخطايا:(٣)

كان البابا يمنح الغفران عن الخطايا لمن يتجنّد في الجيوش الصليبية، فأقبل عدد كبير من الاتقياء على السفر إلى الشرق لتقبل توبتهم ولينالوا الغفران ويدخلوا السماء. «أن كلّ من يرتحل إلى القدس بدافع التقوى والورع، وبهدف تحرير كنيسة الرب وليس بغية الحصول على المجد أو المال، فإنه يستطيع بهذه الرحلة أن يكفّر عن ذنوبه وآثامه كافة».(٤)

٢٢ - الأسباب السياسية:

أ - وقف زحف السلاجقة نحو أوروبا:

لا تقلّ الأسباب السياسية أهمية عن الأسباب الدينية. لم تكن الحروب الصليبية

---

(١) وليم، ج١، ص ١٦٧.
(٢) وليم، ج ١، ص ١٦٨.
- رنسيمان، ج ١، ص ١٧١.
(٣) رنسيمان، ج ١، ص ١٧٢ - ١٧٣.
(٤) الأمين، حسن، غارات على بلاد الشام، توزيع دار قتيبة، ط ١، بيروت ٢٠٠٠، ص ١٣٢، ١٣١.
- جواهر لآل نهرو، ص ٥١.
- زابوروف، ص ٤٥.

إلاّ حلقة من الصراع العنيف الطويل بين الشرق الآسيوي والغرب الأوروبي. كما قلنا سابقاً، الذي تجلّى من قبل بحروب الفرس واليونان وقرطاجة وروما وغيرها. ففي السنة ٦٣٤، ابتدأ العرب يهاجمون الغرب. فانتصروا على البيزنطيين وأخرجوهم من بلاد الشام واستولوا على شمالي افريقيا ومنها وثبوا إلى البر الأوروبي في اسبانيا وجزيرة صقلية وجنوبي إيطاليا. وفي القرن الثامن، هدّد العرب أوروبا كلّها تهديداً خطيراً مباشراً. وفي القرن الحادي عشر، هاجم السلاجقة بيزنطية في آسيا الصغرى فاحتلّوا معظم تلك البلاد واقتربوا من شواطىء بحر مرمره وهدّدوا القسطنطينية نفسها بالسقوط. وقد طلب الإمبراطور مساعدة الغرب عن طريق بابا روما فوقعت الحروب الصليبية، وكانت مظهراً جديداً من مظاهر ذلك الصراع الهائل والمخيف الذي ما يزال قائماً بين الشرق والغرب حتى يومنا هذا.[١]

ب - طموح النبلاء إلى تأسيس ممالك وإمارات:

ومن الأسباب السياسية أيضاً أن كثيراً من النبلاء والفرسان لم يتيسّر لهم في بلاد الغرب أن يخوضوا الحروب ويفتحوا البلدان ويصبحوا أمراءاً وملوكاً فاحبوا أن يأتوا محاربين إلى الشرق لعلّهم يستطيعون أن يحققوا هنا ما عجزوا عن تحقيقه هناك. وقد نجح بعضهم فعلاً فيما أراد، وأسّس ممالك وإمارات مثل غودفري دي بويون وبودوان دي بويون وبوهيموند وريمون دي تولوز وغيرهم.

٢٣ الأسباب الاقتصادية:

أ - سوء الحالة الاقتصادية:

لم تكن الحالة الاقتصادية في أواخر القرن الحادي عشر حسنة تماماً. فقد تفشّت الأمراض والبؤس في أوروبا ولاسيما المنطقة الواقعة بين شاطىء المانش وتشيكوسلوفاكيا. وفي سنة ١٠٩٥، أمحلت المواسم في شرقي فرنسا، فساءت حالة الصناعة[٢] والتجارة، وانتشرت المجاعة، ولم

(١) زابوروف، ص ٣٧.

(٢) زابوروف، ص ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧.

يعد من السهل على الفقراء أن يجدوا عملاً يرتزقون منه. فإن الكثير من أولئك الفقراء والجياع والعاطلين عن العمل، وجدوا بالدعوة إلى الحروب الطليبية، خير وسيلة لكسب العيش ولجمع الثروة عن طريق الغزو والسلب واللصوصية. كما ان الكنيسة تعهّدت لإعالة من يخلفهم المحاربون وراءهم من العاجزين والقاصرين. فقد تمتع المحاربون لمكافأتين دينية ودنيوية: الأولى من البابا الذي يمنحهم الغفران عن ذنوبهم وخطاياهم والثانية الثروة التي تمنحهم إياها اللصوصية والغزو عدا عن الحرية والتمتع بالأراضي «لتدرّ لهم العسل والسمن أنهاراً».(١)

ب - طمع الناس في غنى الشرق:

تحمّس الناس ورغبوا في الانضمام إلى الجيش الصليبي الآتي إلى الشرق بهدف أن يعودوا بعد الحملة إلى قراهم وبلدانهم وبحوزتهم مبالغ كبيرة من الأموال والذهب فيصبحوا أغنياء وأثرياء. لقد اتصل بهم أخبار كثيرة عن غنى الشرق وثرائه. ولا شك في أن تلك الأخبار كان قد بولغ فيها كثيراً. فأخبار الحجاج كانت مضخّمة عن القصور الشرقية وحياة البذخ والترف التي كان يحياها الخلفاء والأغنياء في دمشق وبغداد، وبالأموال الطائلة التي كانوا يمنحونها جوائز للشعراء والأدباء والمقرّبين إليهم، أو يدفعونها ثمناً للجواري والمغنيات والراقصات والمعظيات. وقد لعبت قصّة ألف ليلة وليلة وما تحتويه من أخبار عن غنى وثراء أهالي بغداد على أيام العباسيين. فتوهّم بعض الغربيين أأن الشرق كلّه ذهب وفضّة وحور وقصور، وظنّوا انهم يستطيعون ان ينتقلوا فيه من حالة الفقر إلى حالة الثراء بلمحة بصر.(٢) لهذا صادفت الدعوة إلى الحروب الصليبية استجابة سريعة من الفقراء والمغامرين وبعض المجرمين الذين اندسّوا بين صفوف المحاربين متّخذين هذه المناسبة وسيلة إلى جمع المال من أسهل الطرق.(٣)

---

(١) زابوروف، ص ٤٨ - ٤٩.

(٢) زابوروف، ص ٣٨.

(٣) زابوروف، ص ٤٧، ٥٠، ٥١.

ج - السيطرة على أسواق الشرق التجارية:

من بين الذين أمّوا الشرق مع الحملات الصليبية عددٌ كبير من التجار الإيطاليين وغيرهم من التجار الأوروبيين. وكان هؤلاء يتاجرون مع أهالي الشرق ويصرّفون بضاعتهم ومنتجاتهم. وعندما أصبح الحكم بيد الفاطميين في مصر والسلاجقة في بر الشام والعراق، عرقل هؤلاء حركة التجارة الأوروبية مع آسيا عبر مصر وبلاد الشام وبعض أجزاء آسيا الصغرى. لذلك صبر التجار الأوروبيون على الضيم حتى جاءتهم الدعوة إلى الحملات الصليبية فلبّوها فوراً وأيّدوها بشدّة، طمعاً في تحقيق مشاريعهم المالية وأهدافهم التجارية وهي الحصول على موارد الشرق ومنتجاته بأحسن الشروط وأبخس الأثمان.(١)

إلى جانب كلّ هذه الأسباب والدوافع التي أدّت إلى الحملات الصليبية نحو الشرق والتي وردت في سياق هذا البحث، نرى أنه يوجد أسباب أخرى كثيرة، لكنها أقلّ حدة من سابقاتها منها أن الدول الأوروبية أرادت أن تتخلّص من اللصوص والمجرمين وقطاع الطرق، ففتحت لهم أبواب السجون للانضمام إلى الحملات الصليبية الأولى إلى جانب ذلك، أعفي الصليبيين من تأدية الضرائب والرسوم العائدة للكنيسة أو الدولة ومن دفع الفوائد القانونية عن الديون المتوجّبة عليهم.

لقد كانت دوافع الحرب كثيرة ومتنوّعة وكذلك أسبابها وقد شغلت الشرق والغرب مدّة قرنين كاملين من الزمن وقد وسّعت الهوّة بين أوروبا المسيحية وآسيا المسلمة بأغلبيّتها لا يزال يعاني الشرق من نتائجها لغاية يومنا هذا. فالمسألة الشرقية لا تزال دون حلّ يذكر.(٢)

٣ - القادمون من الغرب يعبرون إلى بلاد الشام (١٠٩٦):

٣١ - نداء الإمبراطور البيزنطي إلى البابا اوربانوس الثاني (١٠٩٤):

في أواخر القرن الحادي عشر، هاجم السلاجقة الأتراك الدولة البيزنطية وهدّدوا

---

(١) زابوروف، ص ٤٧ - ٥٠ - ٥١.

(٢) زابوروف، ص ٣٦ - ٣٧ - ٣٨.

عاصمتها، القسطنطينية، بالسقوط. فوجّه الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنينوس في سنة ١٠٩٤، نداء حاراً إلى البابا اوربانوس الثاني يلفت نظره فيه إلى الخطر الشديد الذي كان يهدّد دول أوروبا بأجمعها. ويطلب إليه أن يمدّه الملوك والأمراء الغربيون بالجيوش لصد السلاجقة ولمنع إعتدائهم على الحجاج المسيحيين وهم في طريقهم لزيارة الأماكن المقدّسة في فلسطين.(١)

لقي نداء الامبراطور الكسيوس استحساناً لدى البابا خاصة وأن الكنيسة المسيحية كانت قد انشقّت نهائياً في سنة ١٠٥٤ إلى كنيستين مستقلّتين إحداهما شرقية (ارثوذكسية) مركزها القسطنطينية ورئيسها البطريرك. والأخرى غربية (كاثوليكية) مركزها روما ورئيسها البابا. وكان اوربانوس الثاني ما يزال يأمل في أن ينجح في إزالة الخلاف وجمع صفوف المسيحيين في كنيسة موحّدة تحت رئاسته. لذلك حرص كثيراً على أن يلبّي سريعاً، طلب الامبراطور البيزنطي المهيمن على الكنيسة الشرقية.(٢)

٣٢ - الدعوة إلى الحرب (١٠٩٥):

لم يكد البابا اوربانوس الثاني، يتسلّم نداء الإمبراطور البيزنطي حتى دعا إلى عقد مؤتمر ديني عام في مدينة كليرمون فران في فرنسا السنة ١٠٩٥. لم يأتِ البابا إلى فرنسا كي يضبط شؤون الكنيسة فيها وحسب، فعندما وطأت قدماه الأراضي الفرنسية، أنبأ كذلك انه ينوي أن يساعد الإخوان «المسيحيين الشرقيين». وتقول حوليات ذلك الزمن، أن البابا كان قد رسم في الوقت المناسب خطة ما للعمل، قد لا تكون بعد كاملة الخطوط ولكنها واضحة من حيث أهدافها ومراميها ومغزاها العام إلاّ أنه كان لا

(١) زابوروف، ص ٣٧.
- رنسيمان، ج ١، ص ١٦٧.
- بولس، ص ٢٤٥.
- المسيحية عبر تاريخها في المشرق، ص ٥٤٤.

(٢) زابوروف، ص ٣٢، ٣٧، ٣٨.

بدّ من بضعة أشهر لكي تكتسب هذه الخطة ملامح على ما يكفي من الدقّة.(١)

انعقد المؤتمر في الفترة الواقعة بين ١٨ تشرين الأول إلى ٢٨ تشرين الثاني السنة ١٠٩٥. فلبّت دعوة البابا جموع غفيرة جداً لم تتسع لها أرحب الكنائس والقاعات، فعقد ذلك الاجتماع التاريخي في ساحة فسيحة في العراء. وقد شهده نحو ثلاثماية من رجال الدين، الذين تشعّبت أعمالهم. وقد أقاموا الكرسي البابوي على منصّة مرتفعة تطلّ على الساحة. وتكلّم البابا، فأتى على ذكر طلب الإمبراطور الكسيوس، ثمّ وصف بأسلوب عاطفي مثير حالة المسيحيين والحجاج في الشرق. فأثار خطابه حماسة الحاضرين وقرّروا أن ترسل أوروبا جيوشاً جرارة لنجدة الامبراطور البيزنطي ضد السلاجقة. ولتتقدّم بعد ذلك إلى فلسطين وتستوليْ عليها.(٢) ذاك، «أن هؤلاء الأتراك... الذين وصلوا إلى البحر المتوسّط... ذبحوا وأسروا كثيرين من المسيحيين، ودمّروا الكنائس واجتاحوا مملكة الرب (بيزنطية)» وقد حاول البابا أن يصوّر الحرب التي استحثّ «المؤمنين» على شنّها بصورة مشروع يجب القيام به لتحرير قبر المسيح في القدس ولإنقاذ «الأخوة العائشين في الشرق» «... أنا أقول هذا للحاضرين واكلّف بإبلاغ الغائبين... هكذا أمر يسوع المسيح...»(٣) «ليكفّ الكره بينكم، لتصمت العداوة، لتهدأ الحروب، وتندثر الخصومات والنزاعات على اختلافها».(٣)

لقي خطاب البابا صدى حياً، حماسياً بين المجتمعين. وحظي برنامج الزحف نحو الشرق بتحبيذ الإقطاعيين وفرسانهم.

لقد تمّ الاتفاق على أن تسمّى تلك الحملات «بالصليبية» وعلى أن يحمل كلّ من يشترك فيها شارة الصليب بلون أحمر على صدره، رمز التضحية والوفاء.(٤)

---

(١) زابوروف، ص ٤١.

- رنسيمان، ج ١، ص ١٦٦ – ١٦٨.

(٢) رنسيمان، ج ١ ، ص ١٧١.

(٣) زابوروف، ص ٤٣ – ٤٤.

(٤) رنسيمان، ج ١، ص ١٧٣.

ومهما يكن من أمر، فقد سرى مفعول خطاب البابا، متجاوزاً كثيراً توقّعاته بالذات، وحتى غير متطابق بقدر ما، مع مصالح المبادرين الاقطاعيين إلى الحرب الصليبية. وقد نهى البابا المتقدّمين في العمر والمرضى والضعفاء ممن لا يحسنون استعمال السلاح، من الاشتراك في الحملة الصليبية.(١)

أما الفرسان والأسياد، فإن النداء إلى تحرير الأرض المقدّسة قد وقع بينهم في تربة صالحة تماماً، مما أسهم في تسعير نار الحرب. فتقرّر أن يتجهّز كلّ فرد لمغادرة وطنه في عيد العذراء ١٥ آب في السنة التالية، بعد ان يتمّ جمع المحصول، وينبغي ان تلتقي الجيوش في القسطنطينية.(٢) ثمّ تقرّر أنه لا بدّ من تعيين قائد للحملة. أراد البابا، على ما يبدو، ان يوضح أنه لا بدّ أن تخضع الحملة لإشراف الكنيسة. فينبغي أن يتولّى قيادتها أحد رجال الكنيسة، وليكن مندوبه. فاتخذ المجمع قراراً بالإجماع بأن يكون أسقف لي بوي (Le Puy) قائداً للحملة، فهو مبشّر بارع ودبلوماسي ماهر، هادىء الطباع شديد الرفق ويجمع الناس على احترامه، يسعى للإقناع لا لفرض أمره، غير أنه لم يتوافر له من الحزم والصلابة، ما يكفي لضبط الأمراء والبارونات المشتركين في الحملة.(٣)

كان ريمون كونت تولوز، أول من طلب من الأمراء، الاشتراك في الحملة. وكان لا بدّ من أن تكون له القيادة العلمانية على سائر كبار القادة والأمراء.(٣)

وبعد انتهاء المؤتمر أرسل الدعاة إلى فرنسا والمانيا وإيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية ليحثّوا الناس على التطوّع في الحملة الصليبية. فصاروا يجوبون البلدان من أقصاها إلى أقصاها يخطبون في الناس واصفين الاضطهاد الذي كان يتعرّض له المسيحيون على أيدي الفاطميين والسلاجقة الذين كانوا يتنازعون السلطة على بلاد المشرق وبر الشام والديار المصرية.

---

(١) زابوروف، ص ٤٩.
- رنسيمان، ج ١، ص ١٧٣.
(٢) رنسيمان، ج ١، ص ١٧٤.
(٣) رنسيمان، ج ١، ص ١٧٤.

وقد بالغ الخطباء كثيراً في رواياتهم اما لجهلهم واقع الحال أو لأنهم كانوا يرمون من وراء ذلك إلى إثارة نفوس السامعين وحملهم على تقديم جميع التضحيات التي تُطلب منهم مهما كانت جسيمة. وكان أشهر أولئك الدعاة وأكثرهم نشاطاً وأقواهم صحّة وأفصحهم لساناً رجل اسمه «بطرس الناسك» من بيكاردي[1] والراهب روبير دابريسل. وكان الاثنان واعظان متعصّبان للحرب الصليبية يطلبان من الناس امتشاق السلاح، وقد تأثّر بخطب بطرس الناسك ليس رعاع الناس بل الفرسان والفلاحين والفقراء المعدمين لأنهم كانوا يروا فيه رجل «الرب وكانت الجموع تسير وراءه كأنما تسير وراء قديس أو نبي»[2] وكان يعرف كيف يصالح بين المتجادلين والمتنازعين.[2]

وفي شتاء ١٠٩٥ - ١٠٩٦، اجتمعت في فرنسا قوات مدنية غفيرة من الفقراء والمعدمين المستعدّين للذهاب إلى المناطق البعدية في الشرق. كان الجوع يجبر الفلاحين على اللحاق بالحملة بأسرع ما يمكن، ولذا كانت تجمّعاتهم تجري في تسرّع محموم «للسير على درب الرب»[3] أن الفلاحين يتحرّقون من فارغ الصبر للذهاب إلى ملاقاة الخطر. وكان الكثير منهم «يوسم بالنار صليباً على جسمه».[3]

في آذار السنة ١٠٩٦، نهضت أوّل جموع الفلاحين الفقراء من فرنسا الشمالية والوسطى ومن الفلاندر واللورين والمانيا ثمّ من بلدان أخرى في أوروبا الغربية إلى الحج المقدّس. كان الفلاحون يأتون تقريباً دون سلاح. كانت الهراوات والمناجل والفؤوس والمذارى تقوم عندهم مقام الرماح والسيوف. «الجموع العزلاء من السلاح».[4]

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ١٧٩.

- زابوروف، ص ٥١.

(٢) زابوروف، ص ٥٢.

(٣) زابوروف، ص ٥٣.

(٤) زابوروف، ص ٥٤.

٣٣ - تجهيز الحملة والزحف باتجاه المشرق - حملة الفقراء:

لقد انضمّ إلى الحركة الصليبية عدد كبير من الرجال، من أشد الناس بأوروبا خبرة وميلاً إلى المغامرة. فلما عاد البابا اوربانوس إلى روما، ليمضي عيد الميلاد السنة ١٠٩٦، ازداد إحساساً بالاطمئنان إلى أن الحملة الصليبية اكتملت عدّتها وتجهيزها.(١)

لقد حدّد البابا يوم ١٥ آب موعداً لرحيل الحملة. وفي أواخر أيار ١٠٩٦، قدم من الشمال رسول إلى إمبراطور بيزنطية، يذكر أن جيشاً للفرنج اجتاز بلاد المجر ونفذ إلى الإمبراطورية عند بلغراد. وكان قد التفّ حول بطرس الناسك وبعض المتحمّسين من أمثال والتر المفلس (Walter sans-avoir) ورينالد برايس وجفري بوريل ووالتر برتييل وأورل وجوتشالك الالمانيان، عدّة ألوف من الصليبيين الفقراء في خلال بضعة شهور. وكانت حماستهم عظيمة، فلم ينتظروا الموعد المحدّد للزحف الصليبي العام بل استبقوا الأمور وساروا نحو الشرق. وكان ينقصهم النظام والتدريب. فلقي أكثرهم حتفه على أيدي الهنغاريين والبلغاريين قبل أن ترى عيونهم القسطنطينية. دعا الامبراطور الكسيوس إلى المبادرة بإجلائهم عن الجهات المجاورة للعاصمة، نظراً لما ارتكبه جنود الغرب من سرقات لا حدّ لها. إذ اقتحموا القصور والدور الواقعة في ضواحي العاصمة، بل انهم سرقوا مادة الرصاص من سقوف الكنائس. وبعد مرور أسبوع تقريباً على وصول بطرس الناسك إلى القسطنطينية، بدأ الامبراطور ينقل الصليبيين إلى الساحل الأسيوي من البوسفور. وقد جمعوا مجموعات القادمين وأسكنوهم مخيّماً على الساحل الجنوبي من خليج نيقوميديا على بعد ٣٥ كلم إلى الشمال الغربي من مدينة نيقيا(٢) في مكان يدعى تشيڤيتوت (Civitot)، اوكيبوتس في

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ١٧٨.

(٢) وليم، ج ١، ص ١٨٥.

- زابوروف، ص ٥٨.

- رنسيمان، ج ١، ص

ضواحي هيلينوبولس (HELENOPOLIS). وذلك نظراً لخصوبة المنطقة ولسهولة ما يجلب إليها من المؤن بحراً من القسطنطينية.

كان معسكر تشيڤيتوت على حدود بلاد السلاجقة. واستقرّ هؤلاء الفقراء هناك لمدّة شهرين تقريباً، مستمتعين بالمؤن الوفيرة من جميع الأنواع. وحصلوا على الفرصة الضرورية للتعافي والنقاهة.(١)

٣٤ - غارات الصليبيين - معركة نيقية (أيلول - تشرين الأول ١٠٩٦):

أ - توطئة:

اقترح الإمبراطور الكسيوس على بطرس الناسك ان ينتظر قدوم الحملة الصليبية الرئيسية، قبل أن يحاول شن الهجوم على بلاد السلاجقة، وتأثّر بطرس بنصيحته غير أن سلطته أخذت في الأفول.(٢) لقد بدأ هؤلاء التعساء يشكّلون جماعات منفصلة وشرعوا في اجتياح الريف المقابل عند السلاجقة، خلافاً لإرادة قوادهم، لمسافة خمسة عشر كلم أو أكثر، بدلاً من الإخلاد إلى السكينة لاستعادة قوّتهم وصحتهم وبانتظار الجيش الصليبي الرئيسي القادم من الغرب بين لحظة وأخرى. فجموع الالمان والايطاليين بقيادة رينالد برايس وكذلك الفرنسيين، صارت تتسابق وتتنافس على الإغارة على الأراضي الزراعية، وكان جفري بوريل، هو صاحب النفوذ الأكبر على الفرنسيين. وقد حاول بطرس الناسك ان يقف بوجه هذه الإغارات، لكنه لم يوفق، فعاد إلى القسطنطينية بسبب قلقه على الذين أوكل إله أمر رعايتهم أملاً بالحصول على تخفيض في ثمن السلع وعلى شروط أفضل للبيع والشراء، وانتهز الحشد المنحرف والفظ فرصة غياب بطرس وتصرّف بطريقة حمقاء أيضاً.(٣) فهاجموا القرى والبلدات وساقوا القطعان والمواشي

(١) وليم، ج ١، ص ١٨٦.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ١٩٩.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ١٩٨.

- وليم، ص ١٨٦.
- زابوروف، ص ٥٨.

والحيوانات ووصلت رسائل تحذيرية متوالية من الإمبراطور أمرهم فيها بعدم المغامرة بعيداً خارج حدود معسكرهم، وبعدم إثارة السلاجقة ضدهم وان يبقوا في المكان المخصّص لهم، وأن يتصرّفوا بحذر حتى وصول القادة الصليبيين الكبار الذين قيل أنهم قادمون في أثرهم.(١)

ب - الصليبيون أمام أبواب نيقية:

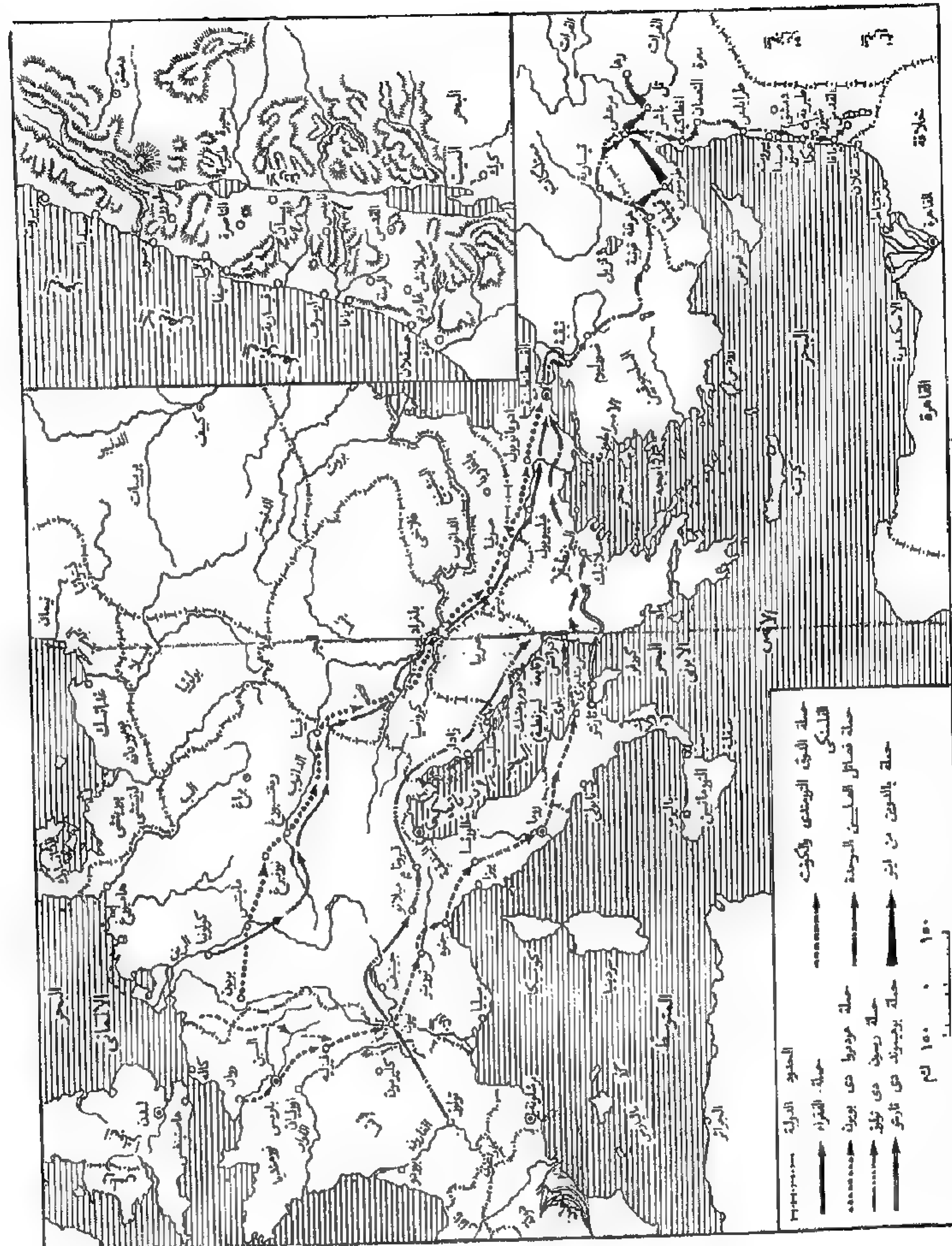
في منتصف شهر أيلول ١٠٩٦، انفصلت مجموعة قوامها سبعة آلاف من المشاة الفرنسيين وثلاثمائة فارس منهم بقيادة جفري، وزحفوا جميعاً باتجاه نيقية. فبادروا أول الأمر إلى الإغارة على القرى، ثمّ أخذوا يزحفون في حذر، وبصفوف مرتّبة وتعبئة قتال كاملة، على الأراضي التي بأيدي السلجوقيين المسلمين، فقاموا بالإغارة عليها، وسلبوا سكان القرى، وكلّهم من البيزنطيين المسيحيين، ثمّ اوغلوا في المغامرة حتى بلغوا أبواب مدينة «نيقية»، عاصمة السلطان السلجوقي «قلج ارسلان بن سليمان»، فنهبوا القرى بالضواحي واستاقوا ما صادفوه من الماشية والأغنام، وقتلوا السكان النصارى في وحشية بشعة.(٢) وقيل، والله أعلم، أنهم قاموا بشيّ الأطفال على السفافيد. وخرجت من مدينة نيقية، سرية من الجيش السلجوقي لقتالهم، غير انها ارتدّت على أعقابها بعد قتال عنيف. ثمّ عاد الفرنسيون الصليبيون إلى معسكرهم في تشيڤيتوت، حيث باعوا ما غنموه إلى رفاقهم، وإلى البحارة البيزنطيين الذين كانوا بالقرب من المعسكر.(٣)

---

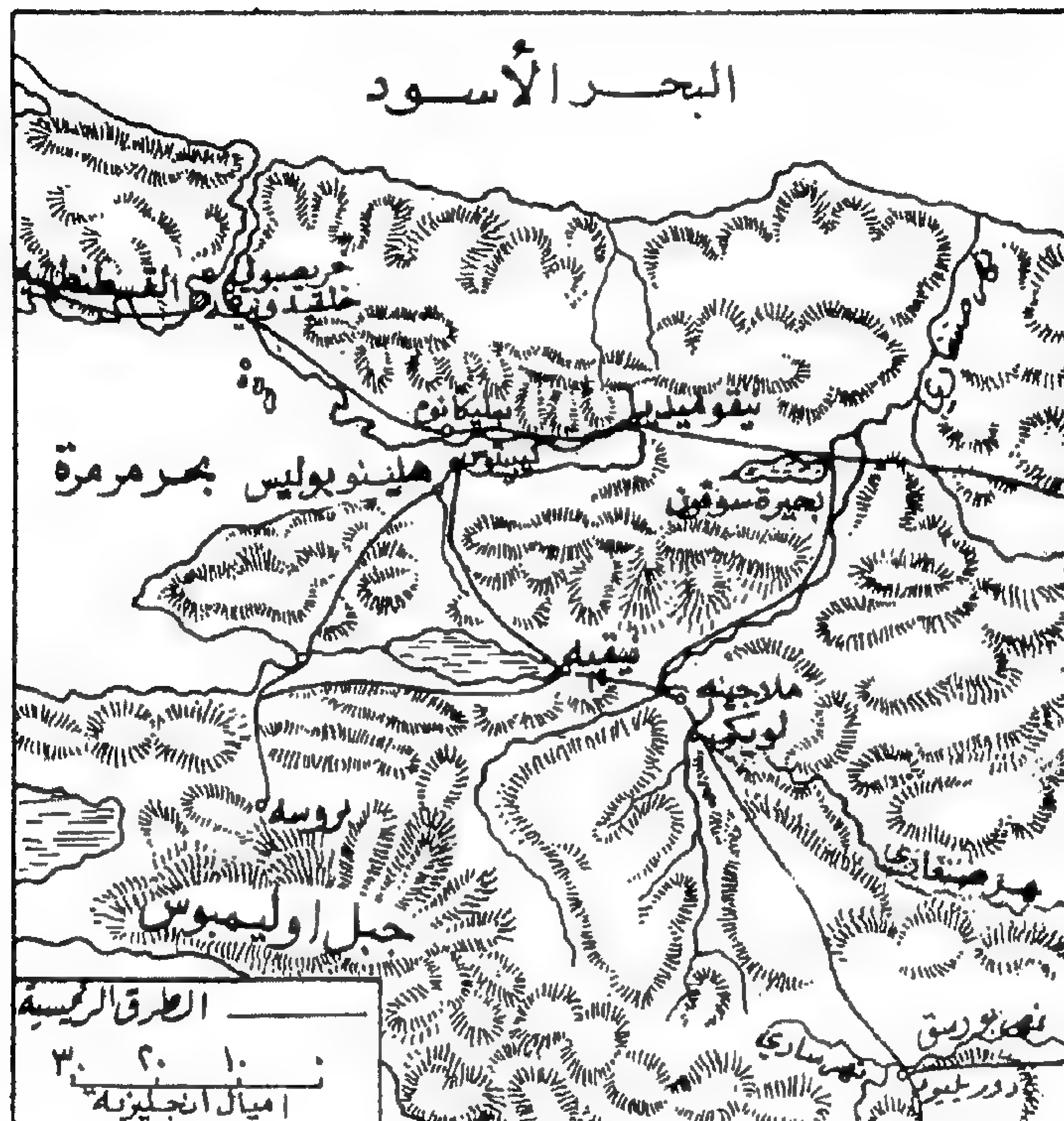
(١) رنسيمان، ج ١، ص ١٩٨.
- وليم، ص ١٨٦.
- زابوروف، ص ٥٨.
(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٢٠٠.
(٣) رنسيمان، ج٢ ، ص ٢٠٠.
- وليم، ج ١، ص ١٨٧.
- زابوروف، ص ٥٨.

- Amin, Maalouf, Les Croisades vues par les Arabes, Edition J'ai lu, Paris 1983.

الحملة الصليبية الأولى



القسطنطينية وضواحيها ونيقيه زمن الحَملة الصليبية الأولى



ج - السلطان السلجوقي قلج ارسلان يدمّر الصليبيين في تشيڤيتوت (٢١ تشرين الأول ١٠٩٦):

كان السلطان السلجوقي قلج ارسلان لا يتعدّى عمره السابعة عشر عندما هاجمه الصليبيون في عاصمته نيقية.

فمنذ شهر تموز ١٠٩٦، علم السلطان ان جماعة كبيرة جداً من الفرنج القادمين من أوروبا، كانت في طريقها نحو القسطنطينية، لكنه لم يكوّن أية فكرة عن أهداف هؤلاء الناس القادمين إلى الشرق وعلى صدورهم وجباههم وأسلحتهم «شارة الصليب».(١) وبناء على ذلك، جمع عن طريق طلب النجدات والمال وجميع الوسائل الممكن تصوّرها، عدداً كبيراً من الرجال الشجعان من جميع بلدان الشرق السلجوقي، وعاد إلى هذه البقاع مع هذا الجيش لتقديم العون المطلوب لسكان المنطقة ضد هجمات العدو. أمام هذا الخطر الداهم طلب من قواده تشديد الحراسة والمراقبة حول سور العاصمة، وأفادته بصورة مستديمة عن كلّ أعمال وتحرّكات هؤلاء القادمين الجدد. وكان، بصورة مستمرّة، يتأكّد من تنفيذ أوامره. وكانت أسوار نيقية تمتد على طول ستة آلاف من الأمتار، مزوّدة بحوالي مئتين وأربعين برجاً للمراقبة والدفاع. وكانت بحيرة اسكانيوس تشكّل، من الجهة الجنوبية الغربية للعاصمة، حاجزاً طبيعياً ممتازاً.(٢)

كان قصر السلطان وساحاته الخارجية تعجّ بالفرسان السلاجقة، الجاهزين للانقضاض في كلّ ثانية دفاعاً عن أرضهم وسلطتنهم وكانت دورياتهم خارج أسوار المدينة تجوب البقاع المحيطة وتنقل إلى قيادة المعسكر كلّ تحرّكات الفرنج وسكناتهم. وقد وصل إلى مسامع السلطان الأعمال التي يقومون بها هؤلاء الفرنجة أثناء إغارتهم على قرى السلطنة. لقد جنّد السلطان قلج الكثير من العملاء والجواسيس. فهؤلاء كانوا ينقلون إليه أدق حركات الصليبيين.

أثار وصول الفرنسيين إلى أبواب نيقية، حسد الالمان الموجودين في تشيڤيتوت. ففي أواخر أيلول خرج رينالد في جماعة منهم بلغ

---

(١) Maalouf, P. 18. معلوف، ص ١٨.

(٢) معلوف، ص ١٨.

عددهم ستة آلاف رجل (والبعض يقول ثلاثة آلاف؟) بينهم عدد من القسس والرهبان والأساقفة[١] وتجاوزوا في سيرهم مدينة نيقية، وراحوا ينهبون أينما حلّوا، لكنهم لم يقتلوا أحداً من الأهالي، فكانوا أقل قساوة من إخوانهم الفرنسيين الذين كانوا قد سبقوهم قبلاً إلى تلك البقاع. وصل الالمان إلى إحدى القلاع السلجوقية - قلعة «اكسير يجوردون»، فهاجموها وفتحوها عنوة، وكانت مليئة بالمؤن والعتاد من جميع الألوان والأصناف، فاتخذوها مركزاً، يغيرون منه على الأراضي الزراعية المجاورة.

وكانت هذه القلعة المحصّنة تقع على تلّة تبعد حوالي ستة كلم عن نيقية. وقد حاول أهلها الدفاع عنها لكن الالمان سيطروا عليها بشكل وحشي وقتلوا الناس واستولوا على كلّ شيء فيها. ثمّ حصّنوها بقوّة، بعدما سحرهم جمال المكان وثروته.[٢]

١ - القضاء على الالمان في قلعة اكسيريجور دون (٨ تشرين الأول ١٠٩٦):

لما علم السلطان السلجوقي ان وحدة من وحدات الصليبيين قد استولت على أحد معاقله، أرسل أحد كبار قادته العسكريين على رأس قوّة كبيرة من جنوده الشجعان لاسترداد القلعة.[٣] وتقع قلعة اكسيريجوردون على تل، وتستمد ماءها من بئر خارج الأسوار، ومن نبع بالوادي الذي يجري قربها. وحلّت القوة السلجوقية إلى هناك في ٢٩ أيلول وقضت على كمين كان قد نصبه لها رينالد واستولت فوراً على النبع والبئر وشدّدت الحصار على القلعة.[٤]

استبدّ اليأس بالالمان المحاصرين خاصة وانهم كادوا ان ان يموتوا عطشاً، فالظمأ هو الذي حارب عن السلاجقة[٥] فالسلاجقة

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٢٠٠.

- وليم، ج ١، ص ١٨٦.

(٢) وليم، ج ١، ص ١٨٧.

(٣) البعض يقول ان السلطان قام بنفسه على رأس القوّة المغيرة لاسترداد القلعة المذكورة - معلوف، ص ١٩.

(٤) رنسيمان، ج ١، ص ٢٠٠.

(٥) معلوف، ص ١٩.

أدرى من الالمان الصليبيين الغرباء بشعاب تلك المنطقة، فهؤلاء كانوا عديمي الخبرة، تنقصهم المهارة والحيلة بعكس عسكر السلطان. وتقول حوليات ذلك الزمن، ان الصليبيين لجأوا إلى امتصاص الرطوبة من الأرض وشق «شرايين» خيولهم وحميرهم وبغالهم، ليشربوا دماءها، بل انهم كانوا يشربون بولهم.(١)

بعد ثمانية أيام من العذابات المضنية والجوع والعطش المخيف، قرّر رينالد ان يستسلم، ففتح أبواب القلعة، بعد ان حصل على وعد من السلطان السلجوقي بالابقاء على حياته وحياة كلّ من يعتنق الإسلام. دخل السلاجقة إلى القلعة وقتلوا جميع الذين وجدوهم بداخلها، وقرّر السلطان قلج إرسال رينالد وأصحابه الأسرى الذين اعتنقوا الإسلام إلى انطاكية ومنها إلى حلب ومن ثمّ إلى خراسان(٢) وهكذا خسر الصليبيون حوالي ستة آلاف قتيل، ولم يرجع أحد من الألمان إلى المعسكر في تشيڤيتوت. فالقوّة التي توغّلت في أرض السلاجقة، ابيدت عن بكرة أبيها.

٢ - كارثة تشيڤيتوت:

بعد الاستيلاء على قلعة اكسيريجوردون، أباح السلطان السلجوقي لرجاله القلعة وسمح لهم بمهلة ٢٤ ساعة لاقتسام الغنائم كما كانت عادة تلك الأيام. وفي الغد عاد الانضباط والهدوء إلى عسكره وقرّر الاستفادة من هذا الانتصار للقضاء نهائياً على الصليبيين الغرباء في معسكر تشيفيتوت، لذلك لجأ إلى الحيلة: فأرسل جاسوسين من رجاله اليونانيين إلى معسكر تشيڤيتوت، ليبثّوا شائعة مفادها ان رجال رينالد تمكّنوا من الاستيلاء على نيقية نفسها بعد انتصارهم في اكسيريجوردون، وانهم يتقاسمون الغنائم فيما بينهم دون حلفائهم

(١) معلوف، ص ٢٠.
- رنسيمان، ج ١، ص ٢٠٠.
(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٢٠١.
- معلوف، ص ٢٠.

الآخرين.[١] وفي هذه الأثناء يستعدّ السلاجقة لنصب كمين ضخم لهؤلاء الوافدين الغرباء.

وكما توقّع السلطان، أدّت هذه الشائعة إلى اشتداد الاضطراب في المعسكر الصليبي. فطالب الرجال بالسماح لهم بالإسراع إلى نيقية، وذلك على امتداد طرق ملأها العاهل السلجوقي بكمائنه.[١] ولم يكن بوسع القادة كبح جماح الناس. ولكن وصلت في غضون ذلك أنباء الكارثة إلى المعسكر، وعمّم على الجميع في الحال، ان مجموعة رينالد الالماني التي كانت قد غادرتهم مؤخّراً قد أبيدت على يد قلج ارسلان السلطان السلجوقي، فخيّم الرعب على الناس، واجتمع قادة الجيش للتشاور فيما يفعلونه بعد ذلك. واشتدّت ثائرة الجيش وحماسه للمضي للانتقام لما وقع في القلعة المذكورة وطالب الجميع بكلّ عنف وبصيحات عالية[٢] بعدم تجاهل هذا الهجوم القاسي ضد إخوانهم وتنادوا فرساناً ومشاة للتقدّم للانتقام لدم رفاقهم الذين قتلوا بشكل مخيف.

كان بطرس الناسك لا يزال في القسطنطينية على أمل ان يحصل على معونة مادية هامة من قبل الامبراطور. أمام صيحات الناس للانتقام فوراً، حثّ والتر المفلس زملاءه على ان ينتظروا قدوم بطرس. الذي سوف يعود خلال ثمانية أيام. غير ان بطرس لم يعد. وفي هذه الأثناء شاع ان السلاجقة أخذوا يقتربون بقواتهم من معسكرهم، فاجتمع مجلس الحرب مرة أخرى وأصرّ كبار القادة من الفرنسيين، أمثال ولتر ورينولد برايس وولتر بريتيل، وفولك اورليان، ومن الالمان أمثال هيو توبنجن وولتر تيك، على ألاّ يجري أي شيء إلاّ بعد وصول بطرس.[٣] ثار الشعب

---

(١) معلوف، ص ٢٠.

- رنسيمان، ج ١، ص٢٠١.

(٢) وليم، ج ١، ص ١٨٧.

- Jonathan Riley - Smith, Les Croisades, Pygmalion, Paris, 1990, P. 35.

(٣) رينسمان، ج ١، ص ٢٠١.

- وليم، ج ١، ص ١٨٨.

شِبه جزيرة البلقان زمن الحَملة الصليبية الأولى



ضدهم ووضع نفسه تحت رعاية رجل اسمه غودفري، ويعرف بلقب جفري بورل (BUREL) الذي راح يوجّه الإهانات إلى هؤلاء القادة المجربين، متهماً إياهم بالشعور بالجبن أكثر من الإحساس السليم، ثمّ اتخذ قراره بالزحف باتجاه نيقيه. فجرى التخلّي عن النساء والأطفال والضعفاء والذين ليس لديهم أسلحة، بينما أمسكت البقية بأسلحتها واجتمعت حتى بلغ عديدها خمسة وعشرين ألفاً من المشاة وخمسمائة فارس مسلّحين بشكل جيّد ومدرّعين.(١) وقرّروا الزحف في اليوم التالي أي في ٢١ تشرين الأول ١٠٩٦.

استطاع جواسيس السلطان من معرفة تاريخ الزحف وخط سيره وتمكّنوا من إيصال الخبر إلى السلاجقة طالبين من السلطان الاستعداد للمعركة.(٣)

٣ - المعركة:

في ١٠٩٦/١٠/٢١ عند الفجر، ترك الفرنجة معسكرهم دون أن يلتزموا النظام واشتدّت جلبتهم وضوضاؤهم، وسار الفرسان في المقدّمة دون أن يأخذوا الحيطة والحذر المطلوبين في مثل هذا السير نحو العدو، ويقال إن عددهم وصل إلى ٢٠ ألف رجل.(٤)

أما السلطان قلج ارسلان، فلم يكن بعيداً عن المعسكر، لقد مضى ليلته في التلال القريبة والمحيطة بمعسكر تشيڤيتوت (Civitot).

تقدّم الصليبيون عبر التلال المغطاة بالغابات نحو هضبة نيقية. وما أن تقدّموا ثلاثة أميال تقريباً، حتى كان السلطان السلجوقي قد دخل الغابة نفسها أيضاً بخيالته الماهرة والمجربة، مسرعاً باتجاه المعسكر المعادي. ومعه أعداد ضخمة من أتباعه

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٢٠١.
- وليم، ج ١، ص ١٨٨.
(٢) - Grousset René, L'Epopée des Croisades, Paris, 1995, P. 20.
- رنسيمان، ج ١، ص ٢٠٢.
- وليم، ج ١، ص ١٨٨.
(٣) معلوف، ص ٢١.
(٤) رنسيمان، ج ١، ص ٢٠٢.

وذلك بقصد شن هجوم مباغت على الصليبيين.(١)

بانت طلائع قوات الصليبيين المتقدّمة من بعيد فنصب السلاجقة لهم كميناً محكماً عند قرية دراكون وما أن أصبحوا في وسطه حتى أطلق رجال قلج سيلاً كبيراً من السهام على خيالة الفرنجة، فأصابت خيولهم أو قتلتها، فسادت الفوضى والاضطراب وسقط الفرسان عن ظهور مطياتهم، عندها هاجمهم السلاجقة، قسم منهم طارد ما تبقى من الفرسان والقسم الثاني فتك بالمشاة ولم تنفعهم البسالة، لأن الذعر كان أقوى منها. فكانت مذبحة رهيبة. تراجع الناجون دون نظام نحو معسكر تشيڤيتوت فلاحقهم السلاجقة إلى هناك ودخلوا المعسكر المعادي. لم تحدث مقاومة كبيرة، ولقي الكثير من الجنود والنساء والرهبان مصرعهم، قبل أن يتهيأ لهم الوقت الكافي للانكفاء. دبّت الفوضى بين الناس والتجأ فريق منهم إلى الغابات المجاورة وفريق إلى البحر، ولم يفلت منهم إلاّ عدد قليل. ولم ينج من القتل إلاّ الصبيان والفتيات الجميلات فضلاً عن بعض الأسرى الذين جرى عليهم الرق، كما كانت عادات ذلك الزمان.(٢)

أثناء هذه المذبحة تمكّن حوالى ثلاثة آلاف رجل من الصليبيين، كانوا أحسن حظاً من الآخرين، إذ نجحوا في الوصول إلى قلعة قديمة متداعية، تقع على شاطىء البحر، تفتقر إلى الأبواب والنوافذ والموانع فالتجأوا إليها ودعموها بما تيسّر لهم من الأشجار والصخور الكبيرة ووضعوا العراقيل على المسالك المؤدّية إليها بهدف عرقلة تقدّم الأتراك السلاجقة. لقد استمدّوا من اليأس قوّة وقرّروا الدفاع عن أنفسهم مهما كثرت الشدائد، لقد كانت معركة حياة أو موت.

صمدت القلعة، غير أن كلّ شيء في معسكر تشيڤيتوت كان قد انتهى في

(١) وليم، ج ١، ص ١٨٨.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٢٠٢.

- معلوف، ص ٢١.

منتصف النهار. فملأت جثث القتلى الأرض الواقعة بين ممرّ دراكون والبحر[١] وقتل من القادة الصليبيين: ولتر المفلس، وريـنـالـد بـراس وفـولك اورلـيـات، وهـو تـوبـيـنـجـن، وولتر تيك (TEGK) وكنراد والبرت تسمرن، ولم ينج من المذبحة إلاّ جفري بوريل، الذي أدّى تهوّره إلى وقوع هذه الكارثة، ووالتر بريتيل ووليم بواسي وفريدريك تسمرن ورودولف براندیز، وقد تعرّضوا جميعاً لإصابات خطيرة.[٢]

وصـلـت أخـبـار نـتـائـج المعـركـة إلى القسطنطينية، إلى آذان بطرس الناسك والامبراطور، بواسطة أحد البيزنطيين الذي كان قد حضر المذبحة، فبادر الكسيوس إلى إرسال عدد من السفن إلى هناك لفك الحصار ونقل ما تبقى من الناجين إلى العاصمة. وعند اقتراب السفن البيزنطية من الموقع المقابل للقلعة، فك السلاجقة حصارهم وعادوا إلى نيقية، آخذين اسراهم معهم بالإضافة إلى أثمن الغنائم والخيم والسرادقات والخيول والبغال وكافة أنواع المعدات والعتاد التي استولوا عليها من الصليبيين.[٢]

لقد قُتل الصليبيون بالجملة، فمن أصل خمسة وعشرين ألف رجل، ثلاثة آلاف فقط تمكّنوا من البقاء على قيد الحياة والعودة إلى الأراضي البيزنطية.[٣] وهكذا استطاع السلطان السلجوقي قلج ارسلان من إفناء طلائع الصليبيين في نهار واحد. إن هذه الحملة الصليبية العشوائية أدّت إلى إزهاق أرواح ألوف عديدة من الناس واستنفدت ما عند الامبراطور البيزنطي ورعاياه من الصبر، وعلّمت الناس ان الإيمان وحده لن يفتح الطريق إلى القدس، إذا تجرّد من الحكمة

---

(١) وليم، ج ١، ص١ ٨٩.

- رنسيمان، المصدر السابق، ص ٢٠٢.

(٢) زابوروف، ص ٥٨ - ٥٩.

- وليم، ج ١، ص ١٨٩.

(٣) Grousset, P. 20.

- SMITH, P. 36.

والنظام واتكل على الفوضى والشجاعة وقلّة الخبرة والانضباط. إلى جانب ذلك يمكننا القول: إن الأوهام الساذجة التي غذّتها الكنيسة من جماهير الفلاحين الفقراء المسحوقين تحت وطأة الفقر الفكري، قد تبدّدت لدى أول اصطدام بالواقع الفعلي. إن الفلاحين الفقراء لم يكسبوا في الشرق الأرض والحرية، بل كسبوا هلاكهم وقدّموا رقابهم طعاماً لسيوف السلاجقة.(١)

٤ - الاستنتاجات العسكرية:

مما لا شكّ فيه أن السلطان السلجوقي قلج ارسلان كان خبيراً في فن الحرب ومجرباً وشجاعاً دون تهوّر. لقد طبّق في معركة نيقية عدداً كبيراً من مبادىء وقواعد الفنّ العسكري التي ذكرناها سابقاً. أما أعداء السلطان فلم يطبّقوا أي شيء من ذلك. لقد كانوا خليطاً من الفقراء المعدمين يقودهم رجال مجربون وشجعان لكنهم متهوّرون. تنقصهم الرؤية وحسّ القياس والوسائل:

أولاً: بالنسبة للصليبيين:

لم تكن وسائلهم على المستوى المطلوب، فهذا الخليط من الناس كان يفتقر إلى الانضباط، منهم من كان مسلّحاً ومنهم من كان بلا سلاح. حتى أن الأسلحة كانت، كما يقول المؤرّخون، كناية عن خناجر ومذاري وعصي وبعض السيوف. لقد كانوا مشاة بعضهم حفاة وعراة، جائعون، متحمّسون لمبادئهم، ليس بحوزتهم إلاّ القليل من معدّات الحصار، يفتقرون إلى مدفعيّة ذلك الزمان (المنجنيق) فكرة القتال لديهم كانت، النهب والسلب على طريق السير للوصول إلى بيت المقدس وحسب. انهم يقاتلون للحصول على الغفران الكامل لخطاياهم الدنيوية. لم يكن بحوزتهم العدد اللازم من الخيالة الفاعلة، ويقال إن عدد الخيالة لديهم كان لا يتجاوز الألف خيال حتى أن عربات النقل كانت نادرة معهم.

ثانياً: بالنسبة للسلاجقة:

لقد حدّد السلطان السلجوقي قلج ارسلان هدفه بدقّة. لقد كانت معركة حياة

(١) زابوروف، ص ٥٩.

أو مـوت. وقـد قـابـل بين قـواتـه وقـوات الصليبيين الذين دخلوا أرضه وذلك بتطبيق «الحيطة بالاستعلام». لقد استخدم الطاقة المعنوية لكافة شعبه واستدعى العدد الكبير من المقاتلين من كافة مناطق بلاد الشام والعراق. كان السلطان يتمتع «بحسّ القياس» فوازن بين هدفه الذي انتقاه ووسائله. لقد كان على علم مسبق بالعدد التقريبي لقوات الصليبيين في معسكر شيڤيتوت، وللوسائل التي بحوزتهم. فكان استعلامه التكتي قوياً، فجواسيسه في قلب المعسكر المعادي ينقلون إليه، في الوقت اللازم، كلّ حركات المعسكر وفكرة مناورة قادته وتاريخ وساعة الانطلاق باتجاه أرض سلطنته، حتى أن خط سيرهم كان على علم دقيق به.

لقد تمتّع السلطان «بحرية العمل»، فأحسن تجميع قواته وأمّن حرية خط مواصلاته وتقدّم بخيالته الكثر نحو عدوّه، آخذاً الحيطة والحذر وقد أخفى نواياه عن الصليبيين المتقدّمين باتجاه عاصمته نيقية.

لقد استفاد من خيالته ومشاته إلى أقصى حدّ أثناء الاطباق على الصليبيين. وأمّن عنصر المفاجأة من جهة بإقامة الكمائن على طريق تقدّم أعدائه ومن جهة أخرى بإطلاقه السهام دفعة واحدة على خيول طليعة الصليبيين الذين أصيبوا بعدما فقدوا قوّة الصدم (من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ خيال فقط).

بعد انتصاره في المعركة بشكل نهائي، قرّر السلطان قلج ارسلان افناء الصليبيين كلياً وذلك باستثمار النجاح وملاحقة أعدائه إلى معسكرهم وتدميره وقتل من فيه واللحاق بالهاربين ومحاصرتهم في القلعة. فعدد قتلى الصليبيين يدلّ على قوّة وشكيمة خيالة السلاجقة وخبرتهم في القتال لاسيما على أرضهم الخاصة.

الفصل السادس

السلجوقيون يقاومون الموجة الثانية من الموجات الصليبية الزاحفة نحو الشرق - سقوط نيقية السلجوقية وانشاء إمارة الرها الصليبية (١٠٩٧ - ١٠٩٨)

١ - العوامل التي سهّلت للصليبيين احتلال آسيا الصغرى وبلاد الشام (١٠٩٧ - ١٠٩٨):

في بداية القرن العاشر، ظهر التفكّك في الوحدة الإسلامية، كدين وكدولة. ففي أواخر القرن الحادي عشر، كان السلاجقة الأتراك والتركمان - وهم من السنة، يسيطرون سيطرة تامة على آسيا الصغرى وشمالي سوريا. أما مصر وفلسطين وسوريا، فكانت تحت حكم الفاطميين، وهم من الشيعة. وكان في داخل الإمبراطورية الإسلامية، أمراء يحكمون إمارات صغيرة ومقاطعات تكاد تكون مستقلّة عن بغداد - بعضهم من التركمان السلاجقة وبعضهم من العرب وأدّى التنافس والعداء بينهم والتنابذ ومشاكل التعاقب على الحكم بين هؤلاء الحكام والأمراء المنشقين، إلى فوضى سياسية وإلى حالة دائمة من القلق والاضطراب.

«وأما المنطقة الجبلية، فقد كانت ملجأ الفرق الإسلامية المنشقّة والطوائف المسيحية المختلفة: النصيرية بالقرب من اللاذقية - وإلى الشرق منهم جماعة الحشاشين الاسماعيلية - والموارنة في شمالي لبنان، والدروز في جنوبه، وبينهما المتاولة (الشيعة). ومما زاد في حدّة الفوضى سيل مستمر من الاعراب (البدو)، الذين كانوا يهجرون الصحراء ويستقرّون في المناطق الزراعية أو في المراكز العسكرية، وسيل آخر من الأكراد، ومن التركمان، للانخراط في جيش الأمير والحاكم، الذي يمنحهم خير الجزاء».(١)

(١) حتي فيليب دكتور، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور، ترجمة الدكتور أنيس فريحة، دار الثقافة - بيروت، ص ٣٤٢.

إن التجزئة السياسية لبلاد الشام، وتعدّد المذاهب، قد فتحا الباب على مصراعيه للغزو الصليبي. وكان الشعب الذي عانى الذل والفقر طوال قرون عدّة من جور الحاكمين، لا يبالي عند تبدّل من يسوده. ففي تلك الحقبة التي انتهت آنذاك - نهاية القرن الحادي عشر - كان المغامرون الأتراك والبربر، يحتلّون المسرح. وجميعهم في حرب بعضهم ضد البعض الآخر. يحاولون التوسّع على حساب جيرانهم.

ثمّ أن الفاطميين في مصر كما ذكر ابن الأثير، كانوا قلقين من قوّة جيرانهم السلجوقيين. فاستحثّوا الفرنج للتدخّل، داعين إياهم لإقامة إمارة بين الدولتين.(1) وسنرى في سياق الكلام على الصليبيين، إن الأمراء المسلمين الصغار كانوا يسالمون الفرنج، من أجل مؤامرات يحوكها البعض منهم ضد الآخرين.(2) ثمّ ان الدين المسيحي قرّب بين المسيحيين في الشرق وبين الصليبيين الأغراب الغزاة، نظرائهم في الدين.

فكانت نتيجة كلّ ما قلناه في سياق هذا البحث أنه، عندما امتدّت الموجة الصليبية الثانية (١٠٩٨) نحو الجنوب، بعد انتزاع نيقية وانطاكية من أيدي الأتراك السلاجقة، استقبلت في سوريا ولبنان وفلسطين بلامبالاة من جانب أهل الشيعة وبعطف من جانب المسيحيين.

٢ - وصول الموجة الصليبية الثانية إلى آسيا الصغرى (١٠٩٧):

٢١ - سلاجقة آسيا الصغرى وبلاد الشام عشية وصول الفرنج:

ذكرنا سابقاً أن السلطان ملك شاه، كان قد عيّن شقيقه «تُتُش» حاكماً على دمشق (١٠٧٨) وعيّن أحد ضباطه الأتراك، القائد «آك سنقر» حاكماً على حلب. وبعد وفاة ملكشاه، استولى تُتُش على مدينة حلب (١٠٩٤). ولكنه قتل في السنة التالية (١٠٩٥)، في إحدى المعارك فحكم مكان «تتش»، في حلب ابنه «رضوان» (١٠٩٥ - ١١١٣)، وتولّى الحكم في دمشق، ابنه الآخر

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ٢٠٠٣، الجزء ٩، ص ١٣ - ١٤.

(٢) Wiet, L'Egypte arabe, p. 59.

«دقّاق» (١٠٩٥ - ١١٠٤)، وكان صهر «لتتش» قد تولّى إقطاع القدس لغاية السنة ١٠٩٨، حين أجبر على التخلي عن الإقطاع للفاطميين. وفي السنة ذاتها، خرجت هذه المدينة من يد الفاطميين «لتقع في يد أعداء غرباء، لم يكونوا في الحسبان، هم الصليبيون».

كان السلطان قلج أرسلان يتباهى بعائلته السلجوقية المؤثّرة والمشهورة، لكنه لم يكن مخدوعاً بمظاهر وحدة الامبراطورية السلجوقية المزيّفة. فبين الأمراء السلجوقيين، لم يكن هناك أية لحمة أو تضامن: فيجب على الواحد منهم أن يقتل كي يعيش ويحكم. احتلّ والده، السلطان سليمان ابن عم الب ارسلان، آسيا الصغرى وهضبة الأناضول دون مساعدة إخوانه، لكنه عندما أراد التوسّع جنوباً، باتجاه سوريا، اغتاله أمير من أولاد عمومته.(١)

وبينما كان الفتى قلج ارسلان محجوزاً بالقوة في أصفهان، تفسّخت وتجزّأت سلطنة والده. في سنة ١٠٩٢، أطلق سراح الفتى المذكور، وكان عمره لا يتعدّى الثلاثة عشر سنة، وعاد إلى إمارته ليمارس سلطته على مدينة نيقية وهضبتها فقط. وبناء على نصائح أمراء جيشه، تمكّن بالحرب والاغتيال والحيلة، من استعادة قسم من سلطنة والده. أما منافسوه في آسيا الصغرى فكانوا لا يزالون أقوياء. أما في سوريا وإيران، فالحكام السلاجقة كانوا مشغولون بنزاعاتهم الخاصة.

إلى الشرق من أرض السلطنة، وفي هضبة الأناضول، كانت تقع بلاد الأمير «حسن دانيشماند» «الحكيم» أمير كبدوكيا، الذي اغتنم فرصة اغتيال والد قلج ارسلان ليحتلّ منطقة شمالي شرق الأناضول.(٢)

في الأشهر الأولى من سنة ١٠٩٧، وصلت طلائع الحملة الصليبية إلى القسطنطينية. وفي هذه الأثناء، تقدّم الأمير «دانيشماند» باتجاه مدينة «ملطية» الواقعة جنوبي شرق انقره، ملقياً الحصار عليها،

(١) بولس، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.
Maalouf, P. 23. -
(٢) Maalouf, P. 24.

الأمر الذي أغضب وأقلق بال السلطان قلج، فجمع خيالته وانتقل بهم إلى ضواحي «ملطيّة» حيث أقام معسكره بالقرب من معسكر دانيشماند بغية إخافته وإرهابه. توتّرت الأجواء وكثرت المناوشات القاتلة بين الخصمين فكانت نذيراً لمعركة آتية بينهما لا محالة.(١)

٢٢ - معركة نيقية الثانية (٢١ أيار ١٠٩٧):

فإذا كانت الحملة الصليبية حريصة على الوصول إلى بيت المقدس، فلا بدّ من السيطرة على طرق آسيا الصغرى، فالهدف الأساسي للسياسة البيزنطية، هو طرد السلاجقة من هضبة الأناضول. والواضح أن الاتفاق كان تاماً حول خطة المناورة للاستيلاء على مدينة نيقية(٢) عاصمة سلاجقة الروم.

تقع هذه المدينة على شواطىء بحيرة أسكان، التي لا تبعد كثيراً عن بحر مرمرة. ويجتازها الطريق العسكري البيزنطي القديم، على الرغم من أن طريقاً آخراً. يعتبر بديلاً عن الأول، يسير على مسافة قصيرة إلى الشرق منه، كانت نيقية حصناً كبيراً يهدّد سائر الطرق التي تخترق الإقليم. لقد كان الاستيلاء عليها شرطاً ضرورياً لتقدّم الصليبيين لاحقاً عبر منطقة الأناضول،(٣) فهي قائمة في السهل، كما أنها غير بعيدة عن الجبال التي تحيط بها من جميع الجهات، وهي تمتاز بأن لديها أفضل الحقول وتحيط بها الغابات والاحراج. وإلى الغرب منها بحيرة واسعة نوعاً ما وذات طول كبير، حيث تلامس مياهها أسوار المدينة عندما ترفعها الأمواج. وعبر هذه البحيرة، تجلب السفن المؤن والعتاد من مختلف البقاع. ويحيط بها من الجهات الأخرى، خندق يملأ بالمياه

---

(١) زابوروف، ص ٧٤.
(٢) رنسيمان، ج ١ ، ص ٢٦٣.
- زابوروف، ص ٧٤.
(٣) زابوروف، ص ٧٤.
- رنسيمان، ج ١ ص ٢٦٤.

المتدفّقة من الينابيع والجداول القريبة، أنه عائق كبير يجب أخذه، عسكرياً بعين الاعتبار. ويتم الدفاع عن نيقية بأسوار سميكة البنيان وبأبراج شامخة يصل عددها إلى الثلاثماية. فإذا سيطر البيزنطيون عليها أمّنوا الحماية للقسطنطينية من أية اعتداءات من جانب السلاجقة.(١)

أ - الصليبيون أمام أسوار نيقية من جديد:

كان السلطان السلجوقي، قلج ارسلان غائباً عن عاصمته، عند وصول الصليبيين إليها، إذ توجّه، كما قلنا سابقاً إلى الحدود الشرقية لينازع الأمير دانيشماند السيادة على «ملطية». والواقع أن السلطان السلجوقي لم يدرك ما يتهدّده من خطر من جهة الغرب، فلم يقدّر هذا الزحف المخيف نحو عاصمته. فانتصاره على جموع بطرس الناسك منذ أقل من سنة، تركه لا يعي خطورة الموقف المستجد.(٢) وقد حرص جواسيسه في القسطنطينية على إرضائه لذلك كانوا يبالغون في أخبار النزاع بين القادة الصليبيين والإمبراطور البيزنطي. وكان السلطان يعتقد أن الحملة سوف لا تتوغّل مطلقاً حتى نيقية. فقد رحل إلى «ملطية» مطمئناً، تاركاً زوجته وأولاده وأمواله داخل أسوار عاصمته. لقد بلغته الأنباء الأولى عن حشود صليبية كبيرة كانت قد قطعت البوسفور، فلم يعرها الاهتمام الكافي فردّة فعله كانت، إرسال بعض فصائل الخيالة لتعزيز حامية العاصمة، وأن عودته إلى نيقية منوطة بالانتهاء من قضية دانيشماند.(٣)

وفي الأيام الأولى من أيار ١٠٩٧، جاءته أخبار احتشاد قوات الصليبيين التي غادرت بيليكان ونيقوميديا، واقتربت في ٦ أيار من نيقية وشرعت بإلقاء الحصار عليها.(٤) وكان

---

(١) زابوروف، ص ٧٤.

- وليم، ج ٢، ص ٢٣٠.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٢٦٤.

(٣) Maalouf, P. 24.

(٤) زابوروف، ص ٧٤.

من المستحيل نقل جيش السلطان في الاتجاه المعاكس من ملطية إلى نيقية في وقت قصير. ومع ذلك، وقّع قلج ارسلان الصلح بسرعة مع الأمير حسن دانيشماند وأسرع إلى الغرب.(١)

سدّت قوات القائد الصليبي «غودفروا دي بويون»، منافذ نيقيا من الشمال، وسدّت قوات القائدين تنكريد وبوهيموند، منافذ المدينة من الشرق، وسدّ كونت تولوز، الذي وصل في ١٦ أيار مع رجاله من بروفانس في فرنسا، منافذ المدينة من الجنوب. لم يكن تطويق نيقية كاملاً، فقد بقي قسمها الجنوبي الغربي حراً، ومن هنا كانت تمتدّ البحيرة إلى المدينة، «وعلى الماء لم يكن ثمة شيء يقطع الطريق إليها».(٢)

على الرغم من ضخامة الحامية السلجوقية المرابطة في نيقية، فانها كانت بحاجة إلى المؤن والامدادات، لذلك انفذوا رسلاً إلى السلطان يطلبون منه التقدّم إلى المدينة بقواته من الأبواب الجنوبية إلتي كانت خالية من الصليبيين حتى ذلك التاريخ. لكن أحد الرسل وقع في أيدي الفرنج واعترف بمهمته ورسالته، عندها تقدّمت قوات ريمون دي سان جيل التي وصلت في ١٦ أيار، وسدّت الثغرة أمام السور الجنوبي.(٣)

قام السلطان، الذي كان يعرف أن عاصمته كانت تقاسي من محن الحصار الشديد، بإرسال اثنين من أتباعه المقرّبين لمواساة سكان المدينة ورفع معنوياتهم وتشجيعهم على المزيد من المقاومة، وكان من المقدّر وصول هذين الرجلين إلى العاصمة على متن قارب عبر البحيرة، وبحوزتهما رسالة فيها عبارات التشجيع(٤) والوعد بأن السلطان يرابط مع قوّة كبيرة من الرجال النبلاء والأقوياء في المنطقة المجاورة، وهو بانتظار أن تلتحق به أعداد أكبر في وقت لاحق، وسيشن على الفور هجوماً مفاجئاً

---

(١) زابوروف، ص ٧٤.

(٢) زابوروف، ص ٧٤.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٢٦٦.

(٤) وليم، ج ٢، ص ٢٢١ – ٢٢٢.

على معسكر الأعداء. وطلب من الأهالي مساعدته عندما يهاجم من الخارج وأن يفتحوا له ولقواته أبواب المدينة. وقد ذكّر الناس كيف انتصر سابقاً وبسهولة على حشد الصليبيين القوي. «فقتلنا منهم أكثر من خمسين ألفاً في يوم واحد... لا تخافوا ستلقون مساعدة كبيرة في الغد، وقبل الساعة السابعة من النهار... وسيتم تحريركم من العدو».[1] ألقى الصليبيون القبض على أحد الرسولين وعلموا بخطة السلطان.

ب - وصول الجيش السلجوقي إلى مشارف نيقية - المعركة (أيار ١٠٩٧):

في ٢١ أيار وصل السلطان السلجوقي مع قواته إلى مشارف المدينة. وكان معه مجموعة كبيرة من الفرسان قدّر عددها «بخمسين ألف رجل».[2] فانحدر في حوالي الساعة الثالثة من الجبال المحيطة بنيقية، ودخل السهل في طريقه إلى المدينة، تماماً كما كان الأسير السلجوقي قد صرّح من قبل إلى الأعداء.[2]

أرسل السلطان قوّة مؤلّفةً من عشرة آلاف كطليعة وأسرع نحو المدخل الجنوبي، حيث كان يتوقّع أن يجده غير محمي. لكن آماله تبدّدت، فالقوات الصليبية المتمركزة هناك كانت أكثر من أية بقعة أخرى حول المدينة.[2] في هذه الأثناء انتقل الامبراطور البيزنطي إلى مدينة بليكانوم القريبة، كي يتمكّن من الاتصال بقائد قواته بوتوميتس، الموجود مع الصليبيين هناك. لم تتمكّن طليعة السلاجقة من «زحزحة» الصليبيين عن مراكزهم فانسحبت بعد مناوشة فاشلة مع قوات ريموند التي سدّت الثغرة هناك.[3] بعدها راح الصليبيون يترقّبون الجيش السلجوقي الرئيسي بقيادة السلطان، الذي أخذ يقترب من المدينة. أصدر الامبراطور البيزنطي التعليمات إلى قائده بوتوميتس، بالاتصال بالحامية المحاصرة داخل نيقية. ولما

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٢٣٢.

(٢) وليم، المرجع السابق، ص ٢٣٣.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٢٦٧.

تبيّن للحامية ما حدث من التراجع عن إنقاذها، طلب قادتها إلى بوتوميتس النفاذ إلى داخل المدينة، بعد أن بذلوا له الأمان، ليتناقشوا في أمر التسليم. فقبل الطلب، غير أن الأنباء لم تلبث أن تردّدت بأن السلطان أضحى قريباً منهم، فتوقّفت المفاوضات.(١)

وصل السلطان بالعظيم من جيشه من جهة الجنوب، وشنّ هجوماً كبيراً وعنيفاً على الصليبيين، محاولاً أن يشقّ له طريقاً، ينفذ منه إلى داخل المدينة. ودارت رحى القتال، واستمرّت المعركة يوماً بكامله. ولحقت خسائر كبيرة بالصليبيين، قدّرت بحوالى ثلاثة آلاف قتيل، وخسائر أكبر بالسلجوقيين الذين لم يتمكّنوا من أن يشقوا لهم طريقاً، مما اضطرّهم إلي التراجع والانكفاء. ولما أقبل الليل سحب السلطان قواته إلى الجبال وترك المدينة للقدر. وأبلغ حاميتها وأهلها بأن يتصرّفوا مستقبلاً كما يرونه مناسباً.(٢) فالسلطان كان يعلم أن مصدر قوّته يكمن في هؤلاء المقاتلين الذين يطيعونه ويُقتلون في سبيله وليس في الاحتفاظ والسيطرة على مدينة نيقية، بالرغم مما كانت تعني له من محبة وعاطفة ونوستلجيا. ولم يطل الوقت حتى اختار مدينة قونية كعاصمة جديدة لسلطنته.(٣) لقد تعرّض الصليبيون لخسائر فادحة في الأرواح، إذ قتل عدد كبير منهم، من بينهم بلدوين، كونت غنت، ومعظم من عاش من المشتركين في القتال أصابته الجراح. وبغية إضعاف معنويات الحامية والأهالي، لجأ الصليبيون إلى قطع رؤوس عدد كبير من القتلى، وقذفوا بها من فوق الأسوار، أو رفعوها على أسنّة الحراب، لاستعراضها أمام أبواب المدينة.(٤) بعد ذلك شدّد الصليبيون الحصار، غير أن أسوار

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٢٦٧.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٢٦٧.

- وليم، ج ٢، ص ٧٤.

(٣) Maalouf, P. 26.

(٤) رنسيمان، ج ١، ص ٢٦٨.

- زابوروف، ص ٧٤.

المدينة كانت رهيبة واستحكاماتها قوية وأبراجها منيعة وكانت الحامية تصمد بصلابة وقد تلقّت مدداً عبر البحيرة. ولم تنجح محاولات الفرنجة في نقب أحد الأبراج الواقعة في الجنوب وإشعال النيران بها. فهذا الضرر البسيط، أصلحه ليلاً رجال الحامية.(١)

عادت المفاوضات بين رجال الحامية والبيزنطيين من جديد وفي هذه الأثناء استطاع الصليبيون وبكثير من الكدّ والجد إلى إحداث ثغرة بواسطة أدواتهم الحديدية، وكانت هذه الثغرة كبيرة بشكل كافٍ تتسع لرجلين بسهولة. وقد أقام سكان المدينة الاستعدادات لمقاومة جهود الصليبيين بكلّ قوّة، فقد واجهوا الخدعة بالخدعة، والقوة بالقوة، وأظهروا شجاعة لم تكن أقل من شجاعة أعدائهم، وناضلوا كرجل واحد بالقسي وآلات المنجنيق وأدوات القذف الحربية، وكلّ سلاح يمكن تخيّله لصدّ الصليبيين، واجتناب الخسائر الموجّهة لهم.(٢) وقد ألحقوا الأذى الكبير والموت والجروح بالفرنجة من فوق الأسوار والأبراج وقد تمكّنوا من تدمير الكثير من آلات الصليبيين، باستثناء المواقع التي تمّت مراقبتها بحذر.(٢)

كانت السلطانة ابنة الأمير جكا حاكم أزمير، زوجة السلطان قد تحمّلت حتى هذا الحين مشقّات الحصار، أما الآن فقد أصابها الذعر الشديد بسبب انهيار البرج الكبير وفتح الثغرة، فغادرت المدينة، تحيط بها جواريها وأسرتها، بقصد البحث عن مكان أكثر أمناً وطمأنينة، بواسطة سفينة في البحيرة. لكن الصليبيين ألقوا القبض عليها واقتادوها مع ولديها إلى قيادة المعسكر كأسيرة سلجوقية.(٢) أصاب سكان المدينة حالة من الذعر بسبب الثغرة التي فتحها العدو، ولأسر امرأة ذات أهمية بالغة، وخامرتهم الشكوك حول مدى قوتهم، فطلبوا من القائد البيزنطي

---

(١) رنسيمان، مماثل، ص ٢٦٩.
- وليم، ج ٢، ص ٢٣٥.
- زابوروف، ص ٧٥.

(٢) وليم، ٢ج ، ص ٢٣٨.

أثناء المفاوضات منحهم هدنة بغرض الإعداد للاستسلام له، حذراً مما اشتهر عن الصليبيين من الوحشية والفظاعة.(١)

وأخيراً في ١٩ حزيران ١٠٩٧، شنّ الصليبيون هجوماً مشتركاً عاماً. وكانت قد انضمّت إلى الفرسان قوات بيزنطية بقيادة بوتوميتس وانتهت للمعركة بصورة لم يكن يتوقّعها الصليبيون أنفسهم. ففي أوج الهجوم، عندما أخذ الفرسان يتسلّقون الأسوار، سمح للوحدات البيزنطية، لما فيه دهشة المهاجمين، بدخول المدينة، وفي الحال سدّت الأبواب أمام الصليبيين. وعلى أبراج نيقية، خفقت الرايات البيزنطية و«حيا» القائد البيزنطي «الملك بأصوات الأبواق والاصوار».

لقد وافقت قيادة الحامية السلجوقية على تسليم المدينة للبيزنطيين. ناهيك بأن القادة المذكورين كانوا قد تلقّوا تعليمات مناسبة من السلطان قلج ارسلان.(١)

لقد خابت آمال الصليبيين بالاستيلاد على نيقية والحصول على فدية من النبلاء السلاجقة، غير أنهم رأوا هؤلاء السلاجقة عائلة قلج ارسلان والأعيان منهم، ينقلون مع أمتعتهم ومعداتهم تحت حراسة شديدة إلى القسطنطينية أو إلى حيث كان الإمبراطور ينزل في بليكانوم. وأنه سرعان ما أطلق الإمبراطور سراحهم للالتحاق بالسلطان السلجوقي في قونية. مقابل هذا العمل واستياء الفرنجة وتعويضاً على الخسائر التي لحقت بهم، أعطاهم الإمبراطور الكمية الكبيرة من الفضة والذهب التي استولى عليها البيزنطيون من خزينة لسلطان، والفضة هذه والذهب ذهبت إلى الفرسان أما المشاة فقد أعطوا المأكولات وحسب.(٢)

---

(١) زابوروف، ص ٧٥.
- وليم، ج ٢، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.
- الأمين حسن، غارات على بلاد الشام، ط ١، دار قتيبة، بيروت، عام ٢٠٠٠، ص ١٤٠ - ١٤١.
- ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤.

(٢) زابوروف، ص ٧٥ -٦٧.
- وليم، ج ٢، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

لـقـد صـدمت الصـلـيـبيين، مـعـامـلـة الإمبراطور للأسرى السلجوقيين. إذ سمح لموظّفي القصر السلطاني والقادة بافتداء أنفسهم. أما السلطانة، فجرى استقبالها في حفاوة بالغة في القسطنطينية، وكان لا بدّ أن تبقى هناك حتى تصلها رسالة من زوجها، عن الموضع الذي تلحقه به دون فدية. وكان الإمبراطور، كما تقول ابنته آناكومينا، كان قد وعد السلطانة بالحرية وبالهدايا السخية كإغراء للاستسلام.(١)

بعد استسلام نيقية، طلب الامبراطور من الفرسان الصليبيين الذين لم يكونوا بعد قد أقسموا يمين الولاء له، أن يحلفوا اليمين وهكذا حصل.(١)

ج - النتائج المترتّبة عن احتلال نيقية:

لقد كانت معركة نيقية في تاريخ الحروب الصليبية، المعركة الوحيدة التي انتهت وفقاً لخطط بيزنطية. واستغلالاً للنصر، حاول الإمبراطور الكسيوس أن يعزّز سلطته قبل كلّ شيء في الأراضي المجاورة لعاصمته. وبقدر ما كان الصليبيون يتوغّلون في الشرق وبقدر ما كانت الأوساط الحاكمة في الامبراطورية تفكّر أقل فأقل في تقديم العون للصليبيين، بقدر ما كانت تتقلّص إمكانيات تحقيق خطط الإمبراطور الواسعة المرتبطة بالحملة الصليبية.

بعد الاستيلاء على نيقية، سحب قسم كبير من قوات الروم المسلّحة إلى القسطنطينية؛ ووراء ستار الصليبيين المندفعين إلى الأمام، شرع الكسيوس يستعيد الأراضي البيزنطية على الساحل الغربي والساحل الشمالي الغربي من آسيا الصغرى ومن بينها في المقام الأول مقاطعة أزمير.

د - الاستنتاجات العسكرية:

وقعت معركة نيقية الثانية بعد ثمانية أشهر تقريباً من المعركة الأولى الذي انتصر

(١) وليم، ج٢، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.
- رنسيمان، ج ١، ص ٢٧٣.

فيها السلطان السلجوقي انتصاراً باهراً كاسحاً على الصليبيين الذين أحاطوا بعاصمته. وقد أسكره هذا الانتصار ولم يقدّر أن موجة ثانية من هؤلاء الفرنجة في طريقها إلى بلاده لكنها كانت مختلفة عن مثيلتها السابقة. فالصليبيون الجدد كانوا موحّدي الكلمة والقيادة، بحوزتهم من جهة، المعدات والعتاد اللازمين لحصار القلاع والأبراج، ومن جهة أخرى العدد الكبير والمزرّد من الخيالة المجربين والشجعان.

لقد حشد الصليبيون قواتهم أمام أسوار نيقية وصارت هذه القوات تعمل على أنها كتلة واحدة متراصّة، على الرغم من أنه لم يكن لها وقتذاك قائد عام، فكان الأمراء قادة الوحدات يصدرون الأوامر والقرارات بعد اجتماعهم في هيئة مجلس قيادة. ولم يقع بينهم حتى وقتذاك اختلاف خطير. وهكذا أمّنوا وحدة القيادة في المكان والزمان.

لقد استفاد الصليبيون من اعترافات الساعي الذي أرسله السلطان والذي وقع أسيراً بين أيديهم، فأسرعوا وسدّوا الثغرة الجنوبية وقد علموا بتوقيت الهجوم فحققوا بذلك المفاجأة التي أضرّت بقوات قلج ارسلان وكانت وبالاً عليه. كذلك لم يكن السلاجقة أنداداً أقوياء لفرسان الفرنجة المزوّدين بأحسن الأسلحة ومعدّات الحصار.

أما من جهة السلطان السلجوقي فقد دفع ثمن أخطائه، لأنه لم يكن يدري في ذهنه أن عاصمته، كانت في موقع استراتيجي مهم جداً، تهدّد سائر الطرق التي تخترق هضبة الأناضول وتمنع تقدّم الصليبيين، فيما لو أحسن الدفاع عنها بقوات كافية وباحتياط يهاجم عند الضرورة من خارج الأسوار والأبراج. كما وأنه لم يدرك ما كان يتهدّده من خطر محتّم من جهة الغرب، فلم يقدّر هذا الزحف المخيف نحو عاصمته. وقد أسكره الانتصار على مجموعة بطرس الناسك قبل ٧ أشهر، هذه المجموعة التي كانت تفتقر إلى العتاد والأسلحة والتخطيط والانضباط ووحدة القيادة ناهيك عن الفقر المدقع ومعدات الحصار الثقيلة.

لم ينتبه السلطان ولم يحلّل تقارير جواسيسه المبالغ فيها عن اختلاف الصليبيين والامبراطور البيزنطي، لذلك رحل مع جيشه مطمئناً إلى ملطيّة لمنازعة حسن دانيشمند على امتلاكها وضمّها إلى سلطنته.

عندما علم السلطان بتقدّم الصليبيين نحو عاصمته، كان عليه أن يعود بسرعة إلى نيقية للدفاع عنها من الداخل ومن الخارج قبل وصول أعدائه إليها، فالسهول المحيطة بها وكذلك الجبال والغابات والبساتين، كانت لصالح قواته في نصب الكمائن والمهاجمات الردية المعاكسة من خارج الأسوار. كذلك لم يخزّن السلطان المؤن كاحتياط لا بدّ منه في مثل هذه الحالات.

لقد وقع قلج ارسلان في الخطأ عندما هاجم أعداءه في الجنوب، مقدراً انهم في المكان الأضعف وأنه سيستغل عنصر المفاجأة، لكن الأمور عاكسته وتفاجأ هو ودفع الثمن. وخسر العدد الكبير من طليعة فرسانه الشجعان المحنّكين المجربين.

لم يتمكّن السلطان من المحافظة على سرّ توقيت الهجوم على القوات الصليبية المحيطة بالعاصمة، فانتظره هؤلاء في المكان والزمان المحتملين لوصوله وأنزلوا به خسائر فادحة اضطرته إلى التراجع وترك عاصمته وأهلها بما فيهم السلطانة زوجته وأولاده وأسرته، بيد القدر.

إنما ما فعله قادة الحامية السلجوقيون، من جهة المفاوضات مع البيزنطيين والاستسلام لهم وليس للفرنجة، مكّنهم من البقاء على قيد الحياة والعودة إلى القتال مع سلطانهم في عاصمته الجديدة قونيا.

ومهما يكن من أمر، فالسلطان السلجوقي سوف يخوض، وفي القريب العاجل، معركة جديدة شرسة في قونيا مع هؤلاء الغزاة الذين سيجتاحون هضبة الأناضول بكاملها عما قريب.

٢٣ - معركة دوريليوم (أول تموز ١٠٩٧):

«لن تمضي خمسة أسابيع، حتى نكون في بيت المقدس، ما لم نضطر للتوقّف عند انطاكية» هذا ما كتبه أحد قادة الصليبيين ستيفن بلوا، متفائلاً، إلى زوجته في فرنسا. نعم لقد اشتدّ حرص الفرسان على مواصلة الرحيل باتجاه فلسطين ومدينة القدس بالضبط.(١)

تقع مدينة دوريليوم على مسافة ميلين من الشمال الشرقي لمدينة «اسكي شهر» الحالية

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٢٧٥.

في تركيا. وقد وقعت المعركة في سهل ساري سو القريب منها كما يقول المؤرّخ ستيڤن رنسيمان الذي زار الموقع بنفسه.(١)

أ - محاور تقدّم الصليبيين عبر آسيا الصغرى:

سواء استسلمت نيقية للصليبيين أو للبيزنطيين، فقد كان النصر نصراً صليبياً، شدّ من عزائمهم وقوّى نفوسهم وحفّزهم على السير قدماً إلى الأرض المقدّسة التي ينشدون.

حالما تمّ رفع الحصار عن نيقية، أمر القادة بمواصلة الزحف اعتباراً من السادس والعشرين من شهر حزيران ١٠٩٧؛ فاتخذوا الطريق البيزنطي الرئيسي المعروف قديماً، والذي يجتاز آسيا الصغرى. فالطريق الممتد من خلقيدونية ونيقوميدية، يلتقي بالطريق القادم من Helenopolis ونيقية وعند شاطىء نهر صنغاري. ولم يلبث هذا الطريق، أن يبتعد عن النهر، ويسير صعداً في وادٍ فرعي يقع إلى الجنوب، ماراً بمدينة Biledjik الحالية، حتى يبلغ، بعد أن يجتاز أحد الدروب، دوريليوم، ومن هذا الموضع، يتفرّع إلى ثلاثة طرق: الأولى، تتجه شرقاً وتمرّ بأنقرة من جهة الجنوب، ويتفرّع منها طريقان: واحدة تتجه نحو أرمينيا والثانية نحو قيصرية مازكا ومنها يخترق جبال طوروس الأمامية حيث توجد طرق عديدة تؤدي إلى وادي الفرات وطريق ثانية تؤدي إلى قيليقيا. والثانية، الممتدّة من دوريليوم نحو الصحراء المالحة الكبرى الواقعة في وسط آسيا الصغرى، جنوبي بحيرة «تاتا»، من عمورية إلى دروب قليقيا. أما الطريق الثالثة، فهي محازية للحافة الجنوبية للصحراء المالحة، وتمتدّ من فيلومليوم، وهي اقشسيهير الحالية، إلى قونية وهرقلة ودروب قيليقيا. وهناك طريق فرعية تمتدّ من قرب فيلومليوم، وتنتهي عند البحر المتوسّط في انطاكيا، وتسير طريق أخرى من قونية إلى البحر المتوسّط عند سلوقية.(٢)

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٢٨١.

(٢) -- Ramsay, W.M. The Historial Geography of Asia Minor. Royal Geographical Society, suplementary Papers, vol. IV. London 1890, P. 74 - 82.

- رنسيمان، ج ٢، ص ٢٧٦.

ب - المعركة:

وأياً كان الطريق الذي لا بدّ للقوات الصليبية أن تأخذه، كان لزاماً عليهم أن يصلوا أول الأمر إلى دوريليوم. ففي ٢٦ حزيران، أي بعد مضي أسبوع على سقوط نيقية، اتجه الصليبيون من نيقية في جيشين، أحدهما اثر الآخر على مسافة يوم واحد تقريباً من السير نحو الجنوب الشرقي. وصحب الصليبيين سرية من القوات البيزنطية بقيادة تاتيكيوس المعروف بخبرته وتجربته. وصل الجيشان واجتمعت قيادتهما عند الجسر الذي يقع على النهر الأزرق، عند المكان الذي يأخذ فيه الطريق في الافتراق عن نهر صنغاري ويسير صعداً في الهضبة. عقد الأمراء الصليبيون مجلساً قيادياً، عند الجسر في قرية لويكي، درسوا فيه عملية التقدّم.(١)

تألّف الجيش الأول من نورمان جنوب إيطاليا وشمالي فرنسا، وجنود كونت فلاندر، وستيفن بلوا، فضلاً عن البيزنطيين الذي أمدّوهم بالادلاّء. أما الجيش الثاني فتألّف من جنود جنوب فرنسا واللورين وجنود كونت فرماندوا. تولّى قيادة الجيش الأول بوهمند وقيادة الجيش الثاني ريمون دي سنجيل. انطلق الجيش الأول على طريق دوزيليوم.(٢)

بعد سقوط عاصمته نيقية، انسحب السلطان قلج ارسلان، صوب الشرق ليحشد من جديد قوات سلجوقية. فعقد صلحاً وتحالفاً مع الأمير حسن دانيشمند وأمير قبادوكيا لمواجهة هذا الخطر الجديد. إذ أن سقوط نيقية زاد من خوفه وقلقه، كما أن ضياع أمواله وكنوزه بها كان أمراً بالغ السوء. ويقول ابن القلانسي، أن السلطان جنّد العدد الكبير من السلاجقة الأتراك وأعلن الجهاد وطلب من الشباب الالتحاق بجيشه، وقد لبّى نداءه هذا الكثير من الناس.(٢)

---

(١) الأمين، ص ١٤٢.

(٢) Maalouf, P. 29.

- رنسيمان، ج ١، ٢٧٧.

- زابوروف، ص ٧٧.

- Smith. P. 43.

فوصل الأمير حسن ومعه الآلاف من الفرسان إلى معسكر السلطان ووضع نفسه بتصرّفه كتابع له وكان ذلك في ٣٠ حزيران ١٠٩٧.

ركّز السلطان السلجوقي معسكره في وادٍ قرب دوريليوم وفي الهضاب المشرفة عليها، مستعداً لمهاجمة الصليبيين عند قدومهم لاجتياز الوادي المذكور.[١]

في مساء ذلك اليوم، عسكر الجيش الصليبي الأول في سهل ليس بعيداً عن دوريليوم. وعند فجر الأول من تموز، اندفع السلجوقيون من جانب التلال المجاورة التي كانوا قد تموضعوا فيها أثناء الليل، نحو الوحدات الأمامية الصليبية التي يقودها بوهيموند، ولم يلبثوا أن طوّقوا معسكر الصليبيين وبادر الرماة بالانطلاق إلى الخط الأمامي، فيقذفون بسهامهم، ثمّ يبادرون إلى العودة إلى الوراء كي يفسحوا المجال لغيرهم للتقدّم إلى الأمام ورمي السهام من جديد.

ونادراً ما نجا رجل من صفوف الصليبيين من دون ان يصاب بجراح، «ولم يكد الوابل الأول ينقطع حتى تبعه وابل آخر من السهام كان مؤثراً إلى درجة انه آذى كلّ من كان قد نجا بالصدفة من الهجوم الأول. وهذا النوع من القتال لم يكن يألفه الصليبيون من قبل، وبدا من الصعب احتماله لأنه كان غريباً عنهم»، فقد شاهد الفرنجة خيولهم تقتل أمام أعينهم وهم عاجزون عن مساعدتها. فالمفاجأة كانت تامة.[٢] هاجم الصليبيون السلاجقة بالسيف والرمح محاولين صدهم، ففتح هؤلاء صفوفهم عمداً لتجنّب الاصطدام، «وحيث لم يجد الصليبيون أحداً يقاومهم كان عليهم التراجع مخدوعين، وما أن عاد الصليبيون إلى صفوفهم، حتى ضمّ الأتراك صفوفهم إلى بعضها من جديد، وأطلقوا أيضاً وابلاً من السهام، قلّما نجا أحد من الفرنجة دون أن يصاب من جرائها بجروح خطيرة».[٣] ومنذ

---

(١) زابوروف، ص ٧٧.

(٢) وليم، ج ٢، ص ٢٤٧.

- رنسيمان، ج ١، ص ٢٧٩.

(٣) وليم، ج ٢، ص ٢٤٧.

الصباح أرسل بوهيمند رسولاً إلى الجيش الصليبي الثاني، يحثّه للسير بسرعة لمؤازرة قواته.

بدأ الضعف ينتاب صفوف الفرنجة، وقد هاجمهم السلاجقة حينئذٍ بالسيف من مواقع قريبة، وتخلّوا في الوقت نفسه عن استخدام القوس، وتشتت صفوف قواتهم في النهاية وحاولوا الفرار لكنهم لم يتمكّنوا من ذلك نظراً للطوق الدقيق المنصوب حول معسكرهم.

في ظلّ هذه الظروف المأساوية، بدأت قوّة بوهيموند تخور ثمّ تنهار. وفجأة وصل الجيش الثاني، وكان عديده حوالي أربعين ألفاً من الفرسان مسلّحين تسليحاً ممتازاً.(١) الأمر الذي قلب مقاييس المعركة رأساً على عقب. وهكذا صار التفوّق في العدد إلى جانب الفرنجة واستطاعوا أن يزحزحوا السلاجقة عن مراكزهم. وتبيّن أن السلاجقة الواثقين في الهجوم لم يكونوا مستعدّين للدفاع، والراجح أن مؤنهم أخذت في النفاذ. ولم يلبث تردّدهم أن تحوّل إلى ذعر، عند ظهور ادهيمر اسقف لي بويه، في سرية من فرسان جنوب فرنسا، على التلال الواقعة وراءهم. وقد دبّر ادهيمر هذه الخطة، التي دعته إلى الانفصال عن الجيش الرئيسي، واتخذ ادلاء يرشدونه في الممرات الجبلية. وما حدث من تدخّله، أمّن النصر للصليبيين، فتحطّمت صفوف السلاجقة ولاذوا بالفرار إلى الشرق، تاركين معسكرهم فوقع في أيدي الفرنجة سرادقات السلطان والأمراء، بما زخرت به من الثروة والغنيمة.(٢) لقد مني السلاجقة بهزيمة ماحقة، قرّرت من حيث جوهر الأمر، سير الحرب لاحقاً في آسيا الصغرى. وانفتحت طريق بلاد الشام أمام القوات الصليبية المتقدّمة. ومما لا شك فيه أن هذه الهزيمة ضمنت أمن وسلامة بيزنطية لأمد طويل.(٣)

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٢٤٧.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٢٧٩.

- زابوروف، ص ٧٧ – ٧٨.

(٣) زابوروف، ص ٧٨.

كان الانتصار الصليبي باهراً، لكن الكثير من قادتهم لقي مصرعه، أمثال وليم اخ تانكرد وهمفري صاحب مونتوسكابيوزو وروبرت كونت باريس. وتلقى الفرنجة دروساً بأن يولّوا السلاجقة ما يليق بهم من الاحترام. وقد اعتبر مؤرّخوهم أن السلاجقة كانوا من أعظم الناس في القتال والشجاعة.

بعد الهزيمة لجأ السلطان قلج ارسلان وجماعته إلى التلال، بعد أن نهبوا القرى والمدن التي كانوا ينزلون بها ثمّ هجروها، وخرّبوا البلدات، حتى يستحيل على الصليبيين أن يلتمسوا بها ما يقتاتون به عند تقدّمهم وزحفهم عبرها. فالقوى غير متكافئة لذلك سيلجأ السلاجقة إلى حرب الغريّة والعصابات.

وحين نستعرض البلاد السلجوقية، يومذاك، ونرى المدى المترامي الذي تشغله، والعدد الكبير من الناس الذين تحتويهم، نتعجّب للهوان الذي صارت إليه حتى لا تستطيع أن تجمع قوّة تصدّ هذا الجمع الصليبي المتدافع إليها، وهو نسبياً يمثّل القلّة أمام الكثرة.

لقد فقد السلاجقة حوالى ثلاثة آلاف من أشجع وأقوى الجنود، «من بينهم العدد الكبير من أعلى الرتب». وقد قتل من الصليبيين ما يقارب الخمسة آلاف. ويقول المؤرّخ وليم الصوري أن جيش السلطان قلج ارسلان تجاوز المئة والخمسين ألف فارس، والجيش الصليبي الخمسين ألف فارس... والله أعلم؟؟.(١) وبالنهاية نحن نشك بهذا العدد.

بعد هذه المعركة تمّ الاتفاق بين القادة الصليبيين على توحيد «الجيوش وأن تتقدّم من الآن وصاعداً مع بعضها كتلة واحدة متراصة متلازمة».(٢)

أعطيت القوات الصليبية استراحة قصيرة للاعتناء بالجرحى وبالخيول لمدّة ٣ أيام متتالية وسط المراعي الخضراء، أضف إلى هذا، أن وفرة المؤن وكثرتها، مع كميات الأطعمة التي كان السلاجقة قد أرغموا

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٢٤٩.

(٢) وليم، ج ٢، ص ٢٤٩.

على التخلّي عنها عندما فرّوا، قد أضافت الكثير لاستمتاع الجميع.(١)

٢٤ - القتال في كيليكيا:

بعد الانتهاء من معركة دوريليوم، استراح الجيش الصليبي في تلك المنطقة لمدّة يومين، كي يستردّ نشاطه ويرتّب قادته أمر المراحل التالية لخط السير. فالطريق الحربي المؤدي إلى الشرق، إنما يخترق الإقليم الذي يسيطر عليه الأمير حسن الدانيشمندي وأمراؤه الذين لم تتحطّم قوّتهم بعد. وقد بلغ الجيش الصليبي من ضخامة الحجم والبطء في المسير، ما يجعل من العسير عليه أن يجتاز الصحراء المالحة. فكان لزاماً عليه ان يتخذ الطريق الأكثر طولاً ويلائم سيرهم البطيء، لذلك أقرّ القادة بالتقدّم على الطريق المحاذي لمنحدرات الجبال الواقعة إلى الجنوب من هذه الصحراء.(٢) وهذا الطريق لا يصح الاطمئنان إليه، فإن المنطقة كانت مسرحاً لهجمات التركمان لمدّة عشرين سنة الأمر الذي نتج عنه تدمير القرى وخراب الحقول وفساد مياه الآبار وجفافها وتحطيم الجسور التي أصبحت دون صيانة. إلى جانب كلّ هذا، فلم يكن من العسير الحصول على الأخبار والمعلومات من أقوام متفرّقين أو سكان استبدّ بهم الخوف.(٣)

والجدير ذكره أن الصليبيين لم يسيروا في نزهة عسكرية فقد كلّفتهم المقاومة السلجوقية، التي اتخذت شكلاً من حرب الغرية (Guerilla) أو حرب العصابات، كثيراً من الخسائر البشرية والمادية نتيجة هجمات الفرسان السلاجقة السريعة من رماة السهام، التي كانت تشيع الرعب في أوصال الفرنجة. أما المناخ فكان عدوّهم الأكبر والرئيسي، لا سيما عندما كانوا يعانون من نقص في الطعام ونفاذ المياه.(٤)

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٢٤٩.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٢٨٢.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٢٨٢.

(٤) الأمين، ص ١٤٢.

- وليم، ج ٢، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

أ - الفرنجة يجتازون صحراء الأناضول:

في ٣ تموز ١٠٩٧، بدأ الجيش الصليبي سيره في جموع متصلة كي ما يتجنّب ما سبق أن تعرّض له من الخطر في دوريليوم. فشق طريقه نحو الجنوب الشرقي عبر هضبة الأناضول. فانحدر صدفة نحو منطقة جافة كانت خالية من المياه تماماً. فالحرارة شديدة وراح العطش يفتك بالناس وبدأت أعداد كبيرة منهم تنهار وقد مات أكثر من خمسمائة فرد من كلا الجنسين. وضعفت الأجساد بعدما أصابها الإجهاد وماتت الخيول وحيوانات النقل والجر. وعندما عثروا على المياه في نهر طالما بحثوا عنه، هرع الناس لإرواء ظمأهم منه بشوق متقد، وتنافسوا فيما بينهم في سرعتهم للوصول إليه، فوقعوا في خطر أشد أيضاً من الظمأ، لأنهم شربوا منه بدون ضابط، فواجهوا الموت الذي كانوا قد نجوا منه من قبل، بسبب وفرة الماء نفسه، لذلك مات الكثير منهم بهذه الطريقة وكذلك دواب التحميل.(١) ومن كتبت له الحياة لا تقتله شدّة. وأخيراً وصل الجيش إلى أرض خصبة ووفيرة الخيرات جداً قرب انطاكية الصغرى حاضرة «بيسيديا المشهورة»، فهي مليئة بالجداول والغابات والمراعي.

في منتصف آب، بلغ الصليبيون قونية، العاصمة الجديدة للسلطان قلج ارسلان، غير أنها صارت وقتئذٍ خالية من السكان ومهجورة، فقد هرب سلاجقتها إلى الجبال، بكلّ ما لديهم من منقولات وامتعة. فاستراح الفرنجة فيها أياماً وكانوا بأشد الحاجة إلى استرجاع نشاطهم وقوتهم. وبناء على نصيحة بعض السكان الأرمن، حمل العسكر معهم من الماء ما يكفيهم حتى يصلوا إلى وادي هرقلة وساروا في هذا الاتجاه.

لدى وصول الصليبيين إلى هرقلة، شاهدوا قوة من السلاجقة بقيادة الأمير حسن دانيشمند وأمير قبادوقيا، فبادروا بمهاجمتها، وكان يقود الفرنجة يومذاك بوهمند الذي سعى للالتقاء بالأمير الدانشمندي. ولم يشأ السلاجقة أن تنشب

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٢٥٠.

معركة حاسمة، فأسرعوا إلى الانسحاب نحو الشمال وتركوا المدن للصليبيين[1] بعدما خرّبوها بأسرها ونقلوا معهم القطعان والمواشي وجميع بقايا مقتنياتهم، وتمحورت آمالهم على إمكانية إسراع الصليبيين بعبور بلدهم بعدما تكون ندرة الأطعمة قد انهكتهم، وتحقق أملهم هذا، فقد ترك الصليبيون هذه المنطقة القاحلة وزحفوا قدماً إلى الأمام بكلّ سرعة ممكنة، فوصلوا إلى مرعش، ونصبوا معسكرهم هناك ومكثوا لمدّة ٣ أيام،[2] تمّت خلالها مناقشة اختيار محاور التقدّم التي ينبغي اتخاذها. فعلى مسافة قصيرة إلى الشرق، كان الطريق الرئيسي يخترق جبال طوروس المعروفة بأبواب قيليقيا ليصل إلى انطاكية مباشرة، لكنه شديد الوعورة والانحدار ومن المحتمل الوقوع في كمائن سلجوقية حتمية.

كانت قيليقية بأيدي السلاجقة ومناخها بالغ السوء، يضاف إلى ذلك ان الجيش المتوجّه إلى انطاكية، وجب عليه أن يجتاز جبال الامانوس - أبواب سوريا - ومنه إلى انطاكية.[3]

قرّر تانكرد وجماعته نورمان إيطاليا وبودران شقيق غودي فري دي بويون وجماعته الفلمنكيين وعسكر اللورين، على اتخاذ هذا الطريق وقرروا أن يفترقوا عن الجيش الرئيسي وان يعبروا إلى قليقية، لأن بقية القواد اختاروا الطريق المفتوح إلى قيصرية مازكا ومنه إلى الطريق البيزنطي العسكري الذي يؤدي إلى سهول انطاكية وهو يمرّ في بلدات وقرى مسيحية أرمنية ما زالت موالية للامبراطور البيزنطي.[4]

في العاشر من أيلول ١٠٩٧، اتخذ كلّ من تانكرد وبلدوين طريقاً مختلفاً عن باقي القوات الصليبية، للوصول إلى ممرات جبال طوروس، بينما تحرّك الجيش الرئيسي نحو قيصرية. وعند قرية اوغستابوليس، هاجمه الأمير حسن دانيشمند، فأنزل به الجيش

---

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٢٨٥.

(٢) وليم، ج ٢، ص ٢٥٣.

(٣) زابوروف، ص ٧٨ - ٧٩.

(٤) رانسيمان، ج ١، ص ٢٨٦.

الصليبي هزيمة أخرى دون أن يضيع وقته في الاستيلاء على قلعته، فتابع سيره واحتلّ عدّة قرى صغيرة سلّمها إلى أمير أرمني يدعى سمعان على أن يحكم باسم الإمبراطور. وصل الصليبيون إلى قيصرية في نهاية أيلول وقد هجرها السلاجقة. تابع الصليبيون تقدّمهم دون توقف حتى وصلوا إلى «كومانا»، وهي مدينة وافرة الغنى والرخاء، وكان قد حاصرها السلاجقة الدانشمنديون لكنّهم فكّوا الحصار وهربوا عندما علموا باقتراب الفرنجة منهم.(١) طاردهم بوهمند غير أنه لم يوفّق فعاد إلى قاعدته.

بعد كومانا تقدّم الفرنجة نحو جكسن (كوكسن) وأقاموا فيها ثلاثة أيام وحصلوا على كميات وافرة من المؤن ستساعدهم خلال سيرهم عبر الجبال. وفي هذه الأثناء تردّدت شائعة أن السلاجقة تخلّوا عن انطاكية، فأرسل ريمون دي سان جيل خمسماية فارس لاحتلالها وعندما وصلوا إلى قلعة للبيالصة، قرب نهر العاصي، علموا أن الإشاعة كاذبة، بل العكس هو الصحيح، إذ تدفّق إليها عدد كبير من السلاجقة.(٢) وأثناء عودتهم إلى جكسن، استولوا على بعض قلاع الأتراك بعد مناوشات متعدّدة. تابع الصليبيون تقدّمهم بصعوبة بالغة وظهروا آخر الأمر في الوادي الذي يحيط «بمرعش». وفي ١٥ تشرين الأول، غادر الجيش الرئيسي مرعش بعد أن جدّد نشاطه واستعاد قوّته، وتقدّم في سيره حتى هبط إلى سهل انطاكية. وفي العشرين من الشهر ذاته، وصل إلى الجسر الحديدي على مسير ثلاث ساعات من المدينة.

لقد مضى أربعة أشهر، منذ أن سارت الحملة الصليبية من نيقية. وقد شقّ الجيش الصليبي طريقه في أقاليم تكاد تكون جدباء، قاحلة، تحت حرارة الصيف اللاذعة، وقد تعرّض دائماً لمهاجمة عدو اشتهر بالعنف

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٢٨٧.
- زابوروف، ص ٧٩.
(٢) رنسيمان، مماثل، ص ٢٨٨.

وسرعة التنقّل والحركة. ولو لم يقم البيزنطيون بإرشاد الصليبيين لما استطاع هؤلاء أن يشقوا طريقهم عبر آسيا الصغرى.[١]

ب - السيطرة على كيليكيا:

كان حرص بودوان وتانكرد أن يقيم كلّ منهما إمارة في الشرق، لأنهما كانا ينتميان إلى فرعين صغيرين من أسرة حاكمة، وليس لهما أمل أو مستقبل في وطنيهما في أوروبا.

ففي ١٥ أيلول ١٠٩٧، غادر تانكرد المعسكر الصليبي عند هرقلة على رأس قوّة مؤلّفة من مئة فارس ومئتين من المشاة، واتخذ طريقه إلى أبواب كيليكيا. ولم يلبث أن سار وراءه بودوان وبعض القادة الثانويين من الفرنجة وكان بمعيته خمسمائة فارس وألفان من المشاة، لكنه سار على درب لا تبعد كثيراً عن مسار تانكرد ولكنها بالنتيجة بتوصله إلى كيليكيا لكنها كانت أطول من الأولى.[١]

فور وصوله إلى سهل كيليكيا، توجّه تانكرد فوراً إلى مدينة طرسوس، وكانت أهم المدن في المنطقة، وكان فيها حامية عسكرية من السلاجقة، التي بادرت بالهجوم على الصليبيين لطردهم، غير أنها تعرّضت لهزيمة شديدة، فتراجعت إلى معاقلها داخل أسوار المدينة، فلاحقها تانكرد غير انها ظلّت صامدة تقاوم بشراسة إلى أن وصل بودوان، بعد ٣ أيام فتبيّن لها أن العدو يفوقها عدداً، فانتظر السلاجقة هبوط الليل ففرّوا من طرسوس في جنح الظلام. وفي الصباح دخل الصليبيون إليها، واختلف الأميران لمن تكون السلطة فيها. وقد تمكّن بودوان من السيطرة وانسحب تانكراد بجيشه وتوجّه شرقاً نحو ادنه.[٢]

ولم يكد بودوان يستولي على طرسوس حتى وصل إلى المدينة ثلاثماية من الصليبيين النورمان، من الجيش الرئيسي لمساندة تانكرد. فرفض بودوان السماح لهم بالدخول إليها، وبينما كانوا يعسكرون خارج الأسوار، هاجمتهم أثناء الليل الحامية السلاجوقية التي كانت لا تزال ترابط في المدينة، فلقي هؤلاء مصرعهم عن آخرهم.[٢]

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٢٩٠.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٢٩٨.

وصل تانكرد إلى ادنه، فلقيها في حالة من الفوضى والاضطراب إذ تعرّضت إلى غزوة من قبل قوّة من الصليبيين. وعندما وصل تانكرد انسحب السلاجقة من قلعتها وفروا إلى خارج المدينة. تابع تانكرد سيره إلى المصيصة في أول تشرين الأول وعند ظهوره ولّى السلاجقة الادبار مثلما حدث في ادنة. فدخل المدينة ولما صار فيها، قدم إليها بودوان، لكنه تركها وسار شرقاً ليلحق بالجيش الرئيسي عند مرعش بعدما منعه تانكرد من الدخول إليها.(١)

بعد رحيل بودوان، ترك تانكرد حامية صغيرة في المصيصة وتوجّه جنوباً فطاف حول خليج أسوس حتى بلغ الاسكندرونة، فهاجمها واحتلّها وترك فيها حامية عسكرية، ثمّ عبر جبال الامانوس، مخترقاً أبواب الشام لينضم إلى الجيش الصليبي أمام مدينة انطاكية بعدما اجتاح كامل كيليكيا واستولى على جميع معاقل السلاجقة حيثما وجدها وأحرقها عن بكرة أبيها، وقتل كلّ من كان فيها. وبعد اقتحامه الاسكندرونة أصبحت المنطقة بأسرها تحت سيطرته.(٢) وعندما وصلت الأنباء إلى الحكام السلاجقة الذين كانوا يقيمون في الجبال، سيطر الرعب عليهم وخشية من أن يصعد تانكرد إلى الجبال لمقاتلتهم ويخضع مدنهم ويستعبد شعوبهم، فأسرعوا بتنافس وتلهّف إلى إرسال الرسل إليه، حاملين الهدايا من الذهب والفضة والخيول والبغال والأقمشة الحريرية، علّهم يحصلوا على معاهدات صداقة معه.(٣)

٢٥ - معركة سميساط (شباط ١٠٩٨):

الواقع أن مغامرة كيليكيا لم يستفد منها بودوان وتانكرد سواء إذا أدرك كلّ منهما أنه لا جدوى في إقامة إمارة بها. فالحاميات الصغيرة التي تركها الصليبيون في مدن

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٠٠.
(٢) وليم، ج ٢، ص ٢٦١.
- رنسيمان، ج ١، ص ٣٠٢.
(٣) وليم، مماثل، ص ٢٦٢.

كيليكيا الثلاث: طرسوس وادنه والمصيصة، ليس بوسعها أن تقاوم أي هجوم كبير وخطير من قبل السلجوقيين. ومع ذلك، فإن تفرّق الحاميات التركية وبعثرتها، كان له بعض الأهمية للحملة الصليبية بصفة عامة، إذ منعتها من استخدام كيليكيا كقاعدة، يشن منها السلاجقة هجوماً على جناح الفرنجة، أثناء مهاجمة انطاكية، على حين أن الاستيلاء على الاسكندرونة، أعطى الصليبيين ميناءًا عظيم النفع فيما يخصّ المؤن والمعدات. كما أن تداعي سلطة السلجوقيين في السهل، مكّن الصليبيين لأن يتوغّلوا في بطء في مدنه وقراه، ولأن ينشئوا في كيليكيا مملكة أرمينيا الصغرى.

في أوائل الشتاء سنة ١٠٩٧، أتمّ بودوان فتح البلاد حتى نهر الفرات بأن استولى على حصنين، هما راندوان وتل باشر، وكان الحصن الأول يتحكّم في الطرق المؤدية إلى انطاكية. أما الحصن الثاني، فترجع أهميته إلى قربه من قرقميش عبر نهر الفرات.(١) وقد استطاع بودوان السيطرة على هذه المنطقة بواسطة قوّة مؤلّفة من مائتي فارس وعدد غير قليل من المشاة، وأصبح اسمه يبعث الرعب الشديد في الريف المحيط بتلك المنطقة، وفي أكثر الأحيان، كان السلاجقة يتخلّون عن حصونهم طواعية ويلوزون بالفرار دون أن يطاردهم أحد.(٢) عندها أرسل المسؤولون عن مدينة الرها وشيوخ المدينة وحكامها «سفارة إلى القائد الصليبي هذا، يدعونه بإخلاص عظيم شفوياً وكتابة للقدوم إليهم وقد وافق على ذلك وأعدّ العدّة للزحف، وعبّر نهر الفرات بصحبة ثمانين فارساً فقط، بينما ترك بقية أتباعه لحراسة الحصون والقلاع والمدن القائمة على جانب النهر».(٢)

أ - مهاجمة سميساط وسروج:

في مستهل شباط ١٠٩٨، غادر بودوان تل باشر، قاصداً الرها. نصب له سلاجقة

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٢) وليم، ج ٢، ص ٢٦٤.

سميساط كميناً في المكان الذي توقّعوا أنه سيعبر نهر الفرات عنده، والراجح انه حدث ذلك عند البيرة. غير أنه اكتنف الكمين واجتاز النهر خلسة من مخاضة تقع إلى الشمال من البيرة. فوصل الرها في ٦ شباط. وجرى استقباله بحماسة منقطعة النظير. ولمّا استقرّ بودوان في الرها أدرك أن من أول واجباته، أن يدمّر الإمارة السلجوقية في سميساط التي كان بإمكانها قطع مواصلاته مع الغرب. وقد كان أميرها «بلق» أو بلدوق أقرب الأعداء إلى الرها وأشدّهم مراساً. فقد كان في أغلب الأحيان يقوم بالإغارة على حقول وقطعان أهالي المدينة وينتزع الجزية منهم بالقوة وينزل العديد من المحن بالسكان ويحتجز أبناء الأهالي كرهائن ويعاملهم كعبيد. وكانت سميساط مشهورة بتحصيناتها القوية.(١)

سار جيش الرها بقيادة بودوان لمهاجمة سميساط واستمرّت الحملة من ١٤ شباط إلى ٢٠ منه، لكنها لم تحرز شيئاً من النجاح. فعسكر الرها كانت تنقصه الشجاعة والتدرين لذلك فاجأهم السلاجقة، فلقي مصرعه منهم «ألف مقاتل» وعندئذ انسحب الجيش. غير أن بودوان استولى على قرية سانجان وقام بتحصينها، وهي قريبة من عاصمة الأمير «بلق» وترك فيها القسم الأكبر من فرسانه للاشراف على تحرّكات السلاجقة، فقلّ عدد هجمات هؤلاء لأن بودوان أصدر أوامره بمواصلة الحرب كي لا يفسح لأهالي سميساط بأية استراحة.

اعتلى بودوان عرش إمارة الرها ولقّب بكونت الرها وانفرد بالحكم، وطوّع في جيشه عدداً كبيراً من الأرمن، لأن عدد الصليبيين كان قليلاً. وقد اكتشف في قلعة الرها أموالاً وفيرة، يرجع تاريخ معظمها إلى زمن البيزنطيين. وهذه الأموال ساعدته على الحصول على التأييد والمساندة وكانت له أداة حاسمة في الدبلوماسية.(٣)

وصلت الأخبار إلى أمير سميساط، بلق باعتلاء بودوان عرش الرها، فخاف من هذا

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٠٧.
(٢) وليم، ج ٢، ص ٢٦٨.
(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٣١١.

الحدث، خاصة لما علم ورأى الاستعدادات القائمة لتوجيه هجوم جديد على عاصمة ملكه، فأرسل فوراً إلى الرها يعرض بيع إمارته مقابل عشرة آلاف دينار، فقبل الكونت العرض لأنه لا يمكن أن يأخذها بسبب تحصيناتها ودخل المدينة منتصراً معززاً.(١) فعثر في القلعة على عدد من الرهائن فحررهم ثمّ أرسل يدعو بلق للقدوم إلى الرها، واتخاذها مقراً له ولحرسه، على أن يكونوا من المرتزقة عند كونت الرها بودوان.(٢)

وعلى مقربة من الرها وفي المنطقة نفسها كانت توجد مدينة «سروج» يسكنها السلاجقة وعلى رأسهم حاكم يدعى بالاس وكان يضايق مدينة الرها باستمرار وينزل المظالم الكبيرة بأهلها. وكانت سروج سابقاً تتبع للأمير بلق، غير أنها خرجت على طاعته، عندها كتب بلق إلى بودوان، يطلب منه أن يفيد من خدماته لإخضاع المدينة. وافق الكونت على هذا الاقتراح، لكن سكان سروج بعثوا سراً إلى بلق يطلبون إليه القدوم لإنقاذهم. فتسلّل بلق وعسكره إليها، غير أن بودوان سار في أعقابه، وقد جلب معه أدوات الحصار. خاف بلق وأهالي المدينة منه وبادر السكان إلى أن يعرضوا على بودوان التنازل له عنها وأن يؤدوا له الجزية. وخفّ بلق للقائه معلناً له «أنه لم يبادر بالقدوم إلى سروج إلاّ لاحتلالها باسمه». لم ينخدع الكونت بأقواله فقبض عليه وقطع له رأسه.(٣)

بعد سروج استولى بودوان على البيرة، بمخاضتها على نهر الفرات وأصبحت الطريق سالكة وآمنة بين الرها وتل باشر وراوندان. واتصلت قوات الكونت بالحملة الصليبية الرئيسية.(٤)

(١) وليم، ج ٢، ص ٢٦٩.
(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٣١١.
(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٣١٣ - ٣١٤.
(٤) رنسيمان، مماثل، ص ٣١٥.
- وليم، ج ٢، ص ٢٧٠.

لقد قرّر السلاجقة تدمير إمارة الرها. ففي أيار ١٠٩٨، توقّف القائد السلجوقي كربوقا عند الرها أثناء مسيره لنجدة انطاكية، ولم يتخلّ عن الهجوم إلاّ بعد أن ظلّ ٣ أسابيع يهاجم أسوارها دون جدوى.[١] وأدى فشل كربوقا إلى ارتفاع مكانة كونت الرها بودوان وهيبته.

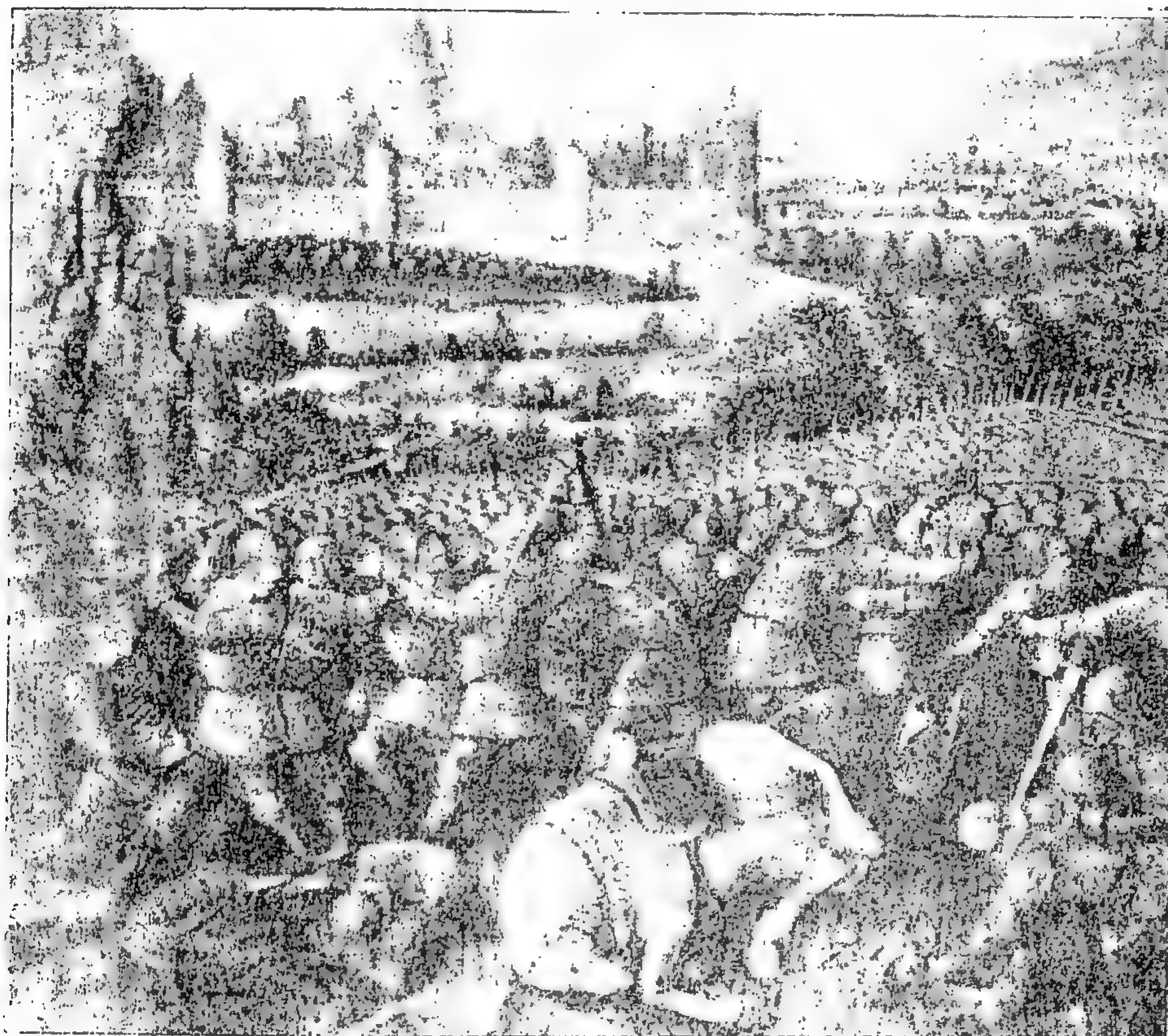
ويقول المؤرّخون إن ما أضاعه كربوقا من وقت أنقذ الحملة الصليبية التي كانت تحاصر انطاكية.[٢]

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣١٥.
- وليم، ج ٢، ص ٢٧٠.
(٢) رنسيمان، مماثل، ص ٢١٥.

بلاد الشام زمن الحَملة الصليبية الأولى



لوحة من القرن الخامس عشر تمثّل الحملة الصليبية الأولى



الفصل السابع

السلجوقيون يقاتلون الفرنجة أمام أسوار انطاكية. سقوط المدينة بيد الصليبيين (١٠٩٨)

١ - محاصرة مدينة انطاكية والاستيلاء عليها (٣ حزيران ١٠٩٨):

أ - انطاكية في الجغرافيا والتاريخ:

تقع انطاكية على نهر العاصي، على مسافة حوالى العشرين كيلومتراً من البحر. أنشأها سنة ٣٠٠ ق.م.، سيلوقوس الأول ملك سوريا وأطلق عليها إسم أبيه انطيوخوس. وقد بنى حول المدينة سوراً عالياً جداً وأبراجاً وأمر أن تدعى «انطاكية اشتقاقاً من الاسم نفسه. ثمّ جعلها عاصمة لملكته.[١] وكانت أعظم مدينة في آسيا. وفي زمن الرومان كانت تعتبر ثالثة مدن العالم. وكان لها عند المسيحيين قداسة خاصة، لأنهم اتخذوا بها لأول مرة اسم «المسيحيين». وبها أقام القديس بطرس أول أسقفية له. أصابتها الزلازل في القرن السادس الميلادي ونهبت على أيدي الفرس وأصابها التدهور والتداعي بعد الفتح العربي، مما أفاد مدينة حلب. وفي القرن العاشر، وعلى أيام البيزنطيين أضحت ملتقى تجارة المسلمين والبيزنطيين وصارت أمنع حصن على الطرف السوري.[١]

في السنة ١٠٨٥ استولى عليها سليمان بن قتلمش. ثمّ انتقلت بعد وفاته إلى ابنه ملك شاه الذي عيّن الأمير ياغي سيان التركماني حاكماً عليها. وظلّ ياغي سيان يحكمها لمدّة عشر سنوات. بعد موت ملك شاه، خضع ياغي سيان إلى

(١) وليم، ج ٢، ص ٢٧٤.

رضوان أمير حلب، لكنه كان دائماً يتوق ويحرص على الاستقلال الفعلي لإمارته.(١) فلجأ إلى سياسة الإيقاع بين رضوان ومنافسيه من السلاجقة: دقاق أمير دمشق وكربوقا أمير الموصل. ففي السنة ١٠٩٦، غدر ياغي سيان برضوان أثناء القتال مع دقاق، الذي اعتبره وقتذاك سيّده الأعلى، على أن ما بذله من المساعدة لم يتمكّن بها دقاق من الاستيلاء على حلب، ولم يغفر له أميرها رضوان، هذا الذنب.(٢)

أما جغرافياً، كانت انطاكية الموصولة بالبحر، عبر خليج القديس سمعان، بمدن الساحل الميناتية الأخرى، تضطلع من قديم الزمان بدور كبير، كما قلنا سابقاً، في تجارة الشرق. ولهذا كان الاستيلاء عليها بالنسبة للصليبيين أمراً مغرياً جداً. ولكن كان الدفاع عن المدينة - القلعة من الداخل أسهل من أخذها من الخارج. وانطاكية كانت عبارة عن قلعة طبيعية: ففي الجنوب الغربي، كانت تحميها الجبال، وفي الشمال الغربي كان يحميها نهر العاصي والمستنقعات، وفي الغرب كان يحميها البحر. وفي عهد الإمبراطور يوستينيان (القرن السادس)، بنوا حول المدينة، في الأنحاء المستنقعية وفي السفوح الجبلية، أسواراً منيعة. وفي القرن العاشر عزّز البيزنطيون الأسوار أكثر من ذي قبل: «فقد بلغت سماكة السور عرضاً يتسع في أعلاه لأربعة أحصنة. وبنى في الأسوار ٤٥٠ برجاً على مسافات منفصلة ومتساوية ومهيأة للدفاع بشكل جيّد. وفي القسم الجنوبي الشرقي من انطاكية، في أعلى منطقة فيها، على سفح جبل سيلبيوس، كانت تقع قلعة داخلية عزّزها السلجوقيون بإتقان ومتانة.(٣) والجدير ذكره أن العوائق الطبيعية وكذلك الأسوار والأبراج، كانت تجعلها عسيرة المنال، رغم أن حامية ياغي سيان لم تكن كبيرة. وكان نهر العاصي يجري قريباً جداً من الأسوار والجبل بحيث أن الجسر

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣١٩ - ٣٢٠.
- Maalouf, P 32.
(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٣٢٠.
(٣) زابوروف، ص ٨٥.

الـذي يـجـتـازه يشـكّـل اسـتـمـراراً لـلسـور ومدخلاً للمدينة، وذلك في ناحية الغرب من الجزء السفلي.[1]

ب - إنطاكية تستعدّ للقتال:

في ٢١ تشـريـن الأول ١٠٩٧، وصـلت قـوات الصـليـبيين الـرئيسية إلى مشارف انطـاكـيـة. وقبـل هـذا الـتاريخ وفي فصل الصيـف وصلت أنباء إلى ياغي سيان أن جيشاً صليبياً ضخماً يقترب من مدينته، فبعث برسائل متوالية مكتوبة وشفهية إلى جميع أمراء الشرق السلجوقيين، طالباً العون والمساعدة قبل كلّ شيء من الخليفة في بغداد ومن سلطان الموصل كربوقا، أقوى سلطان سلجوقي في الشرق. ولم يكن من الصعب عليه إقناعهم بخططه. ومن جهة أخرى كان الأمير يخشى من ثورة المسيحيين داخل انطاكية، لذلك قرّر طردهم.[2]

ويقول المؤرّخ العربي ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ»، واصفاً هذا الحدث، بعد أكثر من قرن على بداية الحملة الصليبية، وعلى ذمّة شهود عيان ما يلي:[3]

«في اليوم الأول، أمر ياغي سيان المسلمين للخروج لتنظيف الحفر المحيطة بالمدينة. وفي اليوم التالي، ولأجل المهمّة نفسها، لم يرسل إلا المسيحيين. وقد أجبرهم على العمل حتى المساء، وعندما أرادوا الدخول منعهم من ذلك قائلاً: «انطاكية مدينتكم ولكم ويجب عليكم الاصطبار حتى أنهي مشكلتنا مع الفرنجة». وعندما قالوا له: «من يحمي أولادنا ونساءنا؟ فأجابهم الأمير: أنا الذي سأهتم بهم». وفعلاً قد حمى الأمير عائلات هؤلاء ولم يسمح على الإطلاق بأن تمس شعرة من رؤوسهم.

وعنـدما اقتربت الحمـلة الصـليـبية من المدينة، شرع الأمير في اتخاذ تدابير مشدّدة:

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٢٠.

(٢) Maalouf, P. 33.

- وليم، ج ٢، ص ٢٧٩.

- رنسيمان، ج ١، ص ٣٢٠.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٤.

فألقى البطريرك في السجن وطرد عدداً كبيراً من الزعماء المسيحيين، ولاذ آخرون بالفرار، وتعرّضت كاتدرائية القديس بطرس للتخريب، وتحوّلت إلى إسطبل لخيول الأمير. وما فعله ياغي سيان كان ليفعله أي قائد في مكانه. كان الأمير يخاف من مؤامرة تحاك داخل انطاكية ضدّه، فالصليبيون لا يستطيعون الاستيلاء على مدينته نظراً لقوّة وصلابة جهازها الدفاعي، كما وأن الحصار لا يمكنه أن يؤثّر على السكان والقوات العسكرية في الداخل نظراً لما تحتويه عنابر انطاكية من المؤن والأرزاق.(١)

كان عديد حامية الأمير في انطاكية يقدّر بحوالى سبعة آلاف فارس ما عدا المشاة، بينما كان عديد الصليبيين حوالى الثلاثين ألف بين فارس وراجل وبحوزتهم معدات ثقيلة للحصار.(٢)

كان الأمير يشرف شخصياً على تقسيم حصص المواد الغذائية الأساسية وهي: القمح والزيت والعسل، ويقوم بعملية تفتيش يومية على التحصينات ويعاقب بشدّة كلّ إهمال يلاحظه. هذه الإجراءات المتخذة يمكنها أن تساعد في ضبط الحالة العامة داخل المدينة وفي أسوارها حتى وصول التعزيزات والنجدات التي التمسها من أمراء وسلاطين السلاجقة في المشرق... ولكن في أي وقت ستصل هذه؟؟

ومما يجدر الإشارة إليه، أن الأمير كان قلقاً منذ صيف تلك السنة من وصول الفرنجة إلى عاصمته، لذلك قام بتجنيد العسكر فجمعهم من الأقاليم والمدن المجاورة، وجمع المؤن والأرزاق والأسلحة، وشجّع الأهالي بحماسة متقدة لجلب مواد تصنيع الآلات الحربية المتنوّعة من حديد وفولاذ وكافة المواد المفيدة الأخرى في مثل هذه الحالات. وسلامة انطاكية ألهبت حماسة السكان، فطافوا بالمنطقة المجاورة بأسرها، وسلبوا الريف المحيط، وعادوا منه ومعهم الحبوب والخمر والزيت وجميع مستلزمات الحياة الأخرى، وساقوا القطعان والمواشي، وهكذا حصّنوا

(١) Maalouf, P. 34.

(٢) رنسيمان، ج١، ص ٣٢٣.

موقعهم بحكمة عظيمة وبعمل كبير ضدّ مخاطر الجيش الصليبي الذي أصبح على أبواب انطاكية التي بدا أن تحصيناتها وقوّتها لا تقهر. وقد التجأ إليها كلّ الذين فرّوا أمام تقدّم الفرنجة. فازداد عدد السكان كثيراً، فقد قيل إنه وجد فيها من ستة إلى سبعة آلاف من الفرسان وأكثر من خمسة عشر ألفاً إلى عشرين ألفاً من المشاة المسلّحين للقتال، بما في ذلك كلّ سكان المدينة والقوات الاحتياطية المجموعة.(١)

رغم التماس ياغي سيان حلفاءه السلاجقة بمساعدته، فأمير حلب رضوان، لم يقدّم له المساندة، انتقاماً لما بدر منه من خيانة في السنة الماضية. أما الأمير دقاق، حاكم دمشق، الذي توجّه إليه شمس الدولة ابن ياغي سيان، يطلب النجدة، فأعدّ حملة قوية لإنقاذه.(٢)

ونهض للمساعدة طغتكين السلجوقي أتابك دمشق، وجناح الدولة أمير حمص. وكان السلطان كربوقا، أتابك الموصل، يعتبر آنذاك أهم الأمراء في أعالي الجزيرة وبرّ الشام، قد أدرك ما يهدّد العالم الإسلامي كلّه من وصول الفرنجة النصارى إلى الشرق، وإلى جانب ذلك كان كربوقا يتطلّع، منذ زمن بعيد، إلى الاستيلاء على حلب: وإذا استولى على انطاكية، تمّ له تطويق الأمير رضوان وصار في متناول يده. لذا أعدّ جيشاً كبيراً لنجدة انطاكية، وكان يسانده سلطانا فارس وبغداد اللذين وعدا بالمساعدة.(٣)

وصل الصليبيون إلى أراضي ياغي سيان، بعد أن دخلوا مدينة المعرّة الصغيرة، فولّت الحامية السلجوقية الأدبار عند اقترابهم كما وانهم استولوا على مدينة ارتاح، عندما أجهز السكان النصارى على حاميتها. وفي ٢٠

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٢٨٠.
- Maalouf, P. 34.
(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٣٢٣.
(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٣٢٣.
- زابوروف، ص ٨٨.
- Maalouf, P. 38.

تشرين الأول، بلغ الجيش الصليبي الرئيسي نهر العاصي، عند الجسر الحديدي، حيث التقى الطريقان القادمان من مرعش وحلب. وقد اشتهر الجسر بشدّة مناعته وقوّة استحكاماته، وإذا ارتفع على جانبي مدخله برجان متينان، فبادر الصليبيون إلى مهاجمته وبعد قتال مرير شقوا طريقهم عبر النهر، واستولوا على قافلة من الماشية والأغنام والقمح كانت في طريقها إلى تموين حامية انطاكية. وفي اليوم التالي وصلت مقدّمة الجيش الصليبي إلى أسوار المدينة وبعده الجيش كلّه.(١)

ج - إلقاء الحصار على انطاكية:

عندما أطلّ الجيش الصليبي على انطاكية، اشتدّ خوف قادته حين شاهدوا المدينة الضخمة وأسوارها العالية والمتينة وأبراجها العديدة وتحصيناتها المتماسكة.(٢)

كان في القسم الواقع في السهل من انطاكية، خمسة أبواب، وقد قام في القسم العلوي في الشرق، باب القديس بولس، وقام الباب الثاني باب القديس جورج أو الباب الشرقي في مقابل الباب الأول مباشرة ويفصله عنه طول المدينة بكاملها. وتقع ثلاثة أبواب في الناحية الشمالية وجميعها مفتوحة نحو النهر، ويعرف الباب العلوي بينها باسم باب «الكلب» حيث يقع أمامه جسر يمتدّ عبر المستنقع، وهو متصل مع السور. أما الباب الثاني فهو باب «الدوق». أما الباب الثالث فهو باب الجسر الذي يتمّ عبور النهر بواسطته.

اتخذ الصليبيون مواقعهم خارج الأسوار، عند الطرف الشمالي الغربي منها. فاحتلّ بوهيمند القطاع المواجه لباب القديس بولس وريمون القطاع المواجه لباب الكلب وعن يمينه، ركّز جودفري قواته تجاه باب الدوق. أما القوات الباقية فاتخذت مراكزها وراء بوهيمند كاحتياط لصالح الجبهة بكاملها.

اقترح بوهيمند مهاجمة انطاكية في الحال، إلاّ ان اقتراحه المحفوف بالمخاطر، لم يلق

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٢٤.
- زابوروف، ص ٨٥ - ٨٦.

(٢) انظر خريطة انطاكية المشهدية المرفقة.

الدعم من جانب القادة الآخرين، فقد كانوا يخشون الخسائر في الأرواح، وفضلوا انتظار التعزيزات: إذ سرت شائعات عن قرب وصول فصائل جديدة من الصليبيين من الغرب المسيحي.

فإذا لم يكن بوسع الصليبيين أن يطوّقوا المدينة بكاملها، فإن ياغي سيان من جانبه، لم يتوافر له القوات الكافية لحماية أسوارها، فلم يخاطر بالتضحية بأحد من جنوده إلاّ بعد أن قدمت الإمدادات، فلم يحاول مهاجمة الصليبيين حينما تحرّكوا لاتخاذ مواضع لهم، وظلّ أسبوعين لا يحاول أن يتعرّض لهم بأذى.(١)

لقد اقترف الصليبيون الكثير من الهفوات والأخطاء العسكرية. فمن الجنوب لم يسدّوا البتة مداخل المدينة ومخارجها. وبالنتيجة منيوا بعدّة إخفاقات. وكان رجال ياغي سيان يخرجون من المدينة ويغيرون على المحاصرين ويثبطون معنوياتهم، لذلك بنى الصليبيون على مقربة من باب الحديد وغير بعيد عن سور القلعة برجاً هو برج «مالريفار».(٢)

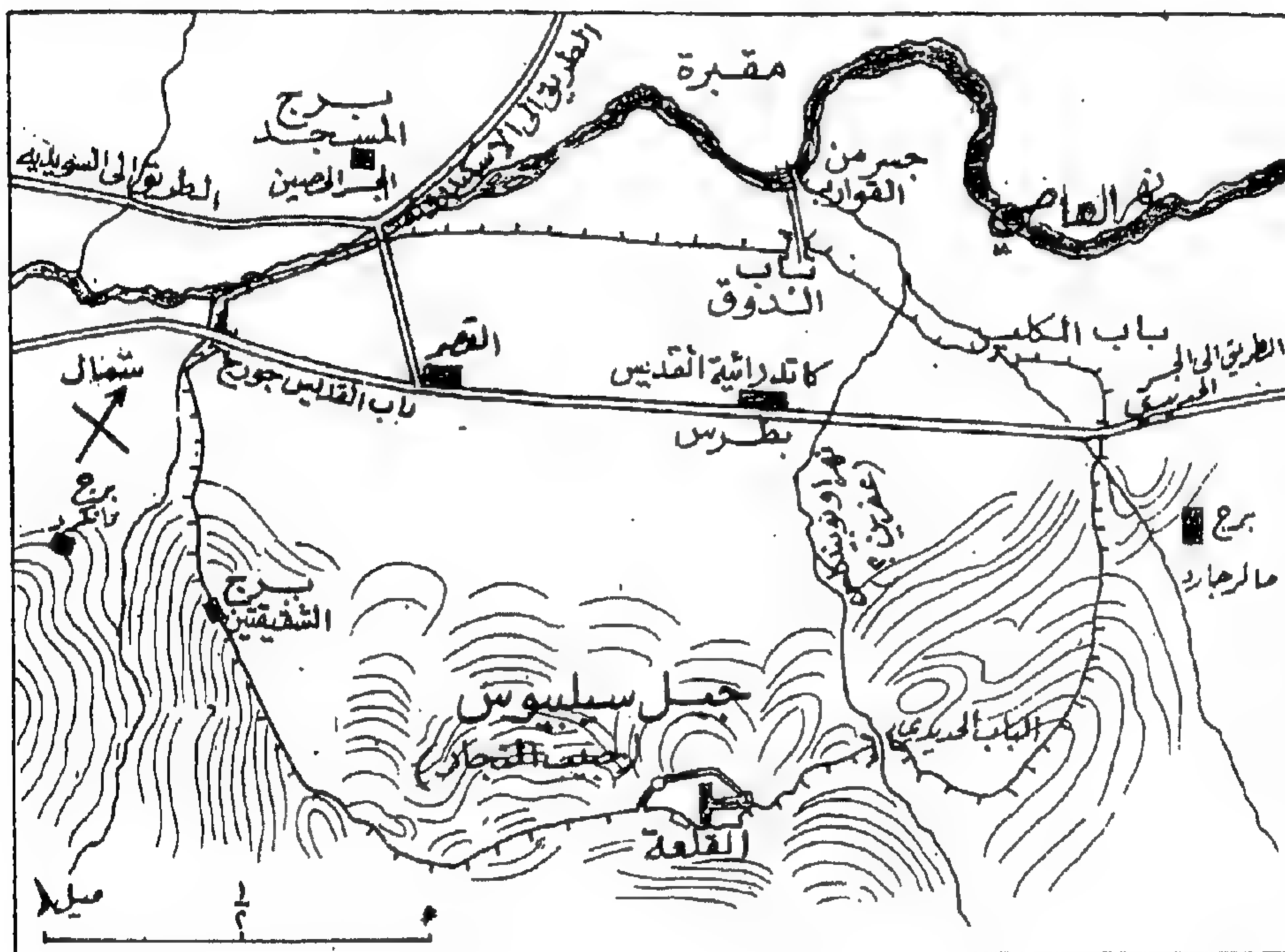
لقد توقّع ياغي سيان من الصليبيين هجوماً مباشراً على انطاكية، غير أنه ما من أحد من القادة، سوى ريموند، نصح القيام بهذا العمل. لقد انتظروا من الامبراطور البيزنطي أن يبادر بالقدوم «بأدوات الحصار الضخمة». لقد تردّد القادة بالهجوم لأن كلّ منهم كان يطمح أن يكون أمير انطاكية وأن يمتلكها والإنفراد بها. لقد ضاعت الفرصة الوحيدة للتعجيل بالاستيلاء على المدينة،(٣) لأنه لو أن الهجوم الأول صادف نجاحاً، فما استطاع ياغي سيان، الذي اشتهر بسرعة تأثّره، أن يقاوم طويلاً، غير ان الأرجاء والتمهّل أعاد الثقة إلى نفسه.(٣)

د - السلاجقة يهاجمون الصليبيين خارج المدينة:

اضطرّ الصليبيون في معسكرهم للقيام برحلات متكرّرة عبر النهر، وغالباً ما غامروا

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٢٦.
(٢) زابوروف، ص ٨٧.
(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٣٢٧.

انطاكية



مقبرة
برج
المسجد
الطريق الى السويدية
جسر من
القوارب
نهر العاصي
باب
الدوق
القصر
كاتدرائية القديس
بطرس
باب الكلب
شمال
باب القديس جورج
برج
الشقيقتين
جبل سلبيوس
الباب الحديدي
القلعة
ميل

إلى مسافة بعيدة جداً، وذلك بغية تدبير العلف إلى خيولهم والمؤن الضرورية لأنفسهم. حتى أنهم راحوا يعبرون النهر عدّة مرات في اليوم الواحد، ولم يكن يجرؤ أحد من المحاصرين داخل المدينة التجوّل خارجها أو اعتراض هؤلاء.[١] ولم يطل الوقت حتى راح أهالي انطاكية يصطادون الصليبيين ويقتلون ويجرحون العديد منهم، لذلك ولتفادي هذه الحالة، أقاموا جسراً من القوارب بعد ربطها بعضها ببعض ووضعوا فوقها ألواحاً خشبية حتى أصبح جسراً متيناً وكبيراً بشكل كاف لاستيعاب عدّة أشخاص يعبرون جنباً إلى جنب في وقت واحد.[٢] وقد ساعد هذا الجسر على التصدي لخِدَع الانطاكيين بسهولة أكثر، ومكّن الصليبيين من العودة إلى المعسكر بعناء أقل، وقد كان طريقاً مناسباً وآمناً للمشاة عندما يتمّ استدعاؤهم لمهمات ضرورية وخاصة إلى الساحل.[٣]

إلى جانب الأخطار التي كانت تأتي من منطقة الجسر، تعرّض الصليبيون إلى أخطار متعدّدة. من باب الكلب حيث كان يوجد جسر حجري امتدّ فوق مستنقع ينتشر في المدينة. فقد شنّ السلجوقيون عبره، هجمات ليلية متكرّرة واغارات نهارية مفاجئة أيضاً على معسكر دوق طولوز، ذلك أنه كان قد عُيّن لحراسة ذلك الباب، وقد اعتاد السلاجقة فتح هذا الباب على مصراعيه، وقذف وابل مفاجىء من السهام على الصليبيين، وكانت نتيجة هذه الهجمات، مقتل العديد من رجال الدوق أو جرحهم. وقد اعتمد السلاجقة كثيراً على هذا النوع من الإغارات، حيث كان بإمكانهم الفرار فوق الجسر إلى داخل المدينة بعد إنجاز الإغارة ولا يستطيع الصليبيون اللحاق بهم على الطريق ذاته. لقد خسر الصليبيون العدد الكبير من الرجال والبغال والخيول في هذه الناحية، أكثر مما خسروه في باقي الجهات.[٤]

(١) وليم، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٢) انظر الخريطة المشهدية المرفقة.

(٣) وليم، ج ٢، ص ٢٨٤.

(٤) وليم، ج ٢، ص ٢٨٤.

وفي أحد الأيام، غادر حوالى ثلاثمائة من المقاتلين الفرنجة معسكرهم إلى ما وراء الجسر، للنهب وللبحث عن العلف والمؤن الضرورية، كما جرت العادة يومياً. ولم يطل الوقت حتى فتح السلاجقة الباب واندفعوا فجأة بأعداد كبيرة وعبروا الجسر الحجري، وركضوا بسرعة وانقضوا على الصليبيين هؤلاء الذين كانوا يتجوّلون دونما حذر متوجّب، وهاجموهم على حين غرّة، وقتلوا عدداً كبيراً منهم ولاذ الباقون بالفرار باتجاه جسر القوارب بقصد بلوغ المعسكر، لكن الجسر كان مكتظاً في ذلك الحين بالذين كانوا قد وصلوا لتوّهم. وقد حاول العديد منهم العبور عن طريق المخاضة، لكنهم غرقوا ولاقوا حتفهم. وقد غرق عدد كبير منهم لأن الحشود الكثيفة كانت قد دفعتهم من على الجسر، فغاصوا في قعر النهر فابتلعتهم المياه إلى الأبد.(١) وعندما وصلت أنباء هذه الكارثة إلي المعسكر، اندفع الآلاف من الفرسان إلى السلاح وعبروا النهر وقابلوا السلاجقة العائدين من الإغارة وطاردوهم حتى باب المدينة منزلين بهم الكثير من الأذى والخسائر.(١) عند ذلك فتح السلاجقة الباب واندفعوا بأعداد كبيرة عبر الجسر الحجري، «وبشجاعة مدهشة لمد يد العون لزملائهم، وهاجموا الصليبيين بشراسة وطاردوهم حتى جسر القوارب فقتلوا منهم عدداً كبير بحد السيف وغرق عدد كبير أيضاً في النهر من هول الصدمة، وازدحم الفرسان أيضاً مع بعضهم فوق الجسر عندما كانوا يهربون من السلاجقة الذين يطاردوهم، إلى درجة انهم سقطوا في النهر.(٢)

لقد حاول الصليبيون هدم هذا الجسر لكنهم لم يفلحوا لأن السلاجقة كانوا يقذفونهم بالمقذوفات الحجرية والسهام، لذلك قرروا أن ينشئوا «آلة حرب» مقابل هذا الجسر وأن يضعوا حراسة دائمة ومتواصلة، مهمتها صدّ هجمات السلاجقة الذين واصلوا الهجوم برماية الحجار ضد الموجودين داخل آلة الحرب وحولها في محاولة جادة لإبعادهم عن الجسر ولو لمسافة

(١) وليم، ج ٢، ص ٢٨٧.

(٢) وليم، ج ٢، ص ٢٨٥.

قصيرة. بعدها فتحوا الباب على مصراعيه وانقضوا بهجوم عنيف وصاعق واستولوا على الجسر بالقوة واندفعوا شاهرين سيوفهم وشقّوا طريقهم بقتال محكم إلى آلة الحرب، فطردوا الخفراء بعدما قتلوا منهم من قتلوا، ثمّ أضرموا فيها النار فتحوّلت إلى رماد ثمّ عادوا إلى داخل المدينة.(١)

تجاه هذا الواقع شيّد الصليبيون، في اليوم التالي، ثلاث «آلات حرب»، وأملوا في أن ينجحوا بإضعاف الأسوار والباب على الأقل، لكنهم لم يحصلوا على النتيجة المتوخاة، فالهجمات تكاثرت والمقذوفات تعدّدت وكثر عدد الجرحى والقتلى من الصليبيين ودبّ الاضطراب في المعسكر، لذلك قرّر الصليبيون سدّ الباب نهائياً فدحرجوا صخوراً ضخمة وجذوع أشجار كبيرة ووضعوها أمام الباب، وقد أخفقت كافة محاولات السلاجقة بإزالتها، وانتهى الأمر بتوقّف أعمال الانقضاض المباغتة ضد الصليبيين.(٢)

هـ - الاستعلام في المعسكرين:

لم تكن معاناة الفرنجة من الحصار أقل من معاناة السلاجقة الموجودين داخل الأسوار. فالأولون لم يكونوا قادرين على إخفاء رحلاتهم القصيرة إلى الريف المجاور لجلب المؤن، عن سكان المدينة، الذين استخدموا بدورهم كافة الجهود لمنعهم، وكانت، في الوقت نفسه القوات السلجوقية الأخرى المختبئة في الغابات والحقول، تنصب المكائن للإيقاع بهم، وهي كمائن نجحت في معظم الأحيان. كما أن معسكر الفرنج لم يكن مكاناً آمناً، حيث استولى الذعر على الجميع واستبدّ بهم خشية أن تباغتهم القوّة الجبارة التي قيل إن السلاجقة كانوا يجنّدوها في مواقع عديدة.(٣)

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٢٨٥.

(٢) مماثل، ص ٢٨٦.

(٣) وليم، ج ٢، ص ٢٨٧.

- رنسيمان، ج١ ، ص ٣٢٧.

- زابوروف، ص ٨٦ - ٨٧.

لم يجد الفرنجة صعوبة في إيجاد العملاء الذين يتصلون عن طريقهم بالسلاجقة داخل انطاكية. فالمسيحيون الذين هربوا من المدينة أو أبعدوا قسراً، لا زالوا على اتصال وثيق بأقاربهم بداخل الأسوار، بفضل ما تخلّل صفوف المحاصرين والمدافعين من ثغرات. لقد تمكّن الفرنج من معرفة كلّ ما يحصل داخل المدينة، غير أن الطريقة هذه تعتبر ذات اتجاهين متعارضين، إذ أن عدداً كبيراً من المسيحيين المحليين، لاسيما السريان ساورهم الشك فيما إذا كان الحكم الفرنجي أو البيزنطي، سيكون أخف وطأة عليهم من حكم السلاجقة،[1] لذلك كانوا يؤدّون خدمة لياغي سيان، بأن ينقلوا إليه خبر كلّ ما يجري في معسكر الفرنجة؛ ومنه خبر أحجام الفرنجة عن مهاجمة المدينة، فشرع في إعداد هجمات عليهم، كما مرّ معنا. لقد اتصل ياغي سيان بالحامية المرابطة خارج انطاكية، عند «حارم»، عبر الجسر الحديدي على الطريق المؤدي إلى حلب، وشجّعها على أن تنزل الاضطراب والارتباك في صفوف الفرنج المتواجدين بمؤخّرة الجيش. وفي تلك الأثناء سمع ياغي سيان أن ابنه الموجود في دمشق، ظفر بالنجاح وأن جيشاً سلجوقياً للأمير دقاق نهض فعلاً لنجدته وهو في طريقه إلى انطاكية.[2]

و - الصدام بين دقاق أمير دمشق والفرنجة (كانون الأول ١٠٩٧):

قبل حلول نهاية السنة ١٠٩٧، أوشكت مؤن الجيش الفرنجي على النفاذ، ولم يعد في القرى المجاورة من المؤن ما يكفي، فقرّر قادة الفرنجة، إرسال قسم من جيشهم، بقيادة بوهمند وروبرت فلاندر، إلى منطقة حماه، عن طريق وادي العاصي، للإغارة على

(١) Maalouf, P. 38 - 39.
- رنسيمان، ج ١، ص ٣٢٧.
- Grousset, P. 37.
(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٣٢٨.
- زابوروف، ص ٨٨.

القرى المحيطة بها، وأن يحملوا كلّ ما تقع عليه أيديهم من المؤن. وفي ٢٨ كانون الأول غادرت المعسكر قوّة من الجيش، قدّر عديدها بحوالى ٢٠ ألف مقاتل، لكن ياغي سنان علم بهذا التحرّك المعادي، فانتظر حتى أوغلوا في السير، ثمّ قام في ليلة ٢٩ كانون الأول هجوم قوي على الجسر وانقضّ على الفرنجة الذين عسكروا شمالي النهر. كان الهجوم مفاجئاً ولم يكن متوقّعاً، لكن الفرنجة بادوا بحشد قوّة من الفرسان، وهاجموا رجال ياغي سيان أثناء الليل.(١) فارتدوا وولّوا الأدبار، مجتازين الجسر وقد لاحقوهم بشدّة وعنف. وحدثت فوضى ارتدّ على أثرها الفرنجة إلى الوراء فتعقّبهم السلاجقة حتى جسر السفن المقام على نهر العاصي، فعاد الترك إلى داخل المدينة. قتل الكثير من الرجال من الجانبين، غير أن خسارة فرسان الفرنج كانت بالغة الفداحة.(٢)

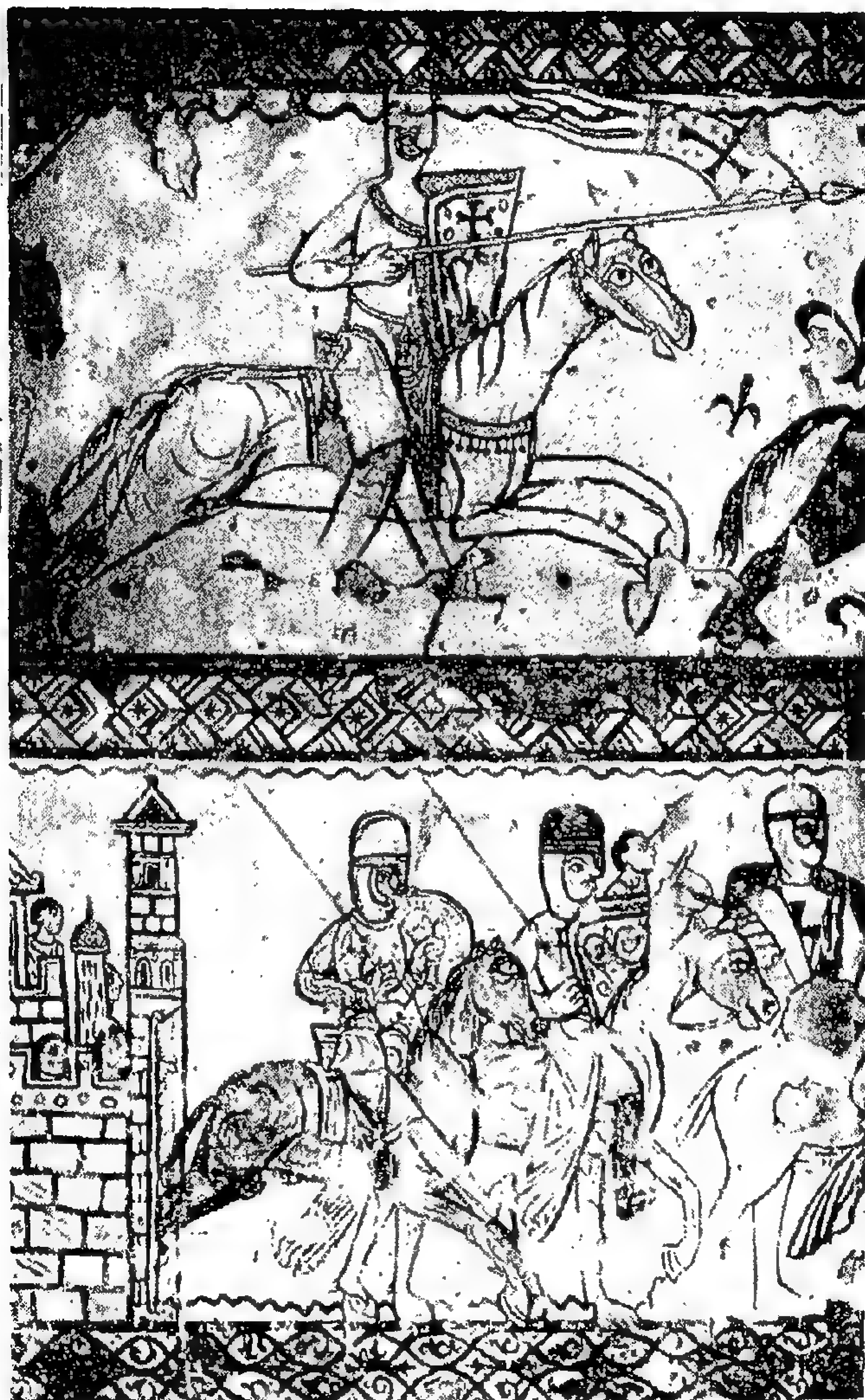
كانت القوة التي غادرت معسكر انطاكية إلى حماه لا تعلم أن قوّة إسلامية سلجوقية ضخمة، تتحرّك نحوها لنجدة ياغي سيان في عاصمته. ففي منتصف شهر كانون الأول ١٠٩٧، غادر الأمير دقاق عاصمة ملكه دمشق، يصحبه الأتابك طغتكين وشمس الدولة بن ياغي سيان وجيش كبير. وعند وصوله إلى حماه انحاز إليه أميرها بقواته، وفي ٣٠ كانون الأول، وصلوا إلى شيزر حيث بلغهم أن جيشاً من الفرنجة يتقدّم بالقرب منهم. فتحرّكوا باتجاهه وفي صباح اليوم التالي انقضوا على الصليبيين عند قرية البارة وأخذوهم على حين غرة، وطوّقوا جيش روبرت، الذي كان يسبق في المسير

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٣٠.
- وليم، ج ٢، ص ٢٨٨.
- Maalouf, P. 39.
- Grousset, P. 36.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٣٣٠.
- وليم، ج ٢، ص ٢٩١.
- زابوروف، ص ٨٨.

فرسان الداوية يقاتلون المسلمين



جيش بوهمند[1] ولمّا علم بوهمند بما حدث، جمع جيشه في كتلة واحدة وانقضّ على السلاجقة في الوقت المناسب، فانفذ روبرت وأنزل خسارة فادحة بجيش دقاق الذي ارتدّ عائداً إلى حماه. وامتنع الفرنجة بعد ذلك من الخروج من أجل العلف والمؤن ثمّ عادوا إلى معسكر انطاكية بعدما نهبوا قرية أو قرتين وأشعلوا النيران في أحد المساجد.

ز - الصدام بين رضوان أمير حلب والفرنجة (شباط ١٠٩٨):

بعدما فشل دقاق في مساعدة ياغي سيان، لجأ هذا الأخير إلى سيّده السابق رضوان أمير حلب. وأعلن رضوان وقتذاك أسفه وحزنه لتراخيه وامتناعه عن مدّ يد المساعدة لياغي سيان، الذي أدّى إلى توغّل الفرنجة إلى انطاكية. فلمّا أقرّ ياغي سيان سيادته عليه من جديد، أبدى رضوان استعداداً للنهوض لمساندته ومساعدة ابن عمّته «سكمان بن ارتق» أمير ديار بكر، وصهره أمير حماه. ففي أوائل شباط ١٠٩٨، استردّ السلاجقة بلدة «حارم» واحتشدوا بها كيما يهاجموا المعسكر الصليبي.[2]

أبقى الفرنجة مشاتهم في مراكزهم وحول السور، لردّ أية محاولة هجوم من داخل انطاكية على المعسكر. أما الفرسان السبعماية الباقين، فقد تسلّلوا في ليل ٨ شباط واجتازوا جسر السفن على العاصي وتموضعوا بين النهر وبحيرة انطاكية حيث كان بإمكانهم الانقضاض على قوات رضوان عند تقدّمها لعبور الجسر الحديدي.[3] وعند بزوغ فجر التاسع من شباط سجّل المراقبون الفرنجة قدوم جيش حلب المقدّر عديده بآلاف الفرسان. لقد أراد رجال ياغي سيان أن تبدأ المعركة فوراً، لكن رضوان أوقف قواته الذين بدأوا بنصب خيمهم، وارجأ

(١) زابوروف، ص ٨٨.

(٢) زابوروف، ص ٨٨ - ٨٩.

- رنسيمان، ج ١، ص ٣٣٨.

(٣) زابوروف، ص ٨٨.

- Maalouf, P. 40.

الـهـجـوم إلى الـيـوم الـتـالي. تـوالت الاستعدادات طوال الليل، وأصبح كلّ جندي يعرف تمام المعرفة، وبدقّة، ماذا سيفعل. ومن جهته ياغي سيان، كانت ثقته كبيرة بمقاتليه الذين سينفّذون المهمّة المطلوبة منهم.(١)

لقد خسر رضوان معركته قبل اندلاعها. لقد أرعبه ما كان يقال عن صفات المحاربين الفرنجة، فبدلاً من الاستفادة من التفوّق العددي لفرسانه والانتشار القتالي، راح يعمل على حمايتهم. وبغية تجنّب أخطار تطويقهم من قبل الفرنجة، عسكرهم في رقعة ضيّقة من الأرض «حشرت» بين العاصي وبحيرة انطاكية. وعندما أطلق الفرنجة هجومهم فجراً، لم يتمكّن الحلبيون من التحرّك إطلاقاً بسبب ضيق رقعة الأرض، فالخيول راحت تقف على أرجلها الخلفية ومن يقع منها أرضاً تدوسه الخيول الأخرى. في هذا الموقع لم يستطع السلاجقة تطبيق تكتيتهم المعتادة وإطلاق سهامهم بموجات متتالية ضدّ عدوّهم والانسحاب. لقد سيطر الفرنج على ساحة المعركة سيطرة تامة، أنها لجزرة حقيقية لحقت بقوات رضوان. لقد انهار الفرسان السلاجقة وولّوا الأدبار، فأثاروا الاضطراب والفوضى في الصفوف المتزاحمة التي ارتصّت وراءهم. ولم يلبث كلّ جيش رضوان أن تراجع إلى حلب، وقد اضطربت صفوفه وسادته الفوضى بعد أن تركوا المدينة للسكان النصارى، الذين سلّموها بدورهم إلى الفرنجة.(٢) لقد قتل من السلاجقة حوالي الألفين.(٣)

وبينما كان خيالة الفرنجة يحرزون هذا الانتصار، كان مشاتهم يخوضون معركة قاسية وعنيفة، إذ أن ياغي سيان هاجم بكلّ ما لديه من قوات معسكر الصليبيين وأوشك أن ينتصر عليهم عندما عاد فرسان

(١) Maalouf, P. 40.

(٢) Maalouf, P. 40 - 41.

- رنسيمان، ج ١، ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

- وليم، ج ٢، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٣) وليم، ج ٢، ص ٣٠١.

الفرنجة، بعد الظهر، إلى معسكرهم، فأدرك الأمير أن الجيش الحلبي القادم لنجدته، حلّت به الهزيمة، فأمر رجاله بالعودة إلى داخل المدينة.[1]

ترتب على هذه الهزيمة الثابتة للسلاجقة، الذين قدموا لإنقاذ انطاكية، أن ارتفعت الروح المعنوية عند الفرنجة، غير أنها لم تؤدّ مباشرة إلى تحسين وضعهم. فلا زال الطعام شحيحاً على الرغم من وصول بعض المؤن من قبرص. فالطريق بين المعسكر والشاطىء كانت محفوفة بالمخاطر، فهي تتعرّض دائماً لغارات الجماعات المتسلّلة من انطاكية، التي كانت تكمن للقوافل الصغيرة، فتستولي على المؤن وتنقلها إلى الداخل عن طريق باب القديس جورج، الذي خلى من الحراسة، وعبر الجسر الوثيق الاستحكامات. ففي ٦ آذار ١٠٩٨، تعرّضت قافلة صليبية لكمين، نصبته سرية من حامية المدينة، فهرب عسكر الحراسة مذعوراً بعد أن ترك ما معهم من الأحمال والأمتعة والمؤن في أيدي السلاجقة.[2] وأثناء عودة سرية الكمين إلى مركزها، قام رجال ياغي من داخل المدينة بهجوم مفاجىء على المعسكر الفرنجي، كي يحموا أولئك الذين اشتركوا في الكمين وامتلأت أيديهم بالغنائم الثقيلة، حتى يصلوا إلى أبواب انطاكية. ولما علم كونت تولوز بالكمين، انطلق مع قواته باتجاه الشاطىء معترضاً طريق سرية الكمين عند عودتها والتي عطّلتها أحمال الغنيمة، فلم تستطع القتال فلقي العدد الكبير من رجالها مصرعهم أثناء نضالهم للوصول إلى الجسر. فقتل منهم حوالي /١٥٠٠/ رجل ومات كثير منهم غرقى أثناء محاولاتهم اجتياز النهر.[3] وبهذا الانتصار استردّ الفرنجة أدوات البناء القيّمة.

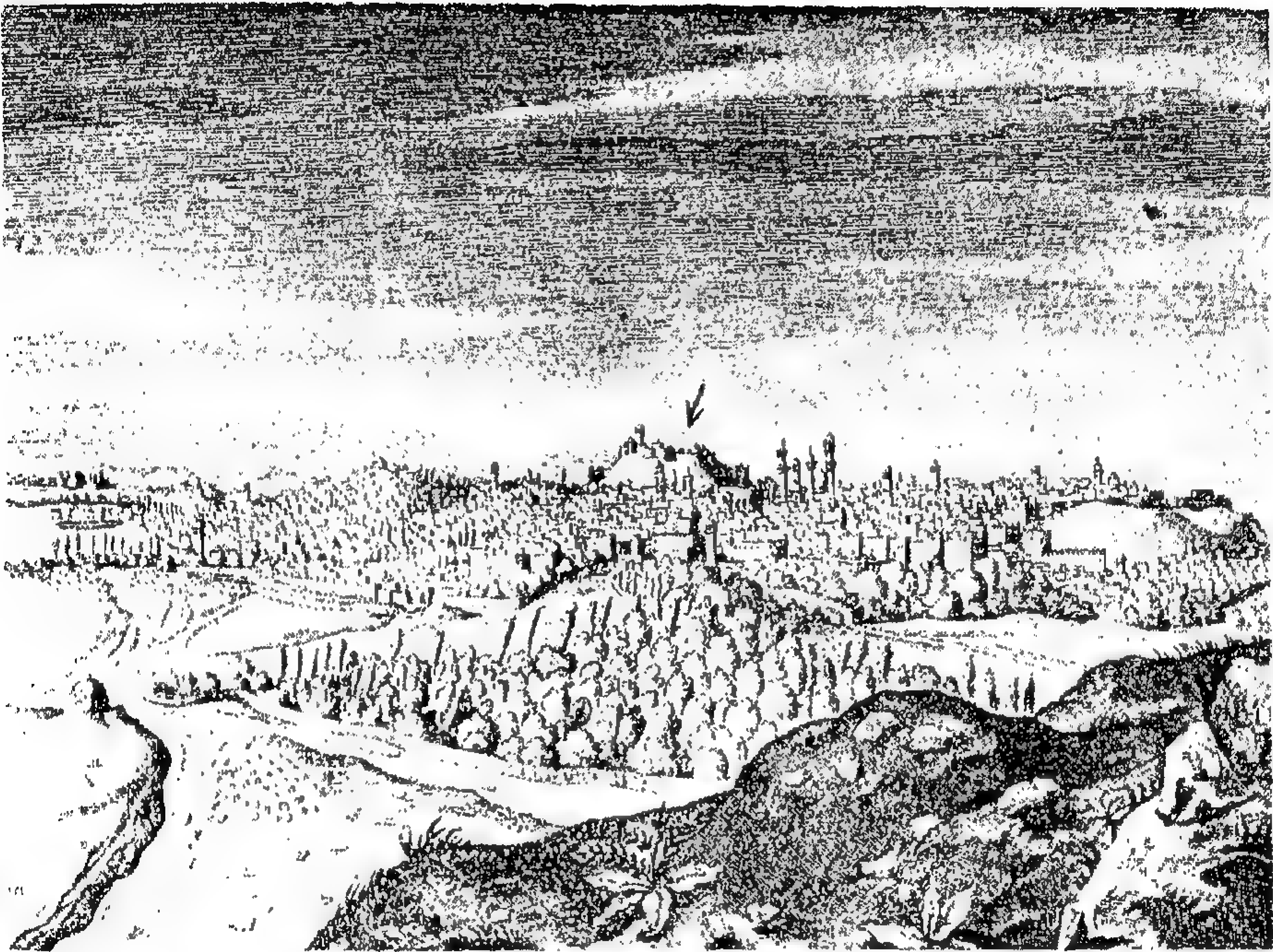
---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٣٩.
- وليم، ج ٢، ص ٣٠٢.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٣٤٠.
- وليم، ج ٢، ص ٣٠٣ – ٣٠٨.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٣٤١.

حلب وقلعتها



ح - اكتمال حصار انطاكية:

ترتّب على انتصار الفرنجة هذا، أن اكتمل حصار انطاكية. وبفضل ما توافر من العمال ومواد البناء، تقرّر تشييد الحصن الذي سبق تصميمه، كي يسيطر على مشارف الجسر المنيع. وتمّ بناؤه بالقرب من المسجد وأطلقوا عليه حصن أو قلعة ريموند، واكتمل البناء في ١٩ آذار ١٠٩٨. ثمّ بنى الفرنجة حصناً ثانياً يتحكّم بباب القديس جورج ويسيطر عليه. وقد تمّ بناؤه في نيسان ١٠٩٨ وسمي بحصن تانكرد. ومنذ هذا التاريخ لم يعد بوسع قوافل المؤن الوصول إلى مدينة انطاكية، ولم يعد باستطاعة سكان المدينة أن يرسلوا قطعانهم إلى المروج والمراعي خارج الأسوار، كما وأنه لم يعد في وسع رجال ياغي سيان القيام بهجوم منظّم.(١) لقد ابتدأ الجوع يفتك بأهالي المدينة، ولم يعد رجال ياغي سيان يفاجئون الفرنجة بهجماتهم المدمّرة خارج الأسوار. وتمكّن الصليبيون وبسهولة في الحصول على المؤن وبوفرة كبيرة. ولم يكد حصن تانكرد يتمّ تشييده، حتى استولى الفرنجة على كمية ضخمة جداً من الطعام، كان مقدّراً أن تصل إلى داخل انطاكية، الأمر الذي جعل الفرنج يأملون في أن تستسلم المدينة بعد أن تتعرّض للهلاك جوعاً. غير أنه لا بدّ أن يتمّ ذلك سريعاً، لأن كربوقا أمير الموصل، أخذ يحشد قواته.(٢)

ط - المفاوضات مع الفاطميين:

لقد كان الفاطميون حكام مصر، من أشد الناس خصومة للسلجوقيين ولا يقبلون مطلقاً وقوع الصلح فيما بينهم، بينما اشتهروا بالتسامح مع رعاياهم النصارى، وكانوا دائماً مستعدّين للتفاهم مع الدول النصرانية.(١)

---

(١) Grousset, P. 37.
- Maalouf, P. 41.
- رنسيمان، ج ١، ص ٢٤٢.
- وليم، ج ٢، ص ٣٠٩ - ٣١٠.

(٢) رنسمان، ج ١، ص ٣٤٣.
- زابوروف، ص ٨٩.

ففي أوائل الربيع قدمت إلى معسكر الفرنجة المنصوب أمام انطاكية، بعثة فاطمية، أرسلها الأفضل، كبير وزراء الخليفة (الطفل) المستعلي، تعرض عليهم اقتسام الامبراطورية السلجوقية، فيأخذ الصليبيون بلاد الشام ويأخذ الفاطميون فلسطين.

استقبل الفرنجة، هذه البعثة بالمودة والترحاب. لكنهم لم يلتزموا بأي تدابير خاصة. ومكث الفاطميون في المعسكر الفرنجي بضعة أسابيع، عادوا بعدها إلى بلادهم، تصحبهم بعثة صغيرة من الفرنج، وقد حملوا هدايا وفيرة معظمها جاء من الغنيمة التي استولوا عليها في معركة ٦ آذار ١٠٩٨.[١]

لقد استخلص الصليبيون من هذه المفاوضات ما يعود من المزايا عليهم، نتيجة تدبير المؤامرات مع الإمارات السلجوقية. فعندما وصلت إلى مسامعهم تحضيرات واستعدادات قوام الدولة «كربوقا» لمهاجمتهم في انطاكية وتخليص ياغي سيان، بعثوا إلى «دقاق» أمير دمشق، يطلبون منه التزام الحياد وقد وعدوه بعدم مهاجمة بلاده.[٢] على أن دقاق لم يستجب لرغباتهم، نظراً لأنه اعتبر أخاه «رضوان»، أمير حلب أكبر عدوّ له، وأنه رأى ان رضوان رجع إلى سابق حياده.

ي - الأمير «كربوقا» يلبي نداء ياغي سيان:

كان الأمير «كربوقا» مغامراً سلجوقياً، تمكّن من طرد حكام الجزيرة العربية وأحلّ نفسه محلّهم وأصبح أميراً على الموصل معترفاً بالتبعية للسلطنة السلجوقية. لقد استنجد ياغي سيان بكافة الأمراء السلجوقيين في بلاد الشام والعراق والجزيرة وعلى رأسهم كربوقا الأقوى والأفعل والأبعد. وقد قرّر هذا الأخير إنقاذ إنطاكية من الفرنجة «فجمع العساكر وسار إلى الشام

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٤٣.
- GRAUSSET, P. 36.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٣٤٤.
- وليم، ج ٢، ص ٣١٢.

وأقام بمرج دابق واجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب. فاجتمع معه دقاق بن تتش وطغتكين أتابك، وجناح الدولة صاحب حمص وارسلان تاش صاحب سنجار وسليمان بن أرتق وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم، فلما سمعت الفرنج، عظمت المصيبة عليهم وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلّة الأقوات عندهم».[١]

في أوائل أيار ١٠٩٨، علم الفرنجة أن كربوقا لا يزال يواصل سيره وزحفه باتجاه انطاكية، وأن ياغي سيان لا يزال صامداً في عاصمته، بالرغم مما تعرّض له من ضغط شديد من قبلهم. فازداد التوتّر بين الفرنج وأدركوا أنه يجب عليهم أولاً الاستيلاء على انطاكية مهما كلّف الأمر، وإلا سوف يجري تدميرهم لوقوعهم بين حامية المدينة والجيش الكبير القادم من الموصل لإنقاذها.[٢]

في البدء تحرّك كربوقا بجيشه الكبير نحو إمارة الرها الصليبية. فقد أراد قبل كلّ شيء أن يقضي على المسلحة الأمامية للسيادة الفرنجية التي أخذت ترتسم بجلاء في الشرق. وكان الأمير كربوقا يتخوّف من وجود إمارة أو كنتية الرها التي كان بمقدورها أن تقطع مواصلات السلجوقيين بين إماراتهم المنتشرة في بلاد الشام والعراق والجزيرة.[٣] وكان كربوقا وجيشه موجودين على بعد أسبوعين من السير.[٣]

انتشرت الشائعات بين قوات الفرنجة الموجودة حول إنطاكية، بأن السلاجقة سيدمّرون الرها وسينتقلون بعدها مباشرة إلى انطاكية لتدمير الفرنجة وتخليص عاصمة ياغي سيان. وقد أكّد هذه الشائعات اللاجئون الذين أتوا من «المدينة إلى معسكر الفرنجة... وازدادت هذه الشائعات

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، ص ١٥.
- رنسيمان، ج ١، ص ٣٤٥.
(٢) وليم، ج ٢، ص ٣١٢.
- زوبوروف، ص ٩١.
(٣) زوبوروف، ص ٩١. و Maalouf, P. 42.

من يوم إلى آخر، إلى حدّ القول إن جنود السلاجقة باتوا على الأبواب... والجزرة ستبدأ بين لحظة وأخرى...».(١) على أثر ذلك ترك بعض قادة الفرنج مع رجالهم المعسكر مدّعين المرض وتراجعوا منسحبين إلى الاسكندرونة وأقاموا هناك يترقّبون نتيجة معركة انطاكية، فإذا انتصر الفرنجة يعودون للالتحاق بمعسكرهم وإلاّ العودة إلى وطنهم الأصلي.(١) كما أن القائد البيزنطي تتيكيوس المرافق مع رجاله، الجيش الفرنجي ترك المعسكر أيضاً إلى قبرص بحجّة «جلب مساعدة قوية للفرسان الفرنجة»، لقد هرب تتيكيوس نظراً لوضع الفرنجة المتقلقل للغاية(٢) «... ان كثيرين من الجبناء شرعوا يهربون من جوار المدينة انطاكية... لأنهم لم يرغبوا أن يعرّضوا للخطر الغنائم التي نهبوها في الشرق، من أجل قضية معلّقة وموضع شك، قضية تحرير قبر السيد المسيح».(٢)

في نهاية شهر نيسان ١٠٩٨، استطاع كربوقا أن يجمع حوالى الثلاثين ألف مقاتل الكثير منهم من الفرسان الأبطال والمجربين تحدوهم عاطفة الجهاد ضد الكفار. وكان من المؤكّد لسكان انطاكية، أن كربوقا سيصل إلى ديارهم في منتصف أيار. فالجميع يراقب من كوات الأسوار وصول جيش الموصل.(٣)

أثناء انتقاله، قرّر الأتابك كربوقا أن يعدّل خطّ سيره، لقد بدا له، من الناحية العسكرية أن قواته ستقع بين فكي كماشة فيما لو وصل أمام انطاكية. فأمامه الفرنجة ووراءه القوات الصليبية في الرها التي كان بإمكانها مهاجمته من الوراء. لذلك جمع قادة جيشه في أوائل شهر أيار ليبلغهم قراره بتعديل خطّ سيره «وأنه سيتجه نحو الشمال لمعالجة قضية الرها خلال أيام وبعدها ينتقل لمقاتلة الفرنجة المحيطين بانطاكية وتدميرهم وتخليص المدينة من

(١) وليم، ج ٢، ص ٣١٢ – ٣١٣.
(٢) زوبوروف، ص ٩٠ – ٩١ – ٩٢.
(٣) Maalouf, P. 44. – ويقول بعض المؤرّخين، مثل وليم الصوري، إن قواته وصلت إلى /٢٠٠/ ألف رجل.
– وليم الصوري، ج ٢، ص ٣١٨، (يقول إن قوات كربوقا وصلت إلى مائتي ألف رجل).
(٤) Maalouf, P. 45.

هؤلاء الكفرة».[٤] عارضه بعض الأمراء القادة وذكّروه بوضع ياغي سيان المأساوي، لكن كربوقا أسكتهم، «وأساء السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبّر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال فأغضبهم بذلك وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال».

علم أمير الرها الصليبي بتقدّم كربوقا نحوه فجمع حوالى ثلاثة آلاف مقاتل داخل المدينة للدفاع عن أسوارها القوية وقد زوّدها بالطعام والأسلحة بكلّ عناية، وكذلك لم يأبه كثيراً بتهديدات كربوقا المخيفة. وصل القائد السلجوقي إلى جوار الرها وحاصرها من كافة الجهات، وقد ردّت حاميتها بقوّة لهذا الحصار ولم تستسلم بل قاومت بعناد لمدّة ٣ أسابيع، وما لبث أن اتضح أن كربوقا لم يستطع أن يحرز سوى تقدّم بسيط في تلك المحاولة. بعد طول هذه المدّة، تقدّم بعض القادة «ذوو الفطرة السليمة والتفكير العملي من كربوقا، وأقنعوه بعد كثير من الجدل بالتخلّي عن الحصار الذي لم يكن أولاً وآخراً سوى محاولة عرضية، والتقدّم نحو الهدف الرئيسي انطاكية لرفع الحصار عنها.[١]

في نهاية شهر أيار، اقتنع كربوقا وأمر فيالقه بعبور نهر الفرات بعدما أضاع الجهد فيها أمام الرها وتبدّد لمدّة ٣ أسابيع متتالية (من ٤ أيار إلى ٢٥ أيار). وبدأ يحث الخطى بكلّ نشاط نحو انطاكية.[١] والجدير ذكره أن توقّف السلجوقيين أمام الرها، كان سبباً مباشراً حال دون حضور القائد الصليبي «بودوان» ورجاله من الرها للمشاركة في حصار انطاكية.[١]

على أن ما ارتكبه كربوقا من أخطاء في التقدير، هيّأ للحملة الصليبية الفرصة للتنفّس والراحة، ولم يدرك أن بودوان بلغ من شدّة الضعف «أنه ليس بوسعه القيام بالهجوم، بل اعتقد أنه بلغ من القوّة في أسوار الرها المنيعة، ما لا يسهّل طرده

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٣١٨ – ٣١٩.

Maalouf, P. 46 - 47. –

منها».[1] من جهة أخرى، لو كان كربوقا قد زحف مباشرة إلى انطاكية قبل أن يستولي الفرنجة عليها، لكانت قوات الصليبيين في وضع خطير. لقد استولوا على انطاكية قبل وصول السلاجقة بقيادة الأتابك، ويلاحظ أنه حتى مع استيلائهم عليها، لم يكونوا قادرين إلاّ بصعوبة بالغة على الصمود أمام زحف كربوقا.[2]

ك - الاستيلاء على انطاكية (٣ تموز ١٠٩٨):

قبل وصول كربوقا إلى انطاكية بحوالي أسبوع، كان الفرنجة قد تأكّدوا، من إخبار جواسيسهم ودوريات الاستطلاع التي أرسلت في اتجاهات مختلفة ومن التحقيقات الدقيقة التي قاموا بها مع العناصر السلجوقية التي ألقي القبض عليها، أن كربوقا وجيشه أصبحا آنذاك في المنطقة المجاورة، ولا يجوز تجاهل هذا الجيش الكبير القادم بعد الآن. وقد اتفق القادة الفرنج جميعاً على إصدار أمر إلى الجواسيس بعدم ترك هذه المعلومات تتسرّب إلى الأهالي، لأنهم كانوا يخشون تسرّب الخوف إلى قلوب الناس فيخططون للهرب كما فعل أحد كبار قادتهم منذ وقت قريب.[3] كما أنهم اتفقوا على الاستيلاء على المدينة قبل وصول هذا القائد الكبير.[3]

في أثناء تلك الأسابيع الثلاثة القيّمة، استطاع القائد الصليبي بوهمند أن يوطّد صلته بأحد القادة بداخل انطاكية واسمه «فيروز» وقد كان قائداً لبرج محصّن تحصيناً قوياً. وقد وافق بإيمان جيّد وشروط محدّدة على تسليمه. وقد وعده «بوهمند» بأن يعطيه مبلغاً كبيراً من المال، وأن يضمن إلى الأبد له ولورثته ممتلكات وامتيازات واسعة من جميع

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٤٦.

(٢) وليم، ج ٢، ص ٣١٩.

- ابن الأثير، ص ١٥.

(٣) وليم، ج ٢، ص ٣٢٠.

الأنواع.[1] والواضح أن فيروز هذا.[2] كان أرمنياً اعتنق الإسلام، وارتقى إلى وظيفة عالية في حكومة ياغي سيان. وعلى الرغم من تظاهره بالولاء لسيّده، فإنه كان شديد الحقد والبغضاء له، لأنه فرض عليه أخيراً غرامة مالية لاختزانه القمح. وعن طريق أقاربه الأرمن خارج الأسوار، وصل إلى تفاهم مع الفرنجة على خيانة عاصمته وأهلها.[3]

إلى جانب ذلك، يقال إن واحداً من كبار الزعماء السلاجقة داخل المدينة، اغتصب زوجته، فأصابه الرعب والحزن وسخط على حاكم المدينة وقرّر الخيانة المميتة.[4]

في نهاية شهر أيار، وصلت الأخبار إلى المعسكر بأن جيش كربوقا أصبح في جوارهم، فهرب الكثير من جنود الفرنجة، ثمّ في الثاني من حزيران ١٠٩٨، اتخذت جماعة كبيرة من رجال شمال فرنسا، بقيادة ستيفن بلوا، الطريق إلى الاسكندرونة، ويقال إنه غادر انطاكية قبل يوم واحد من سقوطها... لقد هرب بحجّة المرض والجدير ذكره أن ستيفن بلوا كان مسؤولاً عن نظام تموين الجيش.[5]

كان فيروز مسؤولاً عن برج الأختين الشقيقتين ويشرف على ما يليه من قطاع من سور المدينة المطل على خارجها، والذي يواجه حصن تانكرد. (انظر الخطيطة المشهدية).

بعد ظهر الثاني من حزيران، حشد بوهمند رجاله وانطلق باتجاه الشرق متظاهراً بأنه سائر لمنع تقدّم كربوقا. وعند منتصف الليل، صدرت الأوامر لجميع وحدات

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٣٢١.

(٢) ورد الاسم هذا عند بعض المؤرّخين على أنه «بيروس Pissus» وهو تركي سلجوقي واعتبرته Anna Commena ابنة إمبراطور بيزنطية، من الأرمن الأثرياء. وجعله متى الرهاوي من زعماء رجال انطاكية ولم يشر إلى جنسه. وقال غيرهم انه مسيحي مرتدّ. أما ابن الأثير فقد أطلق عليه اسم زرّاد ويعرف بروز به.

(٣) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٤.

(٤) وليم، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٥) رنسيمان، ج ١، ص ٣٤٨.

الجيش، بأن تعود إلى جهة الأسوار الغربية والشمالية الغربية، فوصلت قوات بوهمند أمام برج الأختين قبل الفجر. فنصبوا سلّماً على البرج صعده نحو ستين فارساً، يتقدّمهم فولك شورتر، ودخلوا من نافذة بأعلى السور، إلى حجرة كان ينتظرهم بها فيروز ومنها استولى الفرسان على البرجين الآخرين، الخاضعين لإشراف فيروز وسيطرته، فتمكّن بذلك رفاقهم من أن يقيموا السلالم، على سائر أجزاء السور، الواقعة بين الأبراج. ولم يطل الوقت حتى دخل قسم من هؤلاء إلى المدينة بمساعدة «النصارى فيها» وقسم من فرنجة الخارج تسلّقوا الأسوار بسرعة للقضاء على الحراس السلاجقة.

وقد تمكّن الذين دخلوا المدينة من السيطرة على باب القديس جورج والباب الكبير للجسر حيث كان الجيش الصليبي ينتظر، فراح الفرنجة يتدفّقون منه إلى الداخل، ولم يصادفوا إلاّ مقاومة ضئيلة، وانحاز إليهم السكان من اليونانيين والأرمن، في قتل كلّ من وقع نظرهم عليه من السلاجقة، من الرجال والنساء ولم يسلم من ذلك حتى ابن فيروز نفسه. وقتل في أثناء هذه الفوضى عدد كبير من المسيحيين أيضاً.(١)

استيقظ ياغي سيان على هذه الجلبة وذاك الضجيج، ولم يلبث أن أدرك ان كلّ شيء قد ضاع، فدخله الرعب ففرّ هارباً مع ثلاثين غلاماً من حراسه، من الخانق المؤدي إلى الباب الحديدي، ومنه إلى التلال المجاورة وكذلك نائبه.(٢) غير أن ابنه شمس الدولة فقد ظلّ في المدينة وحشد من الجنود ما استطاع وشقّ طريقه إلى القلعة، قبل أن تقع في يد الفرنجة. حاول بوهمند أن يقوم بهجوم عنيف على القلعة، غير أنه ردّ على أعقابه وأصابته الجراح(٣) ويُقال إنه قتل من أهل المدينة في ذلك

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٥٠.
- زابوروف، ص ٩٢.
(٢) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٤.
(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٣٥١.

اليوم أكثر من عشرة آلاف، وانتشرت جثث الموتى غير المدفونة على طول الطرقات، تماماً حسبما سقطت.(١)

لقد حاول عدد كبير من نبلاء السلاجقة ومن الذين قدموا من مناطق بعيدة لنجدة المدينة، ان يلتحقوا بالقلعة لكنهم فشلوا لأنهم لم يكونوا يعرفون المكان معرفة جيّدة، فتمّت محاصرتهم في ممرّ ضيّق بحيث لم يستطيعوا الصعود والنزول بسبب الانحدار الشديد للهضبة. وقد سقط منهم قرابة الثلاثمائة رجل مع خيولهم وعليهم الشارات التي ميّزتهم بعضهم عن بعض.(٢)

لقد حاول الصليبيون مرات عديدة، مهاجمة القلعة لكنهم أخفقوا ودفعوا الكثير من القتلى والجرحى. وقد كان من السهل عليهم، الرجوع إلى المدينة، فلجأوا إلى نهب منازلها وشوارعها واستباحتها.

لقد لقي بوهمند العزاء والسلوى وهو جريح يعاني، حين تلقّى من أحد الفلاحين الأرمن رأس ياغي سيان. ذلك أن ياغي سيان هوى من على حصانه في أحد مسالك في الجبال أثناء فراره، فتخلّى عنه حرسه ومرافقوه وكان جريحاً منهوك القوى وقد استبدّ به الذهول عندما عثر عليه هذا الفلاح فعرفه فبادر إلى قتله ونقل رأسه إلى القائد الفرنجي فنال جائزة مالية لقاء ذلك وقد باع أيضاً منطقته وغمد سيفه مقابل ستين بيزنتاً لكلّ منهما.(٣)

لم يطل الوقت حتى اكتشف الفرنجة الحقيقة وهي أنه لم يكن هناك مؤن في المدينة، ولم يكن هذا غريباً لأن الحصار كان قد استمرّ بدون انقطاع لمدّة سبعة أشهر تقريباً. من ناحية أخرى، عثر على كميات كبيرة من الذهب والفضة والجواهر والأواني النفيسة والسجاد والمنسوجات الحريرية،

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٣٣٠.

(٢) معلوف، ص ٣٣١.

- Maalouf, P. 49.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٣٥١ - ٣٥٢.

- وليم، ج ٢، ص ٣٣١.

فأثرى منها فجأة الذين كانوا حتى الآن متسوّلين جائعين. كما أنهم عثروا فقط على خمسماية فرس يمكن استخدامها في الحرب، إنما كانت في حالة هزال تكاد تموت جوعاً.(١)

٢ - الأتابك كربوقا يحاصر الصليبيين في انطاكية:

٢١ - مصير انطاكية:

أخيراً هدأت الجلبة والضوضاء واستعادت المدينة سكونها، وتعتع السكر سيوف المنتصرين من شرب الدماء، وغدت منهكة من القتل اللامتناهي، فقرّر قادة الفرنج تنظيم الدفاع عن انطاكية، فالاستحكامات والأسوار لم يصبها أية أضرار أثناء المعركة وهي سوف تحميهم من جيوش كربوقا. غير أن الدفاع عن الخط الطويل من أسوار انطاكية، يحتاج إلى عدد كبير من الرجال لم يكن بوسع الصليبيين الموجودين آنذاك تأمينه، ولا زالت القلعة ممتنعة لم تقهر ولا بدّ من الاستيلاء عليها.(٢)

فالحامية السلجوقية التي تدافع عنها قدّرت بحوالى ثلاثة آلاف مقاتل. وقد كتب المؤرّخ العربي ابن القلانسي:

«لقد تحصّنوا هناك وسَلِمَ من كتب الله سلامته».(٣) وكان من المؤكّد ان الحامية السلجوقية في القلعة لا يمكنها أن تشنّ هجوماً، فإن كلّ ما يجري في المدينة من حركة أو تنقّل يصحّ مراقبته وملاحظته من أعلاها. ومن المستحيل منع هذه الحامية من إجراء اتصال مع كربوقا. وعلى الرغم من أن المسلمين السلاجقة من سكان المدينة قد لقوا حتفهم فان الفرنجة لم يثقوا بنصارى انطاكية. فالسريان لم يولوا الصليبيين أي عطف. فخطر هؤلاء في الداخل يفوق خطرهم في الخارج،(٤) يضاف إلى ذلك أن

(١) وليم، ج ٢، ص ٣٣٢.
(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٣٥٣.
- زابروروف، ص ٩٢.
(٣) تاريخ ابن معلى حمزه، ابن القلانسي، بيروت، ١٠٩٨، ص ١٣٥.
(٤) رنسيمان، ج ١، ص ٣٥٤.

انتصار الفرنجة نشأ عنه مشكلة تتمثّل فيمن تكون له انطاكية، فظهرت إلى الوجود بوادر الشقاق في الحملة الصليبية.

٢٢ - كربوقا يحاصر المدينة ويضغط على الفرنجة:

في ٥ أو ٦ حزيران ١٠٩٨، أي بعد مرور ٣ أو ٤ أيام على احتلال الفرنج لمدينة انطاكية، اقترب من المدينة جيش كربوقا «كثرة لا نهاية لها من الأتراك السلاجقة توزّعت في الحقول».(١) طوّق كربوقا انطاكية من كافة الجهات وأصبح الصليبيون محاصرين في داخلها. وقد أبلغ الفرنجة بابا روما أن السلجوقيين «طوّقونا من كلّ مكان بدرجة من الاحكام بحيث أن أحداً منا لم يكن بوسعه أن يخرج وأن أحداً لم يكن بوسعه أن يتسرّب إلينا».(٢) فعلاً لقد عبر كاربوقا مع جيشه الجسر العلوي للمدينة بعدما احتلّ المنطقة بأسرها، وركّز معسكره بين النهر والبحيرة. وكانت «قواته كبيرة جداً إلى درجة أن السهل الواسع لم يكفِ تقريباً لاستيعاب قواته، ولذلك غطّت خيمه أيضاً بعض التلال المجاورة».(٣) لقد قرّر كربوقا في اليوم الثالث لوصوله، أن يكون على مسافة أقرب من حامية القلعة كي يستطيع مساعدة رجالها، كما أنه رغب بإدخال قواته إلى داخل المدينة من خلال الباب الواقع أسفل القلعة، لذلك صعد إلى التلال وحاصر الجهة الجنوبية امتداداً من الشرق إلى الباب الغربي بخط متواصل. كما أنه حاصر حصن بوهمندوشن منه هجمات متكرّرة وباستمرار على الرجال الموجودين في الداخل، وقد حاول هولاء القيام بهجوم معاكس على السلاجقة لكنهم منيوا بالفشل الذريع فقتل منهم حوالى المائتي رجل بشكل مثير للشفقة.(٤)

لقد شعر الفرنجة المحاصرون بمشقات الوضع. فالمؤن غير موجودة وكذلك

---

(١) زابوروف، ص ٩٣.

(٢) زابوروف، ص ٩٣.

(٣) وليم، ج ٢، ص ٣٣٦.

(٤) مماثل، ص ٣٣٧.

المأكولات والفرسان يموتون جوعاً ويهلكون من شتى البلايا الأخرى. فكانوا يذبحون خيولهم وحميرهم الهزيلة ويأكلون لحومها.(١) واستحوذ اليأس على المحاصرين وراح الفرسان يفرّون من المدينة بالمئات وينزلون أفراداً وجماعات، بواسطة الحبال المتدلّية من الأسوار ليلاً ليصلوا إلى السفن الراسية قرب أرصفة خليج اسكندرونة.(٢) وسار على منوالهم بعض المقاتلين الاقطاعيين مثل ايتيان دي بلوا وغيره الذين خافوا من احتمال الوقوع في الأسر وفقدان ما نهبوه، ولهذا أطلقوا عليهم لقب «الفارين الجبليين». أما داخل المدينة فقد أخذ رجال الاكليروس المشاركون في الحملة الصليبية، يوحون بدورهم، ببالغ الجهد، «بالرؤى النبوية» التي تراءت لجنود المسيح، وبالعجاءب المفسّرة بأنها علامات على رضى الرب، وعطفه، كلّ هذا لرفع معنويات المقاتلين في هذا الظرف بالذات.(٣) لقد حاول كربوقا مساعدة رجال القلعة وقد ضغط بقواته للاستيلاء عليها أما شمس الدولة التمس منه أن تبقى له القيادة، حتى يتمّ استرداد المدينة، غير أن توسّلاته ضاعت سدى. فلم يسعه إلاّ أن يسلّم الحصن وكلّ مخازنه إلى نائب كربوقا، أحمد ابن مروان. لقد أراد كربوقا أن يدخل إلى المدينة عن طريق القلعة، وقد توقّع الصليبيون هذا الاحتمال، فأقاموا أسواراً لمنع اتصال القلعة باستحكامات المدينة. وكان هذا القطاع أشدّ مواضع الدفاع تعرّضاً للخطر والهجوم، ففي ٩ حزيران قام محمد ابن مروان بشنّ هجوم عليه وكاد أن ينتصر غير ان الفرنجة استطاعوا آخر الأمر أن يردّوه على أعقابه وأن يكبّدوه خسائر فادحة بالأرواح.(٤) وفي ١٠ حزيران، تحرّك كربوقا حتى يكمّل تطويق المدينة، وحاول

(١) زابوروف، ص ٩٤.

(٢) زابوروف، ص ٩٤.

(٣) زابوروف، ص ٩٥.

- وليم، ج ٢، ص

(٤) رنسيمان، ج ١، ص ٣٥٦.

المدافعون أن يمنعوه من ذلك، فقاموا بهجوم عنيف ضده، غير أنهم لن يلبثوا أن ارتدوا واحتموا بالأسوار. لقد استبدّ بالفرنجة، القنوط واليأس بعد أن فشلت جهودهم هنا.

وفي هذه الليلة بالضبط، استطاع عدد كبير من الفرنجة ومن ذوي الرتب العالية، اجتياز صفوف السلاجقة وأسرعوا في سيرهم إلى شاطىء السويدية، وكان يعجّ بالسفن الفرنجية، وأعلنوا أن الجيش الصليبي تعرّض لمصير محتوم، فتركت هذه السفن الميناء وانتقلت فوراً إلى ميناء أكثر أمناً وسلامة، وأبحر معها الفارون إلى طرسوس.(١)

في ١٢ حزيرا، قام كربوقا بهجوم مفاجى، كاد يجعله يمتلك أحد الحصنين المقامين على السور الواقع جهة الجنوب الغربي من المدينة، لولا بسالة ثلاثة فرسان كانوا يقظين وانتبهوا إلى قدوم رجال كربوقا. وكي يتجنّب الفرنجة تجدّد هذه الأخطار، قاموا بإشعال النار في كلّ ما يقع بالقرب من السور، من شوارع المدينة، حتى يتهيأ للجنود أن تقوم بتحرّكاتها ومناوراتها في يسر وسهولة بالغة.(٢)

٢٣ - تأزّم الخلاف بين كربوقا والأمراء السلاجقة:

مرض الكونت ريموند وآلت القيادة العليا للجيش الصليبي إلى بوهمند الذي قرّر فعلاً ان الخطة الوحيدة هي «أنه لا بدّ من القيام بهجوم عام وشامل على جيش كربوقا».

وقد ارتفعت الروح المعنوية عند الصليبيين بفضل نهوض العواطف الدينية فامتلأوا بالحماسة القتالية عندما قام «راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال فقال لهم إن المسيح عليه السلام، كان له حربة مدفونة» في كنيسة القديس بطرس في انطاكية «فان وجدتموها فانكم تظفرون وإن لم تجدوها فهلاككم محقق... وقد طلب منهم الصوم والصلاة والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٥٧.

(٢) رنسيمان، مماثل، ص ٣٦١.

- وليم، ج ٢، ص ٣٣٨.

أيام. فلما كان اليوم الرابع... وجدوا الحربة... فقال لهم أبشروا بالظفر».(١)

وبينما ارتفعت الروح المعنوية عند الصليبيين، أخذ كربوقا يلاقي مشقّة في الإبقاء على حلفائه الأمراء. فالأمير رضوان، صاحب حلب، لا زال يكره الاشتراك في الحملة، غير أن كربوقا أحسّ وقتذاك بالحاجة إلى مساعدته، ولذا شرع في التفاوض معه، فأساء بذلك إلى الأمير دقاق صاحب دمشق. واشتدّت ثائرة هذا الأخير عندما وصلته أخبار تؤكّد أن الفاطميين يستعدّون لمهاجمة فلسطين من الجنوب وكان حريصاً على أن يعود إلى إمارته. أما أمير حمص فقد كان على خلاف مزمن وعائلي مع أمير منبج لذلك كان التعاون بينهما مقطوعاً لا بل على طرفي نقيض. وفي هذه الأثناء وقع الخلاف والاحتكاك بين السلاجقة والعرب من جنود كربوقا. وحاول كربوقا أن يحفظ النظام والانضباط باستخدام السلطة الاستبدادية التي نفر منها جميع الأمراء، الذين يعلمون أن كربوقا ليس إلاّ أتابكاً.(٢)

وخلال شهر حزيران ١٠٩٨، تزايد عدد من يغادرون المعسكر ويتخلّون عنه. فعاد عدد كبير من السلاجقة والعرب معاً إلى مواطنهم، سببه غطرسة القائد العام الأعلى في معاملتهم، فانخفض كثيراً عدد أفراد قوات المسلمين.(٣)

لقد أخطأ كربوقا بتصرّفه غير اللائق مع مرؤوسيه أو مع الذين كانوا معه من الأمراء السلاجقة في حملته على انطاكية، «فعوضاً

---

(١) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٥ - ١٦.

(٢) عاثل، ص ١٥.

- رنسيمان، ج ١، ص ٣٦٨.
- زابوروف، ص ٩٨.
- الأمين، ص ١٤٥.

(٣) زابوروف، ص ٩٨.

- رنسيمان، ج ١، ص ٣٦٨.
- الأمين، ص ١٤٥

عن أن تبعث كثرة الجند وضخامة الجيش في نفسه التواضع لله على ان وفّقه لقيادة مثل هذه القوة الكبرى، وعوضاً عن أن يحمد الأمراء على استجابتهم لدعوته ويتألفهم ويتواضع لهم، عوضاً عن ذلك، عاد إلى طبيعته فرأى في تلك الحشود الإسلامية مجرّد اتباع له، وفي اولئك الأمراء مجرّد مأمورين له، فتكبّر وتجبّر وعامل الجميع بمهانة، فانقلبوا من متحفّزين لنصرة الإسلام، إلى متحفّزين لخيانة الإسلام» لذلك قرروا عدم القتال والانهزام من المعركة عند أول مواجهة مع العدو.

٢٤ - معركة انطاكية - الانتصار على كربوقا:

إن الدور الرئيسي في انتصارات الصليبيين، لم تلعبه بسالتهم الحربية بقدر ما لعبته الخلافات التي نشبت بين الأمراء السلجوقيين عشية المعركة. فقد كانت متاعب كربوقا مجهولة عند قادة الفرنجة، الذين حاولوا ان يحملوه على أن يتخلّى عن حصار المدينة. ففي ٢٧ حزيران، أرسلوا إلى معسكر السلجوقيين بعثة مؤلّفة من بطرس الناسك وفرنجي اسمه «هيرلوين» يتكلّم اللغتين العربية والفارسية، لإجراء مفاوضات بشأن رفع الحصار عن انطاكية، ولعلّ من الاقتراحات التي تحسم الموقف، القيام بسلسلة من المبارزات الافرادية.(١) ويقول البعض من المؤرّخين ان المفاوضات كانت على أساس أن يسمح القائد السلجوقي للصليبيين «الخروج بأمان من البلد» على أن كربوقا أصرّ على أن يستسلم الفرنجة دون قيد ولا شرط «لا تخرجون إلاّ بالسيف» «وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل وكندفري والقمص صاحب الرها وبيمنت صاحب انطاكية وهو المقدّم عليهم».(٢) فطلب الأمان واستسلام الفرنجة كان معناه انتهاء الحروب الصليبية عند

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٦٩.
(٢) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٥.
- زابوروف، ص ٩٨.

انطاكية وعودة رجالها إلى بلادهم شراذم جائعة عارية.(١)

أخفقت المفاوضات، وفي اليوم التالي صباحاً، قسّم بوهمند جيش الفرنجة إلى ستت مجموعات، وساق هذه المجموعات إلى الهجوم. وللمحافظة على القلعة ومراقبتها، تقرّر إبقاء /٢٠٠/ عسكري بالمدينة، يتولّى قيادتهم ريموند من فراش مرضه.

لم يكد الفرنجة يخرجون من المدخل، حتى طلب وثاب بن محمود القائد العربي، من كربوقا بأن يبادر إلى مهاجمتهم، غير أن كربوقا رفض على اعتبار أن الهجوم إذا حصل سيدمّر المقدّمة فقط(٢) أما إذا انتظر، فإنه سوف يتخلّص منهم جميعاً بضربة واحدة. على أنه حينما شاهد الفرنج يخرجون في كامل عدّتهم وفي صفوف منتظمة من باب انطاكية، أخذ يتردّد، وبعث إليهم رسولاً من قبله، بعد فوات الأوان، يعرض الاستعداد لمناقشة شروط الهدنة.

غير أن الفرنج تجاهلوا هذ الرسول ومضوا في تقدّمهم فلجأ كربوقا إلى اتخاذ خطة السلاجقة السابقة في القتال، فتظاهر بالانسحاب لاستدراج الفرنجة إلى أرض بالغة الوعورة، حيث قذف رماته صفوف الصليبيين بوابل من السهام، وأعطى أمراً لفرقة من جيشه بقيادة قلج ارسلان للالتفاف على الصليبيين من الجهة اليسرى حيث النهر لا يحميهم، لكن الفرنجة ردوا هذه القوّة على أعقابها واشتدّ القتال على الجبهة الرئيسية ولم يستطع الرماة السلجوقيين من وقف زحف الفرنجة وأخذت صفوف كربوقا، بعدما اشتدّ الضغط عليها من قبل قوات العدو، تضطرب اضطراباً كبيراً إلى درجة انهم أخذوا بالفرار.(٣)

لقد مدّ الفرنجة صفوفهم إلى الجبال المحيطة بالمدينة على بعد حوالي الميلين واحتلّوا السهل بأكمله ومنعوا السلاجقة من إعادة

---

(١) الأمين، ص ١٤٥.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٣٧٠.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٣٧١.

- وليم، ج ٢، ص ٣٦١.

القيام بهجوم معاكس أو تطويق المدينة من جديد بأعداد كبيرة كما كانت عادات الترك آنذاك.[(١)] حاولت قوات كربوقا التمركز على هضبة أعلى قليلاً من السهل وجمع الجنود المشتّتين بواسطة البوق والطبول، لكن الفرنجة طاردوهم دون هوادة واحتلّوا الهضبة بسرعة فائقة مما اضطرّهم للفرار مجدداً في جميع الاتجاهات.[(٢)]

وزاد في اضطراب القوات السلجوقية ما قرّره كثير من أمراء كربوقا من التخلّي عنه، لأنهم خافوا إذا انتصر، فسوف يصير له من القوّة المعنوية والعسكرية مما يجعلهم أول من يدفع الثمن باهظاً. فأول من غادر ساحة المعركة كان الأمير دقاق أمير دمشق، وتبعه بقية الأمراء.[(٣)] وترتب على تخلّيهم عن نصرته، إن ساد الذعر بين الجنود. فأشعل كربوقا النيران في الحشائش الجافة أمام صفوف عسكره ليخفي تراجع أو تقدّم قواته، كما يحصل في أيامنا هذه باستعمال القنابل الدخانية للتمويه، أو كي يعيق سير الفرنجة، لكن دون جدوى.[(٤)] ولم يبق معه موالياً إلاّ سكمان ابن ارتق وأمير حمص. لقد روّع كربوقا رؤية الكارثة، فغادر المعسكر وهرب بسرعة كبيرة مع بعض حراسه فوصل إلى نهر الفرات، بإبدال متوال للخيول لتسهيل فراره وعبر النهر بحالة كبيرة من الرعب. وصل كربوقا إلى الموصل في فلول جيشه، غير أنه ضاع إلى الأبد ما كان له من سلطة ومكانة.[(٤)]

لقد طارد الفرنجة القوات السلجوقية المتراجعة حتى مسافة ثلاثة أميال أو أربعة (حتى الجسر الحديدي) وفتكوا بهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم. وتمّ الاستيلاء على الكنوز الكثيرة وعلى فسطاط كربوقا بالذات، ونقلت جميعها إلى انطاكية بما في ذلك الجواري والأطفال الذين خلفهم السلاجقة

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٣٦٢.
(٢) مماثل، ص ٣٦٣.
(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٣٧١.
(٤) رنسيمان، مماثل، ص ٣٧٢.
- وليم، ج ٢، ص ٣٦٢.

عندما هربوا.(١) لاحظ أحمد بن مروان ما حلّ بالجيش السلجوقي، «ويقال إنه كان قد عقد اتفاقاً سرياً مع بوهمند لتسليم القلعة وقد سلّمها واستسلم مع الألف الموجودين معه. وخرج رجال الحامية مع عائلاتهم وممتلكاتهم دون أن يتعرّضوا للأذى. وتحوّلت جماعة منهم، وعلى رأسهم أحمد نفسه إلى النصرانية، وإنما انحازوا إلى جيش بوهمند(٢) والله أعلم. بعد هذه المعركة، تنازل جميع الأمراء عن السلطة والحكم في انطاكية إلى بوهيمند، حسب الوعود المعطاة له في بداية المعركة، باستثناء كونت تولوز، الذي احتفظ بالباب الواقع إلى جانب الجسر مع أبراجه المتاخمة له ووضع حامية من رجاله هناك لحمايتها. ولم يطل الوقت من غادر الكونت المدينة، فطرد بوهيمند جنود الحامية واستولى على المكان ولقّبه جنوده بالأمير وأصبح صاحب انطاكية.(٣)

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٣٦٤.
- رنسيمان، ص ٣٧١ - ٣٧٢.
- ابن الأثير، ج ٩، ص ١٦.
(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٣٧٢.
- وليم، ج ٢، ص ٣٦٥.
(٣) وليم، ج ٢، ص ٣٦٧.

الفصل الثامن

الاشتباكات العسكرية بين الغزاة الفرنجة والسلاجقة (١٠٩٩ - ١١٢٨)

١ - معركة معرّة النعمان (١١ كانون الأول ١٠٩٨)

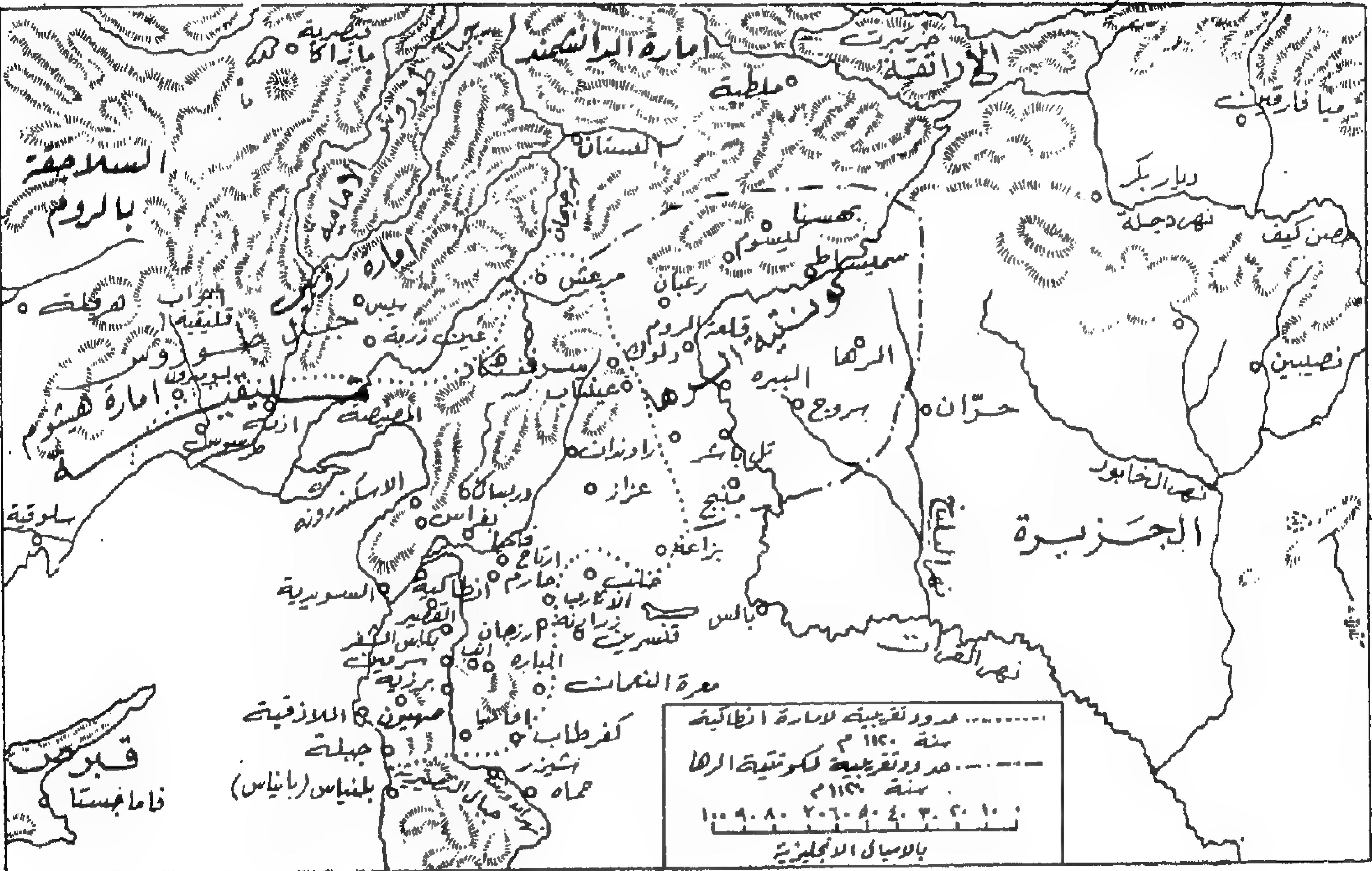
- السيطرة على عرقة وطرسوس:

خلال الأشهر الأولى لعام ١٠٩٨، كان أهالي بلدة معرّة النعمان يتابعون، بقلق، أخبار القتال في مدينة انطاكية، التي تبعد عن أرضهم ثلاثة أيام سير إلى الشمال الغربي. بعد انتصارهم في انطاكية، قام الفرنجة بغزو عدّة قرى وبلدات قريبة من المعرّة، مما دفع بعض الأهالي إلى تركها واللجوء إلى أماكن أكثر أماناً، مثل حلب وحمص وحماه.(١)

في ٢٣ تشرين الثاني ١٠٩٨، انطلق كونت تولوز وكونت فلاندر بصحبة أتباعهما وعدد كبير من الناس والفقراء من انطاكية باتجاه الجنوب، وضربوا الحصار على بلدتي الباره والروج، وكانتا محصّنتين بشكل جيّد وتقعا على بعد مسيرة يومين من انطاكية. فاضطرّ سكانهما فوراً إلى تسليم مدينتهما بالقوة.(٢) وبعد أربعة أيام وصل الفرنجة إلى أسوار مدينة معرّة النعمان، وكانوا بضعة آلاف من الفرسان والمشاة، فطوّقوا المدينة. وإذا تمكّن بعض الأهالي من الفرار قبل اكتمال التطويق، فأكثرية السكان وقعت في الفخ. لم يكن في المعرة أية قوى عسكرية نظامية، بل كان يوجد ميليشيا عادية، تألّفت من مئات من شبان المدينة، تنقصهم خبرة القتال والتدريب الصحيح.(٣) كان سكان هذه المدينة يتباهون بثرواتهم

(١) Maalouf, P. 54.
(٢) رنسيمان، ج ا، ص ٣٨٦.
- وليم، ج ٢، ص ٣٧٨.
(٣) Maalouf, P. 54.

شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي



الكبيرة وكانوا فخورين بشكل خاص من حقيقة أنهم قد قتلوا عدداً كبيراً من أفراد الصليبيين في احدى الاشتباكات التي وقعت من قبل، وهو عمل بطولي كانوا ما يزالون يتباهون به، ولهذا السبب احتقروا هؤلاء القادمين الجدد من الفرنجة.(١)

في صباح اليوم التالي لوصولهم، حاول الفرنجة الهجوم على المدينة لكنهم فشلوا، وبعد الظهر وصل بوهمند بجنوده وقام الجميع بهجوم ثانٍ ففشلوا أيضاً. خاصة وأنهم كانوا يفتقرون إلى السلالم التي تساعدهم للوصول إلى أعلى الأسوار والدخول إلى المعرة، لذلك تقرّر إجراء حصار محكم عليها. استمرّ الحصار لأسبوعين ولم يحدث شيء من التقدّم.(٢) لقد قاتل أهالي المعرة، الفرنج، قتالاً شديداً ومنعوهم من الوصول إلى الأسوار. لذلك «عملوا برجاً من خشب يوازي سور المدينة ووقع القتال عليه فلم يضر المسلمين ذلك.»(٣)

«فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين وتداخلهم الفشل والهلع وظنوا أنهم إذا تحصّنوا ببعض الدور الكبيرة امتنعوا بها، فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه فرأتهم طائفة أخرى ففعلت كفعلهم فخلا مكانهم أيضاً من السور، ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول حتى خلا السور فصعد الفرنج إليه على السلالم الخشبية فلما علوه تحيّر المسلمون ودخلوا دورهم».(٤) في ١١ كانون الأول ١٠٩٨، وصل الفرنجة في وقت واحد من جوانب مختلفة إلى أعالي الأسوار ودخلوا المدينة ونهبوها بلا رحمة وأعملوا السيف في رقاب العباد وأبادوا السكان بلا شفقة «كان الفرنج يقتلون كلّ مسلم، سواء كان رجلاً أم امرأة،

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٣٧٩.

(٢) وليم، ج ٢، ص ٣٨٠.

- رنسيمان، ج ١، ص ٣٨٦.

- زابوروف، ص ١١١.

(٣) ابن الأثير، ج ٩، ١٦.

(٤) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٦.

حيثما يجدونه»[1] لمدّة ثلاثة أيام فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير وملكوه وأقاموا أربعين يوماً فيها.[2] والشيء الثابت عند المؤرّخين، أن عدد القتلى عند ابن الأثير، كان مبالغاً فيه كثيراً، لأن عدد سكان المعرة يوم سقوطها، لم يكن يتعدّى العشرة آلاف.[3] فالمخيف ليس عدد القتلى في المعرة، بل الطريقة المفجعة التي استعملها الفرنجة في قتل الأهالي. لقد بالغ بوهيمند في معرة النعمان بقساوته وجشعه وغدره. فعند احتلال المدينة، أمر بواسطة المترجمين بأن «يجتمع» سكان المعرة مع نسائهم وأولادهم وأموالهم في القصر القائم في المدخل واعداً بإنقاذهم من الموت. وعندما اجتمعوا، قبض عليهم وانتزع منهم الذهب والفضة ومختلف المجوهرات... وأمر بقتل بعضهم وبسوق البعض الآخر إلى انطاكية لأجل بيعهم رقيقاً. كما قرّر رجال الكونت سان جيل إجبار السكان الذين اختبأوا في الأقبية على الخروج منها بفعل النار والدخان. «قتلوا جميع سكان المدينة برميهم من أسوار المعرة». ويقول المؤرّخ العربي ابن القلانسي: «إن الافرنج، نهبوا ما وجدوه وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به».[4] لقد دمّر الصليبيون أسوار معرة النعمان. وفي ١٣ كانون الثاني ١٠٩٩، غادر ريموند ورجاله المعرة باتجاه الجنوب، بعدما أشعل النار فيها. وقد سار حافي القدمين «على نحو ما يلائم مقدم الحجاج». وقد تبعه أمراء كثيرون ولم يبق في تلك المنطقة سوى بودوان وبوهمند.

سار الفرنجة إلى «عرقة فألقوا الحصار عليها لمدّة أربعة أشهر ونقبوا سورها عدّة ثقوب فلم يقدروا عليها وراسلهم الأمير منقذ، صاحب شيزر فصالحهم عليها وساروا إلى حمص وحاصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا فلم

(١) زابوروف، ص ١١١.
(٢) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٦.
(٣) Maalouf, P. 55.
(٤) زابوروف، ص ١١١.
- وليم، ج ٢، ص ٣٨٠ - ٣٨١.
- رنسيمان، ج ١، ص ٣٩١.

يقدروا عليها...».(١) والجدير ذكره بأن الفرنجة خسروا عدداً كبيراً من رجالهم ومسنّيهم أثناء تقدّمهم على طريق معرة النعمان - عرقة في لبنان، لقد استمرّ السلاجقة بالهجوم على مؤخّرة الحملة الزاحفة. فقد كانوا يشنّون غارات متواصلة على أعدائهم وينصبون لهم الكمائن في الأماكن والممرات الإجبارية، فيستولون على بعض العتاد والحيوانات ويأسرون من هرب ومن تاه من الناس. بقيت الأمور تجري على هذا المنوال إلى أن نصب الكونت كميناً لهؤلاء في مؤخّرة جيشه وهاجمهم في اللحظة المناسبة وهزمهم هزيمة منكرة فقتل من قتل وأسر من أسر واستولى على بعض الغنائم والخيول التي كانت ترعى في المراعي المجاورة، ومنذ ذلك الحين خفّت وطأة هؤلاء السلاجقة على الفرنجة حتى وصولهم إلى عرقة.(٢)

من عرقة، غادر المعسكر الفرنجي قوّة مؤلّفة من مئة فارس ومائتي جندي من المشاة وخرجوا بحملة نهب بحثاً عن المؤن الضرورية وتقدّم هؤلاء إلى مسافة بعيدة وصولاً إلى مدينة طرطوس، على بعد عشرين ميلاً من عرقة، وشنّوا هجوماً عنيفاً عليها، لكن السكان دافعوا عن مدينتهم بشجاعة كبيرة وكبّدوا الفرنجة خسائر كبيرة بالأرواح والعتاد، وبناء عليه قرّر المهاجمون تأجيل العمليات حتى الصباح وأملوا أن يكونوا أكثر قوّة للهجوم الجديد بدعم من رفاقهم الذين كانوا سيتبعونهم في اليوم الثاني. لكن السكان خافوا من وصول نجدة من الفرنجة يتعذّر عليهم مقاومتها، فغادروا المدينة ليلاً إلى الجبال المحيطة(٣) وقام الصليبيون بنهبها وحرقها.

---

(١) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٦.

- النواقير هي الواقعة قرب صور في لبنان والمعروفة اليوم باسم «الناقورة» والله أعلم.

(٢) وليم، ج ٢، ص ٣٨٦.

(٢) مماثل، ٣٨٨.

٢ - الدفاع عن القدس الشريف (حزيران - تموز ١٠٩٩):

٢١ - توطئة:

في حزيران ١٠٩٨، سقطت مدينة انطاكية بيد الفرنجة. وقد لقي هؤلاء في حصارها من المصاعب والأهوال ما حمل الكثير منهم على محاولة الهرب من الجيش والعودة إلى أوروبا. ثمّ أكملت الحملة طريقها في وادي نهر العاصي ففتحت معرة النعمان وانعطفت نحو الساحل حيث كانت تقوم المدن الساحلية المحصّنة.

كان على الفرنجة، هناك، أن يختاروا بين أمرين: أما أن يهاجموا المدن الساحلية المنيعة حتى تسقط مهما كلّفهم ذلك من وقت ومشقّة، أو أن يتركوها وراءهم شبه محاصرة ويتقدّموا إلى الأمام. ولمّا كان هدفهم الأساسي الوصول إلى القدس وأخذها في أقصر وقت ممكن فقد فضلوا الرأي الأخير. ودارت المفاوضات بين زعماء الفرنجة والولاة الفاطميين في المدن الساحلية. فتمّ الاتفاق بين الفريقين على أن لا يتعرّض أحدهما للآخر حتى تقرّر الحرب مصير بيت المقدس النهائي.

٢٢ - الحالة الانقسامية في بلاد الشام (١٠٩٨ - ١٠٩٩):

كانت الوحدة الداخلية مفقودة بين حكام سوريا وفلسطين السلجوقيين، كما من قبل، وكان الأمراء السلجوقيي في خلافات دائمة. ثمّ أن هزيمة كربوقا في انطاكية قوّضت تنظيم قوات السلاجقة، ناهيك بان الحروب والمناوشات بين الاقطاعيين السلجوقيين لم تهدأ نيرانها أمام العدو المهاجم من الشمال. وكان الخصام قد بلغ حدّته القصوى بين رضوان ابن تتش صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق شقيقه.

ابتهجت أيضاً الاسرات العربية المحلية بشمال الشام، لما حدث من تداعي قوّة السلجوقيين، وأظهرت الاستعداد لعقد اتفاقات مع الفرنج الغزاة. بل أن أمير حماه، وهو صهر رضوان، وأمير حمص، اللذين أبليا في القتال إلى جانب كربوقا، تخليا عن كلّ فكرة ترمي إلى مقاومتهم. وقد انتبه الفرنجة إلى أشهر أسرتين عربيتين، بني منقذ في شيزر، وبني عمار في طرابلس. فالأسرة الأولى تسيطر على البلاد الواقعة مباشرة أمام الصليبيين، والتي تمتدّ من نهر العاصي

إلى الساحل، بينما سيطرت الأسرة الثانية على الشريط الساحلي الممتد من وسط لبنان إلى الطرف الفلسطيني. وتعتبر صداقة هاتين الأسرتين، أو على الأقل حيادهما، أمراً جوهرياً إذا كان لا بدّ للفرنجة من الزحف جنوباً.(١)

٢٣ - التبدلات في فلسطين (١٠٩٨):

كان الفاطميون في مصر، شأنهم شأن البيزنطيين، يأملون في أن يفيدوا من الحملة الصليبية في إقرار انتعاشهم وافاقتهم. كان الحاكم الحقيقي لمصر هو الأفضل شاهنشاه، الذي خلف والده، بدر الجمالي «الأرمني» الذي اعتنق الإسلام، في الوزارة للخليفة المستعلي (الطفل). في هذه الأونة، عادت البعثة الفرنجية التي أرسلت إلى مصر للتفاوض أثناء حصار انطاكية. وكان هؤلاء المندوبون قد احتجزوا في مصر قسراً وبعنف لمدّة عام كامل وذلك وفق خطة استراتيجية، وقدم معهم مندوبون فاطميون يحملون رسائل فحواها يختلف إختلافاً عن رسائل البعثة السابقة.(٢) ويقال إن البعثة الفرنجية، لم يكن لديها السلطة للتفاوض في عقد محالفة، وإن الفرنجة لم تكن لديهم نية في مساعدة الفاطميين لاسترداد فلسطين، بل عقدوا العزم على أن يتقدّموا إلى بيت المقدس، الهدف الأساسي للحملة الصليبية.(٣)

لم يكن بودّ الأفضل البتة تسليم فلسطين وسوريا للصليبيين، لذلك عزم على أن يفيد من الحرب الناشبة في شمال الشام، فاستغلّ هزيمة كربوقا، فأرسلت مصر قواتها إلى فلسطين وسوريا. والمعروف أن إقليم فلسطين لا زال في أيدي ولدي ارتق، سكمان وايلغازي، اللذين اعترفا بسيادة دقاق أمير دمشق. ولما زحف الأفضل على

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٩٨.
- زابوروف، ص ١١٩.

(٢) وليم، ج ٢، ص ٣٩٣ - ٣٩٤.
- زابوروف، ص ١١٩.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٣٩٧.

فلسطين، انسحب ولدا ارتق إلى ما وراء أسوار القدس، إذ علما أن دقاقاً ليس بوسعه ان يبادر بالنهوض لمساعدتهما. وقد جهّز الأفضل جيشه بأفضل وأحدث آلات الحصار، ومنها ٤٠ منجنيقاً وقد استطاع الفاطميون، بعد ٤٠ يوماً من تدمير الأسوار وسمحوا للمدافعين بالانسحاب إلى دمشق.(١) وفي آب ١٠٩٨، استولى الفاطميون نهائياً على فلسطين، ولم يأت الخريف حتى أمدّوا حدودهم إلى ممر نهر الكلب على الساحل شمالي بيروت في لبنان. وفي نفس الوقت عمدوا إلى إصلاح وترميم أسوار واستحكامات مدينة القدس.(٢) لقد أدرك الوزير الأفضل حتمية الصدام مع الفرنجة ولكنه بذل جهده لتجنّبه. لقد حاول أن يعرض عليهم شرطاً مناسباً تماماً من وجهة نظره، وهو حرية الدخول إلى القدس من قبل الحجاج النصارى العزل في جماعات مؤلّفة كلّ منها ما بين مائتين وثلاثماية رجل، والعودة بسلام بعد الصلاة.(٣)

اعتبر الفرنجة هذه الرسالة إهانة لهم، فلم يوافقوا على هذه الشروط وقرّروا الزحف إلى القدس «كجيش واحد متحد يتقدّم بشكل مثالي والرماح مرفوعة»(٤) وهذا سيؤدي حتماً إلى الصدام العسكري في غير مكان.

٢٤ - السير نحو العدو:

قسّم الفرنجة جموعهم وقواتهم إلى رتلين كبيرين: الأول بقيادة كونت تولوز، سار شرقي جبال النصيرية، والثاني بقيادة غودفروادي بويون وروبرت الفلمنكي، تقدّمَ بمحاذاة الساحل. ولصرف هذه المجموعات عن القيام بعمليات عدائية، أرسل حاكم طرابلس جلال الملك، وحكام بيروت وصيدا وصور العرب، إلى قادتها، شتى

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٣٩٨.
- ابن الأثير، ص ١٩.

(٢) ابن الأثير، ص ١٩.

(٣) وليم، ج ٢، ص ٣٩٤.

(٤) Maalouf, P. 65.

الـهـدايا والـنـقـود والمنـتـوجـات الـغـذائـيـة، وبراميل مياه الشرب وبعثوا الرسل؛ وعرض هؤلاء على الفرنجة حرية العبور بلا عوائق، في ممتلكات أمرائهم الراغبين في وقاية مدنهم وبلداتهم وضواحيها والكروم الغنية وبساتين الخضار والفاكهة، من ضراوة وكثرة القطعان الفرنجية وجشعها. وهكذا لم يلق الصليبيون أية مقاومة تذكر،[1] سوى في طرابلس حيث حاول حاكمها التصدي لهم، فشنّوا فوراً، ضـد المديـنـة هـجـومـاً عـنـيـفـاً، فـألحقـوا «الاضـطـراب والـفـوضـى بـالقوات العربية وأجبروها على الفرار». وكانت حصيلة هذه المعركة مقتل سبعماية فرد من أفراد الحامية وفقد الفرنجة أربعة رجال... واحتفل الجيش الصليبي بعيد الفصح في العاشر من شهر نيسان.[2] ثمّ تابع الفرنجة زحفهم، يتقدّمهم بضعة مرشدين من لدن حاكم طرابلس، وعدد كبير من الموارنة اللبنانيين: بسبب معرفتهم بسائر الأرياف المجاورة والطريق الأسلم والأسهل إلى القدس.[3]

إن التزام الطريق الساحلي والاطمئنان إلى اتخاذها، يجنّبهم الاستيلاء على كلّ الحصـون الـكـبيرة الـواقـعـة في الـداخـل. والواضح أن القوة الضاربة للجيش الصليبي لم تتجاوز وقتذاك ألف فارس، وخمسة آلاف من المشاة، فلا يمكنها والحالة هذه الاشتراك في حرب الحصار.[4]

بعد طرابلس تقدّم الفرنجة حتى وصلوا إلى نهر الكلب، الحد الفاصل بين إمارة «بنو عمار» والفاطميين، وباجتيازهم الممر هذا، وضعوا نفسهم في حالة حرب مع الخليفة الفاطمي في مصر.[5] من نهر الكلب زحف الفرنجة جنوباً إلى بيروت وخيّموا على شاطىء النهر المحاذي لها حيث قدم حاكم

---

(١) زابوروف، ص ١٢٠.

Maalouf, P. 60. -

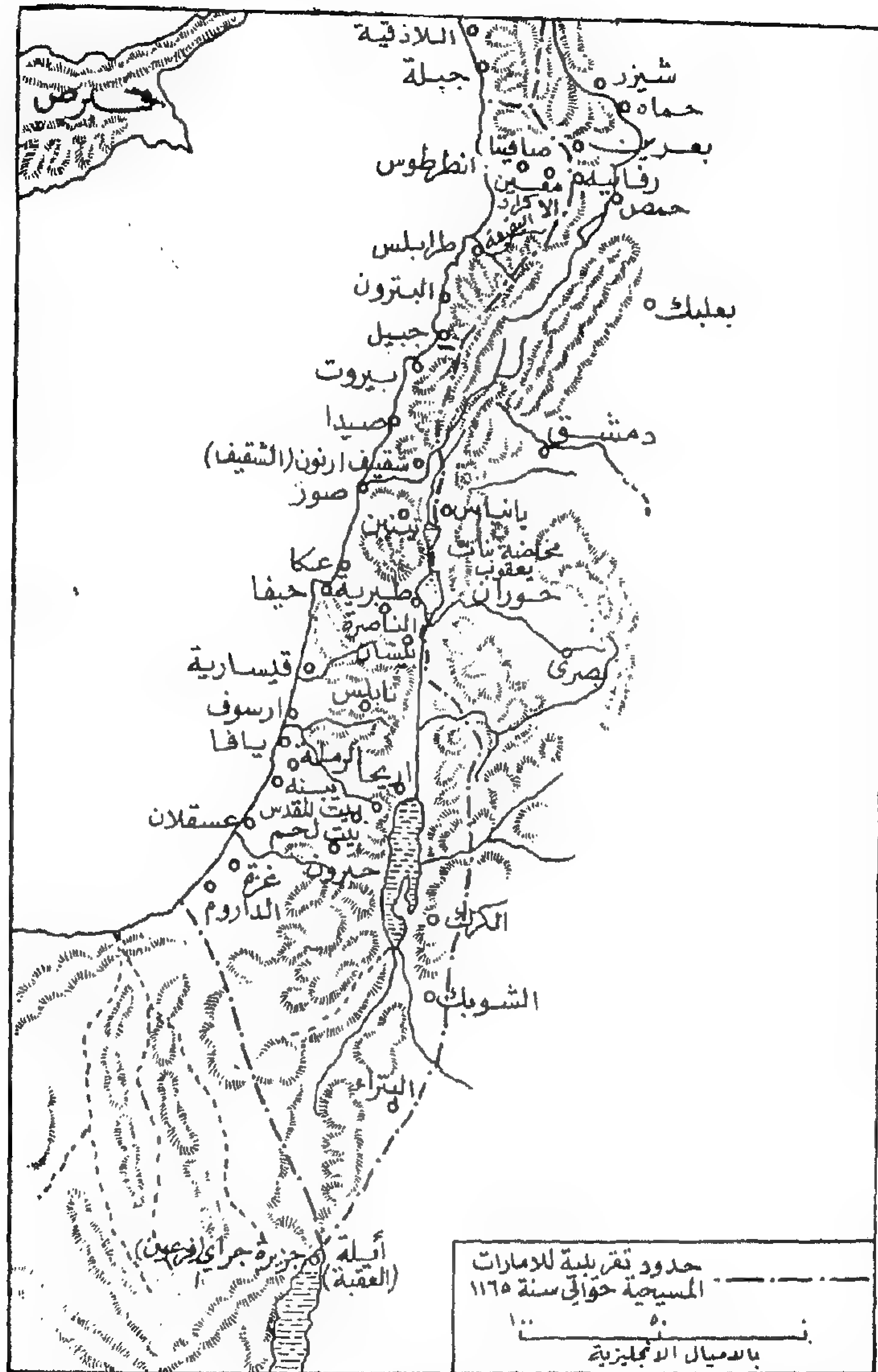
(٢) وليم، ج ٢، ص ٣٩٦.

(٣) وليم، مماثل، ص ٣٩٨.

(٤) رنسيمان، ج ١، ص ٤٠٠.

(٥) Maalouf. P. 61.

جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي



المدينة عارضاً عليهم المال وكميات كبيرة من المؤن. وفي اليوم التالي وصلوا إلى نهر الأولي في صيدا ولم يطل الوقت حتى راح حاكم المدينة يزعجهم بغارات متتالية على قواتهم فهاجموا قواته وقتلوا عدداً من الأفراد وأجبروا الباقين على الانسحاب إلى داخل المدينة.(١) تابع الفرنجة زحفهم نحو صور فعكا فاللد والرملة. وفي الرملة توقفوا يتشاورون في الخطوة القادمة، فارتأى بعضهم الزحف إلى مصر لأن في الاستيلاء عليها اطمئناناً من هجمات تباغتهم، ثمّ أن في ذلك ما يوفّر لهم انطلاقاً تجارياً برياً وبحرياً دون التعرّض لمخاطر الأسطول الفاطمي القوي.(٢)

أما الرأي الآخر فكان يرى أن لا بدّ من الزحف إلى القدس والاستقرار فيها، ثمّ التفكير بغيرها. وتمّ الأخذ بهذا الرأي. فأعطيت الأوامر للاستعداد لمتابعة الزحف واتجهت القوات من اللد إلى ارسوف ومنها إلى القدس الشريف. وفي الطريق استولت فصائل تنكريد وبودوان، له بورغ على بلدة «بيت لحم» وثبتوا رايتهم على مسلّة كنيسة القديسة مريم في البلدة.(٣)

٢٥ - التماس مع الفاطميين في مدينة القدس (٧ حزيران ١٠٩٩) - الحال العامة:

في ٧ حزيران ١٠٩٩ اقترب الصليبيون من القدس، وقد بانت لهم المدينة المقدّسة بأسوارها وأبراجها من الجبل العالي، المشرف عليها، وقد أطلقوا على الموقع مذ ذاك الوقت «جبل الفرح Mont Joie».(٤)

فوجىء افتخار الدولة، حاكم القدس باقتراب هذه الجموع اللجبة، وأدرك قوّتها فعمد إلى وضع «السموم في الآبار والينابيع المجاورة» واخرج غير المسلمين من المدينة

---

(١) وليم، ج ٢، ص ٢٩٩.

(٢) الأمين، ص ١٦٠.

(٣) زابوروف، ص ١٢٠.

(٤) زابوروف، ص١٢٠.

- رنسيمان، ج ١، ص ٤١٤.

وعهد بحراسة الأسواق إلى جماعة من العرب والسودانيين.(١)

كانت هذه المدينة تعتبر مقدّسة بنظر الشعوب التي تعتنق المسيحية والإسلام واليهودية. وقد جعل الموقع الجغرافي من القدس عسيرة المنال على من يهاجمها. كانت تقع في سهل مرتفع عالٍ ولم تكن مفتوحة إلاّ من الجهة الشمالية، وكانت تحميها الجبال من الجهات الأخرى، ناهيك عن أن حاكمها كان قد سيّج مزاغل الأبراج بحِزَمٍ من القطن والتبن، وملأ خزانات المدينة بكمية كافية من المياه العذبة الصالحة للشرب. وسيقت قطعان الماشية بعيداً في الجبال ورمّم الحاكم المراكز الدفاعية القديمة لكن نقطة الضعف عند افتخار الدولة كان ضعف الحامية العسكرية التي ستتصدّى للفرنجة في حال اقتحامهم المدينة. كان عديد الجنود حوالى الألف، ولكن جيشاً كبيراً هبّ من مصر إلى مساعدتهم بقيادة الوزير الأفضل.(٢)

البعض يسأل لماذا أخرج الحاكم النصارى من المدينة؟ والجواب واضح للغاية ومنطقي من الناحية العسكرية: فالحاكم لا يركن إليهم ولا يثق بهم، إذا درات المعركة ضد الفرنجة، إخوانهم في الدين. يضاف إلى ذلك ان إخراجهم يوفّر المؤن لمن بقي من السكّان في المدينة المحاصرة.(٣)

٢٦ - معركة الدفاع عن القدس:

«الافرنج يجوسون المدينة. شاهرين السيوف.

لا يشفقون على أحد، حتى على الذين يتوسّلون الرحمة...

سقط شعب الكفار ضرباتهم مثلما تسقط جوزات البلوط المهترئة من شجرة البلوط حين يهزّون أغصانها...»

في هذه الأشعار، الصريحة، والخشنة في مسحتها الطبيعية والمفعمة بكلّ جلاء بالعداء «للمسلمين»، يحكي مؤرّخ قديم نقلاً عن أقوال شهود العيان، عن المآثم والفظائع

---

(١) الأمين، ص ١٦٠.

(٢) زابوروف، ص ١٢١.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٤١٦.

التي اقترفها الفرنجة في القدس حين احتلوها في ١٥ تموز ١٠٩٩. كان الصليبيون الذين تملكهم الانتعاش والالهام الديني يأملون سراً في أن تسقط استحكامات القدس من تلقاء نفسها ما أن يقتربوا منها، لكن حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر. ابتدأ حصار المدينة في ٧ حزيران، ١٠٩٩، غير أنه لم يلبث أن تبيّن أن الزمن في صالح أهل القدس. إذ توافر لدى افتخار الدولة المؤن والمياه، وفاقت أسلحته أسلحة الفرنج، وقد صمدت الأسوار أمام قذائف منجقيات الصليبيين الذين واجهتهم مشاكل تدبير الماء. فالمصدر الوحيد كان بركة السلوان، الواقعة في أسفل الأسوار الجنوبية، التي تتعرّض لقذائف الفاطميين في المدينة.(١) لذلك كان لا بدّ لهم أن يسيروا ستة أميال أو أكثر لجلبها وكثيراً ما كانت حامية المدينة ترسل جماعات صغيرة العدد، تكمن بالطرق المؤدية إل الينابيع. ولقي عدد كبير من الفرنجة مصرعهم. أخذت المؤن في النفاذ أيضاً، إذ لا يتوفّر الغذاء بالقرب من المدينة. وزاد في قلق الفرنجة الحرارة والتراب والافتقار إلى الظل. فقرّروا الاستيلاء على المدينة بالقيام بمهاجمتها.

في ١٣ حزيران، هاجم الصليبيون القدس وتغلّبوا في شماليها على الأسوار الخارجية، غير أنه لم يتوافر لديهم من السلالم لتسلّق الأسوار في آن واحد وفي جهات عديدة، فقرّروا الانسحاب.(٢)

وترتب على فشل الهجوم، أن اشتدّت خيبة أملهم، غير أن هذا الهجوم كشف للقادة الفرنجة عن الحاجة إلى الإكثار من نصب آلات الحصار، لكنهم يفتقرون إلى المواد التي يصنعون منها هذه الآلات.(٣)

وكذلك لم يكن عندهم العدد الكافي من الرجال الصالحين للقتال، كما حسبوا أنفسهم، أكثر من ١٢ ألفاً، «ناهيك بأنه كان عندنا، كما كتب ريمون دي سان جيل،

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٤١٨.
(٢) رنسيمان، مماثل، ص ٤١٦.
- وليم، ج ٢، ص ٤١٦.
(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٤١٩.

جمهور كبير من المقعدين والفقراء. أما الفرسان في صفوف قواتنا، فكان عددهم /١٢٠٠/ أو /١٣٠٠/ لا أكثر كما أعتقد...»، كما افتقروا إلى المنجانيقات الصالحة والجاهزة للاستعمال.(١)

لم يطل الوقت حتى رست بعض السفن الإنكليزية والجنوية في يافا، حاملة إلى الفرنجة الحبوب والخمور والحبال والمسامير والفؤوس وغير ذلك من الأدوات ومن مواد البناء الضرورية لصنع أبراج الحصار وأدوات لهدم الأسوار أي الكبوش والسلالم حاصر الأسطول الفاطمي ميناء حيفا وكان متفوّقاً، ففكّ الصليبيون هذه السفن واستعملوا أقسامها لأجل المنشآت الحصارية.(٢)

في ١٠ تموز، أضحت الأبراج الخشبية جاهزة، فجرى دفعها على عجلاتها، إلى حيث اتخذت أمكنتها: الأول، عند السور الشمالي والآخر عند جبل صهيون والثالث وهو أقل حجماً، فتمّ إنشاؤه كي يتخذ مكانه عند الطرف الشمالي الغربي من الأسوار.(٣) مقابل هذه التحضيرات الفرنجية، بادر افتخار الدولة على تدعيم الأجزاء الضعيفة بالأسوار. وقذفت آلات الحصار قوات الفرنجة بقذائف مستمرّة من الحجارة ومن القوارير الملتهبة لمنعها من الاقتراب من أسوار القدس. لقد قابل أهل المدينة الخداع بالخداع واستفادوا بشكل جيّد من كافة وسائل المقاومة، وكان في داخل القدس كمية كافية من العوارض الخشبية المقطوعة من أشجار طويلة.(٤) جلبت إليها قبل وصول الفرنجة، بتدبّر حكيم للدفاع عن القدس. وقد أنشأ الحاكم داخل الأسوار، آلات حربية من هذه العوارض الخشبية معادلة في ارتفاعها لارتفاع آلات الفرنجة وأبراجهم، وكانت مصنوعة من مواد أفضل. واحتفظ بالحرس

---

(١) زابوروف، ص ١٢١.

(٢) زابوروف، مماثل.

- رنسيمان، ج ١، ص ٤٢٠.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٤٢٣.

(٤) وليم، ج ٣، ص ٤٢٠.

باستمرار على الأسوار والأبراج وقد أحبطوا بمهارة، كافة جهود الصليبيين. فالجميع داخل القدس محاصر والجميع يجب أن يعمل بكدّ ونشاط ليدافع عن مدينته.[1]

بدأ الهجوم في ليل ١٣ - ١٤ تموز، وتقرّر أيضاً أن يبدأ في وقت واحد، مع الهجوم الرئيسي من جبل صهيون إلى القطاع الشرقي من السور الشمالي، هجوم مخادع على الزاوية الشمالية الغربية للسور. وكان أول عمل لا بدّ أن يقوم به المهاجمون، هو أن يجعلوا الأبراج الخشبية ترتكز على الأسوار، وتطلّب ذلك ردم الخندق الذي يجري «من تحت أقدامهم». وقد تعرّضوا خلال ليل ١٣ تموز والنهار التالي لقذائف ثقيلة ألقتها «منجانيقات» أهل المدينة، من الحجارة والقوارير الملتهبة. وفي مساء ١٣ تموز، نجح رجال ريموند في دفع برجهم الخشبي فوق الخندق، حتى بلغ السور.[2] غير أن الدفاع كان عنيفاً، والمرجح أن افتخار الدولة تولى القيادة في هذا القطاع من السور. وفي صبيحة اليوم التالي الجمعة اقترب البرج الثاني من السور الشمالي، وتولّى توجيه البرج من الطبقة العليا نحو غوديفري وأخوه يوستاس. وحوالى منتصف النهار، نجحا في إقامة جسر يصل بين البرج وقمّة السور. ولم يكد يتم الاستيلاء على جزء من السور حتى أتاحت السلالم، لعدد كبير من المهاجمين أن يصعدوا وينفذوا إلى داخل المدينة، ولما تبيّن للمسلمين، انهيار أسباب دفاعهم، هربوا نحو ساحة الحرم الشريف، حيث قامت قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وقد وطّدوا العزم على أن يتخذوا من المسجد معقلهم الأخير، لكن الوقت لم يسمح لهم بجعله صالحاً للدفاع. ففي نهار الجمعة ١٥ تموز، سقطت المدينة لكن الغزاة تكبّدوا خسائر فادحة، أثناء الحصار المديد وفي أيام الانقضاض بالذات، تحت وابل الحجارة والسهام والقذائف المحشوة بالمواد السريعة الالتهاب التي انهال بها المقاتلون المسلمون على رؤوس الفرنجة المحاصرين.[3]

(١) وليم، ج ٣، ص ٤٢٧ - ٤٢٨.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٤٢٤.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٤٢٥.

لقد أبدى العرب الذين يدافعون عن المسجد الأقصى والعرب الذين تمركزوا في برج داود الواقع في القسم الغربي من المدينة، مقاومة بالغة الشجاعة والجرأة في وجه الغزاة.(١)

هاجم تانكرد ظهراً، المسجد الأقصى، أثناء احتشاد الأهالي والمقاتلين بداخله، وفي أعلاه. فقاوموه بشراسة بالغة لكنهم عادوا واستسلموا له وأذعنوا لشروطه ووعدوه بأن يبذلوا له فدية كبيرة، وأخذوا علمه ورفعوه فوق المسجد، على أن تاركرد أخذ يعيث فساداً في قبة الصخرة، يدمّر وينهب ما يشاء.(٢)

وفي هذه الأثناء كان افتخار الدولة يقاوم قوات ريموند في الأحياء الجنوبية بالمدينة. غير أنه أدرك عند العصر ان كلّ شيء قد ضاع، وأنه لا أمل للمقاومة، فانسحب إلى برج داود وهناك عرض أن يسلّمه إلى ريموند مع مبلغ كبير من المال، مقابل الإبقاء على حياته وحياة حرسه الخاص. وافق القائد الفرنجي على هذه الشروط، فاحتلّ البرج وخرج افتخار الدولة وحرسه من المدينة تحت الحراسة وذهبوا إلى الحامية الإسلامية في عسقلان. وتابع الفرنج مجزرتهم في المسجد الأقصى وقتلوا «ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمّة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة وعدداً كبيراً من القناديل الصغيرة المذهّبة والمفضضة...» والله أعلم.(٣)

لقد انطلق الفرنجة في ذلك اليوم وتلك الليلة في شوارع المدينة، يقتلون كلّ من يصادفونهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز «وحينما توجّه ريموند سان جيل في ضحى اليوم التالي لزيارة ساحة المسجد، أخذ يلتمس طريقه بين الجثث

---

(١) زابوروف، ص ١٢٢.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٤٢٥.

(٣) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٩ - «في المسجد الأقصى ذبح الصليبيون ما لا يقل عن ١٠ آلاف شخص؛ هذا العدد يذكره شهود العيان اللاتين (زبوروف، ص ١٢٣).

والدماء التي بلغت ركبتيه... والله أعلم».(1)

لقد تركت مذبحة القدس أثراً عميقاً في جميع العالم. ليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدّت إلى خلو المدينة من المسلمين. بل أن كثيراً من النصارى اشتدّ جزعهم لما حدث.

بعد ٣ أيام، توجّه أمراء الحملة الفرنجية في موكب يتسم بالخشوع، إلى الحي المسيحي المهجور، منذ أن أبعد افتخار الدولة سكانه عن المدينة، ليؤدّوا صلاة الشكر في كنيسة القيامة.(2) فشاهدوا حولها أكواماً من الرؤوس والأيدي والأرجل.

٣ - معركة عسقلان (١٢ آب ١٠٩٩):

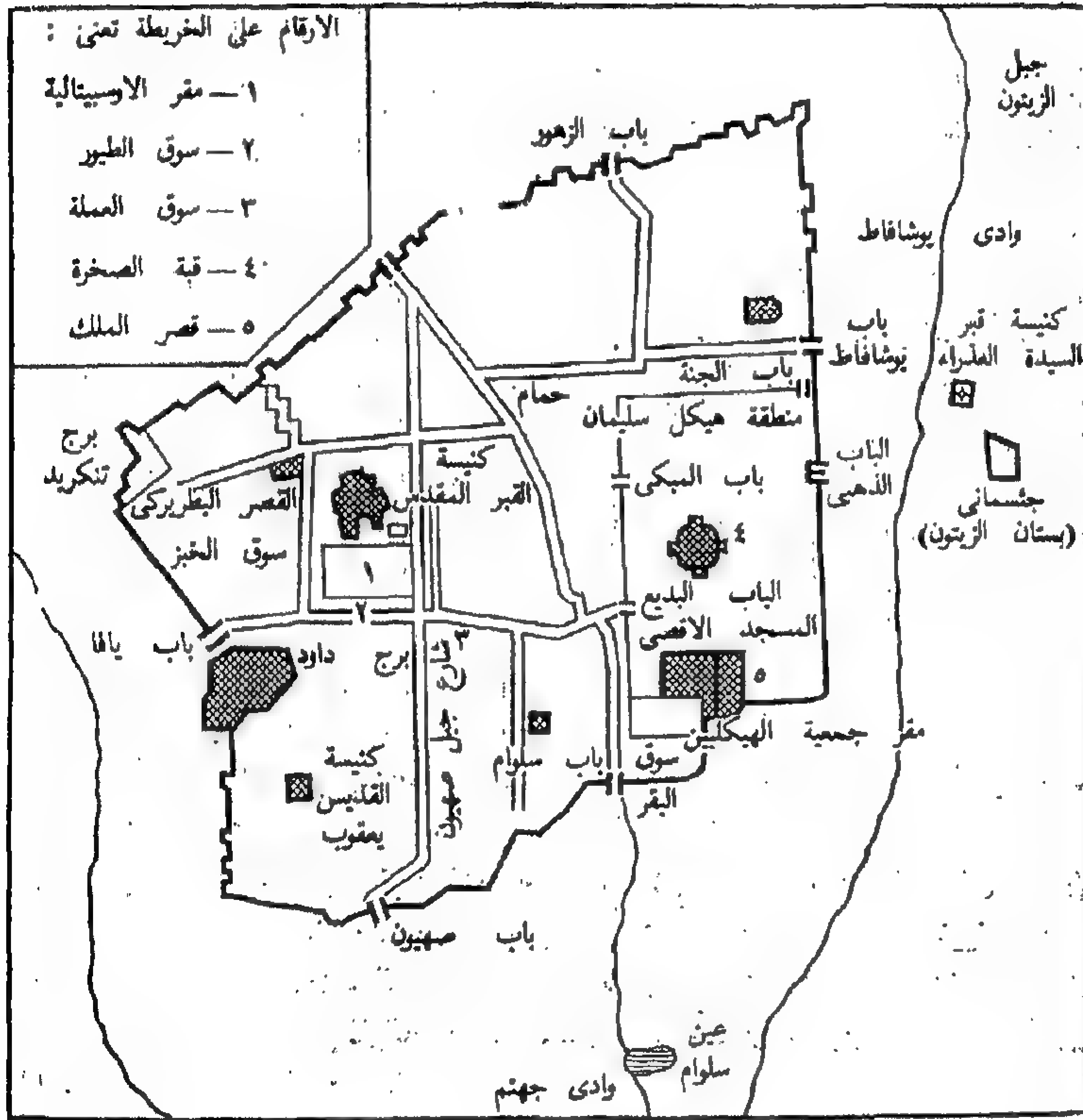
بعد شهر تقريباً على مذبحة القدس، اضطرّ الصليبيون إلى امتشاق السلاح من جديد. فمن الجنوب، كان الوزير الفاطمي الأفضل، على رأس ثلاثين ألفاً من قواته، يتقدّم ببطىء مقصود نحو الحدود الفلسطينية التي لم يصلها إلاّ بعد عشرين يوماً من هزيمة حاكم القدس، افتخار الدولة».(3)

كان الوزير متردّداً بالهجوم مباشرة نحو القدس، فقواته كانت تفتقر إلى العتاد اللازم للحصار، لذلك قرّر إقامة معسكره بالقرب من عسقلان، ثمّ أوفد بعثة إلى القدس للتفاوض ولسبر نوايا العدو الصليبي. وصلت البعثة الفاطمية إلى المدينة ونقلت فوراً لمواجهة القائد العام الفرنجي الجديد «غوديفروادي بويون»، فبلّغته أسف الوزير الأفضل وشكواه من أن الفرنجة استغلّوا نيته الصافية بالسلام وعرضت عليه تسوية الأمور بين الفاطميين والفرنجة إذا وافق على الانسحاب مع قواته من فلسطين.(4)

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٤٢٦.
(٢) زابوروف، ص ١٢٤.
(٣) Maalouf, P. 70.
- بماثل، ص ٧١.
- وليم، ج ٣، ص ٤٥٨ - ٤٥٩.
(٤) رنسيمان، ج ١، ص ٤٣٩ - ٤٤٠.
- وليم، ج ٣، ص ٤٥٨ - ٤٥٩.

القدس تحت حكم الصليبيين



للإجابة على هذا العرض، ورغم الخلافات العديدة، بين القادة، خرج غودفري من القدس وبصحبته روبرت فلاندر وكلّ الجيش الفرنجي ولما وصلوا إلى الرملة، التقوا بقوة جديدة في الصليبيين وصدر الأمر إلى كافة القوى ليعلن خطورة الموقف، ويحضّ كلّ رجل قادر على القتال ان يلتحق بالجيش. اقتنع الجميع ولم يبق في القدس إلاّ حامية صغيرة. وفي صباح ١١ آب، احتشد كلّ الجيش الصليبي في «ابلين» على مسافة بضعة أميال إلى الوراء من الرملة، وزحفوا مباشرة إلى سهل أسدود.[(١)] اكتشفت قوة الاستطلاع الفرنجية لدى اقترابها ان حشداً تألّف من أعداد كبيرة من المواشي والخيول والجمال جلبت لتموين الجيش المصري. فساقوها مع بعض الأسرى. وتمّ الحصول منهم على معلومات كاملة عن وضع الفاطميين وخططهم، وعلم ان الوزير قد نصب معسكره بالقرب من هذا المكان وعلى بعد سبعة أميال تقريباً، وقد عقد العزم على الزحف وسحق الجيش الصليبي بعد يومين.[(٢)]

أمضى الجيش الفرنجي ليلته هناك بعدها نفذت قواته إلى سهل المجدل المشهور بخصوبته وزراعته. وتقع المجدل إلى شمال عسقلان التي يعسكر فيها الوزير مع جيشه. ولما ظهرت تباشير الفجر، نظّم الصليبيون قواتهم في تسع فرق على الشكل التالي:

- ٣ فرق، بقيادة ريموند، مركزها الميمنة عند البحر.
- ٣ فرق، بقيادة روبرت فلاندر وروبرت النورمندي مركزها القلب.
- ٣ فرق، بقيادة جودفري، مركزها الميسرة.

وهكذا كان الفاطميون سيجدون في أي نقطة قد يُهاجم منها، تنظيماً ثلاثياً للجنود للتصدي لهم.[(٣)] ولم يكد ينتهي التمركز،

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٤٣٩ – ٤٤٠.
- وليم، ج ٣، ص ٤٥٨ – ٤٥٩.

(٢) وليم، ج ٣، ص ٤٦٠.
- رنسيمان، ج ١، ص ٤٤٠.

(٣) وليم، ج ٣، ص ٤٦٠.

حتى قام الفرنجة بهجوم على الجيش المصري. والواقع ان الوزير الأفضل أخذ على غرّة، إذ ان كشافته لم تلحظ اقتراب الجيش الصليبي، لذلك لم يتوقّع الوزير ان يكون الفرنج على مسافة بالغة القرب منه. لقد لعب عنصر المفاجأة دوراً كبيراً في هذه المعركة. فلم تبد القوات المصرية إلاّ مقاومة بسيطة، ولم تمض فترة وجيزة حتى فروا من ساحة القتال مذعورين. ولجأ عدد كبير منهم إلى حرش أشجار الجميز، فلقوا مصرعهم حرقاً. لقد كانت هزيمة ساحقة للمصريين. ويروي المؤرّخ العربي ابن القلانسي: «وتمكّنت سيوف الفرنج من المسلمين... ولم ترحم لا مشاتهم ولا متطوّعيهم ولا سكّان المدينة... لقد خسر المسلمون عشرة آلاف قتيل».(١)

لقد استولى الجيش الفرنجي على غنائم وافرة وكبيرة من المعسكر المصري: منها علم الوزير وسيفه وعلى كمية ضخمة من أمتعة الجيش وسبائك الذهب والأحجار النفيسة، ومقادير كبيرة من الأسلحة والدواب. «بحيث أصبح الحجاج متخمين إلى حدّ الاشمئزاز وإلى درجة كرهوا الكعك والعسل... لقد جعلتني الوفرة بائساً».(٢)

في ١٣ آب، عاد الصليبيون إلى القدس مثقلين بالغنائم في موكب الظافر المنتصر، بعد ان أشعلوا النيران في كلّ ما لم يستطيعوا حمله.(٣) وعاد الوزير مع مقرّبيه إلى مصر.

ان هذا الانتصار أكّد ان الفاطميين ليس بوسعهم ان يستردّوا ما فقدوه من الأراضي في فلسطين وأكّد أيضاً ان الفرنجة ليس بوسعهم أيضاً احتلال كلّ فلسطين، فلا زالت البحرية المصرية تسيطر على السواحل وتبسط حمايتها على الموانىء البحرية ان كان في لبنان أو في فلسطين. في نهاية آب ١٠٩٩، غادر روبرت النورمندي وروبرت فلندر وريموند، فلسطين والشرق مع قواتهم

---

(١) Maalouf, P. 71.

(٢) وليم، ج ٣، ص ٤٦١.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٤٤١.
- زابوروف، ص ١٢٦.

إلى بلدانهم بعدما ادّوا واجبهم الديني كما أعلنوا.(١)

٤ - الغارات المتبادلة بين المسلمين والفرنج (١٠٩٩ - ١١٠٢):

٤١ - الفرنج يخضعون مدينة «ارسوف» في فلسطين (خريف ١٠٩٩):

بعد مغادرة القادة الفرنج الثلاثة مدينة القدس مع قواتهم إلى بلادهم، لم يبقَ في القدس إلاّ الدوق غودفري الذي عهد إليه الاهتمام بالمدينة، وتانكرد الذي كان الدوق قد استبقاه معه كرجل حكيم ونشيط وناجح للمشاركة في المسؤولية.

كانت القوة الصليبية الباقية تحت تصرّف غودفري لا تتعدّى الثلاثماية من الفرسان وألفين من جنود المشاة.(٢) وخلال ثلاثة أشهر التحق به الكثير من الفرسان والمشاة من انطاكية ومن الرها. وكانت المدن التي أصبحت تحت سيطرة الفرنج قليلة، وكانت تقع وسط الفاطميين بحيث لم يكن يستطيع الصليبيون الانتقال من واحدة إلى أخرى، عندما تدعوا الحاجة، دون خطر كبير من العسكر الفاطمي. وكثيراً ما كان المسلمون يدخلون إلى المنازل في تلك القرى أو المدن ويبطشون بالكثيرين في عقر دارهم، مما أدّى إلى أن يهجر بعضهم منازلهم خلسة وكثيرون علناً مع الممتلكات التي كانوا استولوا عليها عنوة من المسلمين، وبدأوا بالعودة إلى بلادهم، لأنهم كانوا يخافون من ان يتمكّن الفاطميون أو السلاجقة يوماً ما، من الانتصار على الفرنجة، ولن يكون هناك من ينقذهم من المذبحة الوشيكة.(٣)

كان غودفري يرغب بتوسيع مملكته، رغم قلّة عسكره، لذلك جمع قواته والاحتياط العسكري بالإضافة إلى أهالي المنطقة وحاصر مدينة بحرية تقع بالقرب من يافا اسمها أرسوف. وكانت هذه المدينة جيّدة الدفاع برجال شجعان وجسورين ومجربين في استخدام السلاح، وكانت مجهّزة بكميات كبيرة من المؤن المختلفة والأشياء

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٤٤٢.

(٢) وليم، ج ٣، ص ٤٧١.

(٣) وليم، مماثل، ص ٤٧٢.

الأخرى الضرورية، مثل الأطعمة والمياه. وكان الصليبيون لا يستطيعون منع السكان من الدخول والخروج من وإلى المدينة عن طريق البحر، لأنهم كانوا يفتقرون إلى سفن تسدّ هذه الثغرة.[1]

رأى الأهالي، أنه من الحكمة، الاتفاق مع غودفري، فبعثوا إليه الرهائن الذين كانوا قد ألقوا القبض عليهم منذ فترة وسمحوا أن يدخل المدينة جيرار افيسنز من فرسان هانيو وصديق جودفري باعتباره من نزلاء ارسوف. وعندما اشتدّ الهجوم على المدينة، كان جيرار أول ضحية لهذا الهجوم، وقد بادر رجال ارسوف إلى شدّ وثائقه وتعليقه على أسوار المدينة، فتعرّض بذلك لسهام المهاجمين. لم يتمكّن الفرنجة أن يحدثوا أثراً في أسوار ارسوف. فالبرجان الخشبيان اللذان يسيران على العجلات، دمّرهما الواحد بعد الآخر. ما قذفته عليهما حامية المدينة من النيران الإغريقية. في ١٥ كانون الأول ١٠٩٩، رفع الفرنجة الحصار عن ارسوف، غير أنهم أبقوا نصف جيشهم في مدينة الرملة للإغارة على الأراضي المجاورة لأرسوف، فيستحيل بذلك على سكانها أن يفلحوا حقولهم.[2] فقاموا بغارات على ظهير المدن الفاطمية الواقعة على الساحل، مثل عسقلان وقيسارية وعكا وبفضل مساعدة بحارة جمهورية بيزا الايطالية أعاد غودفري ترميم مرفأ يافا، فهرعت إليه السفن من جميع موانىء ايطاليا والبروفانس، يجذبها الأمل في التجارة مع الدولة الجديدة. وبفضل مساعدة هذه السفن، استطاع غودفري ان يفرض الحصار على ساحل فلسطين، وازدادت المشقة أمام السفن الفاطمية، لجلب المؤن بحراً إلى الموانىء الإسلامية. فقام الخصمان بأعمال القرصنة على نطاق واسع.[3]

---

(١) وليم، ج ٣، ص ٤٧٢.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٤٥٦.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٤٥٨.

- وليم، ج ٣، ص ٤٧٢.

في منتصف آذار ١١٠٠، أرسل الفاطميون عن طريق البحر، بناء على دعوة عاجلة من سلطات أرسوف، سرية من الجنود لتعزيز حاميتها. ولم يطل الوقت حتى قام هؤلاء بهجوم مضاد على الفرنج، غير أنهم لم يلبثوا أن وقعوا في كمين، لقي فيه مصرعه الجانب الكبير من قوتهم، مما دفع سلطات المدينة إلى إرسال بعثة من رجالهم وصلت في ٢٥ آذار، وقد حملت إلى غودفري، هدية رمزية، كانت عبارة عن مفاتيح أبراج المدينة، وعرضت أن تدفع جزية سنوية. فقبل القائد خضوعهم واذعانهم. وازداد سروره حينما ظهر فجأة في القدس، جيرار صديقه، أرسلته سلطات ارسوف، بعد أن تمّ شفاؤه من الجراح التي أصابته، للدلالة على نيتها الطيّبة. ولم يلبث أن احتذى بارسوف، عسقلان وقيسارية وعكا وأصبحت العلاقات ودية بين سلطاتها والفرنجة.(١)

٤٢ - غارات الفرنجة على الأردن:

ازداد نفوذ جودفري بين المسلمين المجاورين مما شجّعه على أن يحاول مدّ سلطانه على الأراضي الواقعة وراء نهر الأردن. خاصة بعدما تفاهم مع شيوخ القبائل وسمح لهم بإرسال قوافلهم التجارية عبر فلسطين إلى ميناء يافا المسيحي. لقد منع الإيطاليون التجارة بين المدن الساحلية الإسلامية ومصر الأمر الذي جعل هذه المدن تعتمد في تجارتها على الصليبيين(٢)

ففي أرض السواد إلى الشرق من فلسطين، حكم أمير كان الفرنجة يطلقون عليه اسم «الفلاح السمين»، لم يعترف بسيادة الفرنج، غير انه نقض ولاءه عندما ارتحل تانكرد، والتمس المساعدة من دقاق أمير دمشق.

ففي أوائل أيار ١١٠٠، هاجم الصليبيون منطقة السواد وتوغّلوا فيها حتى وصلوا إلى جوف الجولان. وأثناء عودتهم في ١٨ أيار، مثقلين بغنيمة وافرة، انقضّ الأمير دقاق

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٤٥٩.

- ابن الأثير، ج ٩، ص ٤٣.

السلجوقي على مؤخرة القوّة التي تولّى حمايتها تانكرد. ولم تعلم المقدّمة بما حصل للمؤخّرة فتابعت سيرها. ولم يتمكّن تانكرد التخلّص من هذه الغارة إلاّ بعد أن فقد عدداً كبيراً من رجاله، وأضاع كلّ نصيبه من الغنيمة. غير أن الأمير دقاق لم يكن من القوة ما يجعله يطارد الفرنج، فرجع إلى دمشق. ولم يطل الوقت حتى قام تانكرد بغارة جديدة على أراضي دمشق، بلغت من العنف والشدّة، ان طلب دقاق عقد هدنة.[١] وافق تانكرد وبعث إلى دمشق بستة فرسان، يحملون رسالة تتضمّن أنه ينبغي على الأمير دقاق اما اعتناق المسيحية واما مغادرة عاصمة بلاده دمشق. فكان ردّ دقاق على الرسل، بأنه ينبغي عليهم أن يعتنقوا الإسلام وإلاّ لقوا مصرعهم. فلم يتخلّ عن دينه إلاّ فارس واحد، وتعرّض الخمسة الباقون للقتل.[٢] بعد ذلك قام الصليبيون بغارة تفوق الغارة السابقة عنفاً وشدّة وظلّوا أسبوعين يعيثون فساداً في منطقة الجولان، بينما لزم المسلمون مواضعهم خلف أسوار مدنهم.[٣]

٤٣ - السلاجقة يأسرون بوهمند أمير انطاكية:

كان الأمير جبرائيل الأرمني يحكم مدينة «ملطية» الواقعة في بلاد الجزيرة وراء نهر الفرات. وكان هذا الأمير خائفاً من أن يغزو بلاده الأمير السلجوقي انوشتكين بن الدانشمند حاكم سيواس، فأرسل يطلب من أمير انطاكية، بوهيمند الحضور فوراً ليستولي على مدينة ملطية وفق شروط محدّدة.[٤] وافق الأمير الفرنجي على الطلب وترك في انطاكية حامية كبيرة، وتوجّه نحو الجزيرة ولم يصحب معه إلاّ ابن عمّه، ريتشارد أمير سالرنو، وثلاثماية من الفرسان

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٤٦٠.

(٣) رنسيمان، مماثل.

(٤) وليم، ج ٣، ص ٤٧٤.

وأتباعهم من المشاة. وانضمّ إليه أسقفا انطاكية ومرعش الارمنيان.(١)

لقد قدّر بوهمند أن باستطاعته قهر السلاجقة بقوّة صغيرة العدد، وقد أخطأ في هذا التقدير. فسار دون اكتراث وارتقى التلال التي تفصل ملطية عن وادي نهر قاسو ودخل بلاد الجزيرة، وقبيل وصوله إلى غايته، هاجمه فجأة الأمير انوشتكين السلجوقي، وكان هذا القائد قد تلقّى معلومات مسبقة عن القوة الفرنجية ووجهة تقدّمها وعددها، وباغتهم وانقضّ عليهم بهجوم صاعق، فقتل بعضهم وهرب الباقون الذين لم يتمكّنوا من الصمود في وجه حشود الفرسان السلجوقيين. وقد لقي الأسقفان الأرمنيان مصرعهما، اما بوهمند فقد تمّ أسره مع ابن عمه وقيّدا بالسلاسل الحديدية. بعدها حاصر السلاجقة ملطية، آملين أن يستولوا عليها فوراً.(٢)

والجدير ذكره ام بوهمند، حينما رأى أنه سيقع في الأسر، قطع خصلة من شعره الأصفر، وبعث بها داخل رسالة مع جندي، استطاع أن يتسلّل بين السلاجقة المحدّقين به، وأسرع إلى الرها. وفي الرها سلّم أميرها بلدوين رسالة بوهمند.(٣)

استدعى بودان احتياطه العسكري، وأخذ المعدات اللازمة للزحف وانطلق بسرعة إلى ملطية، التي تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن الرها، وقد قطعها بسرعة كبيرة. كانت قوّة بودوان لا تتعدّى ١٤٠ فارساً، على أن كشافته كانت بالغة الروعة، وما سبقه من الشائعات زاد في حجم جيشه الصغير. وكان انوشتكين قد مضى غداة انتصاره في الزحف حتى بلغ أسوار ملطية، فأظهر لحاميتها رؤوس القتلى من الفرنج والأرمن.(٣) وعندما وصل بودوان إلى مشارف المدينة، رفع الأمير السلجوقي الحصار وانسحب إلى بلاده حاملاً الغنائم

---

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٤٧٤.

(٢) ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٩.

- وليم، ج ٣، ص ٤٧٤.

(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٤٧٦.

الكثيرة والأسيرين المقيّدين بالسلاسل، حيث ظلاّ معتقلين زمناً طويلاً في قلعة «نقصار» التي تقع في مكان بعيد في جوف جبال «بُنطس» وقد طارده بودوان لمسافة ثلاثة أيام، غير أنه أدرك في النهاية أن التوغّل في داخل هذه البلاد، ليس مستحباً وسينتج عنه أمور كثيرة مأسوية. خاصة وأن القوّة التي استعملها كانت قليلة العدد وكان السكان غير موثوق بهم. فعاد إلى ملطية. فرحّب به أميرها وجعل نفسه تحت سيادته، فترك بودوان خمسين فارساً ليتولّوا الدفاع عن المدينة. وبفضل هؤلاء الفرسان، استطاع أمير ملطية أن يردّ، ما تعرّض له، بعد بضعة أشهر، من هجوم من قبل انوشتكين.(١)

٤٤ - السلاجقة يكمنون للفرنجة على مقطع نهر الكلب (١١٠٠):

في الثاني من تشرين الأول سنة ١١٠٠، توجّه أمير الرها بودان إلى القدس، مع أهل بيته وأتباعه وحرسه المؤلّف من مئتي فارس وسبعماية من المشاة. وعند وصوله إلى انطاكية مكث فيها ٣ أيام ورحّل زوجته ووصيفاتها بحراً إلى يافا. تابع سيره براً ولدى وصوله إلى اللاذقية، لقي استقبالاً حاراً من سلطاتها، وانحاز إليه عدد كبير من الجنود. وقد وصلت الأخبار أن السلاجقة في دمشق وطّدوا العزم على تدميره وتحطيمه أثناء سيره على طريق الساحل. فخفّ حماس الجنود وهرب عدد كبير منهم، ولم يبق معه عند وصوله إلى جبلة سوى مئة وستين فارس وخمسماية من المشاة.(٢) تابع سيره من جبلة إلى بانياس - المرقب وطرطوس وعرقة إلى طرابلس، فاستقبله أميرها الجديد «فخر الملك» خارج المدينة وأمطره بالهدايا والتشريفات. وكانت العلاقات بين فخر الملك ودقاق أمير دمشق، بلغت منتهاها من السوء، ذاك أن دقاق حاول أن يمدّ سلطانه ونفوذه إلى الساحل اللبناني. والجدير ذكره

(١) رنسيمان، ج ١، ص ٤٧٧.
- وليم، ج ٣، ص ٤٧٤ - ٤٧٥.
(٢) رنسيمان، ج ١، ص ٤٧٨.
- وليم، ج ٣، ص ٤٨٣.

أن فخر الملك زوّد بودوان بالمعلومات عن تحرّكات دقاق وخططه وأنه سينصب له الكمائن بعيداً على طول خط زحفه.[1] واصل بودوان تقدّمه مروراً بجبيل حتى وصل إلى مقطع نهر الكلب، حيث يوجد ممر خطر جداً بين البحر وجبال شاهقة تجعل الطريق بين الصخور الوعرة والمرتقى الشديد الانحدار غير سالكة تقريباً ولا يتجاوز طول الممر الثلاث مئة متر وعرضه متر واحد. سدّت الطريق بالصخور لمنع عبورها بمساعدة السلاجقة لإعاقة زحف الكونت بودوان.[2]

وصل الكشافة الصليبيون إلى هناك واستطلعوا الموقع، وقد رأوا بعض المدافعين قد عبروا النهر ونزلوا إلى السهل، فخافوا من كمين كبير وراءهم. فأرسلوا من يفيد الكونت عن صورة الوضع فنظّم بودوان صفوفه فوراً بتشكيل قتالي وزحف نحو السلاجقة حيث وجدهم مستعدين للقتال وجهاً لوجه (سلاجقة دقاق وسلاجقة حمص) على حين أن أسطولاً بحرياً عربياً من بيروت، كان يقف تجاه الساحل مستعداً لاعتراض طريق الفرنجة عند وصولهم إلى هناك.[3]

أ - المعركة:

حاول الفرنجة اجتياز النهر، لكن القوات المسلمة كانت كبيرة ومتفوّقة على قواتهم، ففشلوا وعندما هبط الليل انسحبوا إلى الوراء، وقد حثّ أمير حمص سلاجقة دقاق ان يهاجموا فوراً الفرنجة المتراجعين، غير أن قادة دقاق، آثروا الانتظار حتى بزوغ الفجر، كي يتمكّن الأسطول العربي من مساندتهم أثناء المعركة. واكتفوا طوال الليل بقذف الفرنجة بالسهام. في الصباح الباكر، أمر الكونت بترتيب الأمتعة وأن يستعدّ الجميع للانسحاب موهماً السلاجقة بأنه يرتدّ مرّة أخرى، غير أنه حرص على أن يضع في المؤخّرة خيرة رجاله المسلّحين، وهكذا عندما

(١) ولمم، ج ٩، ص ٤٨٣.
- رنسيمان، ج ١، ص ٤٧٨.
(٢) وليم، ج ٩، ص ٤٨٤.
(٣) رنسيمان، ج ١، ص ٤٧٩.

يلحق به هؤلاء، سيتمكّن من مقابلتهم في السهل فيكون لديه حرية مناورة أكبر بدلاً من القتال في المرات الضيّقة والمحصورة.(١) اعتقد السلاجقة أن الفرنجة تراجعوا خوفاً من المواجهة، فطاردوهم بتلهّف من الشعاب، وكذلك نزل بحارة الأسطول إلى البر للمساهمة بالقتال والفوز بالغنائم.

عندما رأى الفرنج أن السلاجقة قد تخلّوا عن المرتفعات وباتوا موجودين في السهل، حينما أخذ الطريق يضيق مرّة أخرى جنوبي مدينة جونية اللبنانية، وعلى مسافة ٥ أميال إلى الشمال، استداروا فجأة وانقضوا بكلّ قوّتهم على السلاجقة، الذين يتعقبونهم والذين أذهلتهم المفاجأة وارتدوا بالاتجاه المعاكس، فوقع الاضطرب وسادت الفوضى على الطريق الضيق، ولم يكن بوسع سفن الأسطول الإسلامي مساندتهم. وعند حلول الليل، فرّت القوات السلجوقية إلى الجبال ومنها إلى بيروت للاحتماء وراء أسوارها. وعسكر بودوان تلك الليلة في جونية. وفي اليوم التالي، عبر الفرنج نهر الكلب دون أية مقاومة(٢) حتى وصولهم إلى القدس في ٩ تشرين الثاني ١١٠٠. في ٢٥ كانون الأول ١١٠٠، توّج البطريرك دايمبرت، في كنيسة المهد، الكونت بودوان ملكاً على مملكة القدس بعد أن مضى على مغادرة الصليبيين بلاد اوروبا ما يزيد على أربع سنوات. وكان تتويجه خاتمة لقصّة الحملة الصليبية الأولى التي كان هدفها الأساسي الوصول إلى القدس.

ب - الدروس المستقاة:

- لقد تعمّد دقاق أمير دمشق، بث الشائعات كي تصل إلى مسامع خصمه بودوان، بغية الحط من معنويات مقاتليه. وقد لعبت هذه الشائعة دوراً كبيراً في فرار العديد من قوات الفرنجة أثناء الانتقال باتجاه القدس.

---

(١) وليم، ج ٣، ص ٤٨٤ - ٤٨٥.
- رنسيمان، ج ١، ص ٤٧٩.

(٢) رنسيمان، ماثل، ص ٤٧٩.
- وليم، ماثل، ص ٤٨٥.

- لقد زوّد فخر الملك بودان بالمعلومات الكافية عن تحرّكات خصمه دقاق وعن خططه في نصب الكمائن على طول خط سيره نحو القدس، الأمر الذي أفاد منه بودوان لأخذ الحيطة والحذر. فأصبحت مراقبته للأرض أشد واستطلاعاته أوسع بواسطة كشافته التي أرسلها بعيداً إلى الأمام، فتجنّبت بذلك المفاجأة القاتلة في أغلب الأحيان.
- لقد نصب دقاق كمينه في المكان المناسب والقاتل، فمقطع نهر الكلب كان ممراً إجبارياً وملائماً لطبيعته لمثل هذه العمليات العسكرية. وقد قسّم قواته إلى مجموعات ثلاث. مجموعة استطلاع وتلقي، ومجموعة صدم وإطباق ومجموعة مساندة. وقد نجح مؤقتاً. ففي مكان الكمين كانت قوات السلاجقة أكبر عدداً وأقوى من قوات الفرنجة، خاصة وأن الأسطول الإسلامي كان على مقربة من المكان وبإمكانه المساندة الفعلية.
- لقد حاول بودوان مهاجمة السلاجقة وجهاً لوجه لكنه فشل نظراً لتفوّق قوات خصمه، فاستفاد من الليل كي ينسحب إلى الوراء. لكن دقاق شاغله طوال الليل كي يتعبه بانتظار المعركة الكبرى صباح اليوم التالي.
- استعمل الفرنجة الخدعة فأوهموا السلاجقة بأنهم يتراجعون مذعورين والهدف من ذلك، الوصول إلى السهل البعيد عن مساندة الأسطول الإسلامي المباشرة وإلى المكان المفضّل في استعمال الخيالة. وعندما ارتدّ الفرنجة نحو السلاجقة كانت المفاجأة الكبرى، فدبّت الفوضى في صفوفهم وفرّوا بسرعة نحو مدينة بيروت للاحتماء وراء سورها القوي.

٤٥ - معركة مرسيفان سنة ١١٠١:

في أواخر صيف ١٠٩٩، بلغ غرب أوروبا أخبار انتصار الفرنج في القدس على الفاطميين، فتلقّاها الناس بالحماس والسرور. ومما لا شكّ فيه أن الشرق كان بحاجة إلى مقاتلين فرنجة، وأن بالشرق من الثروة والمدن الكبيرة ما ينتظر قدوم المغامرين. وألحّوا في إثارة حرب صليبية جديدة، يباركها دعاة

الكنيسة. وقد كانت الأنباء الآتية من الشرق وقتذاك، أنه ما لم تأتِ الإمدادات من أوروبا، فلا بدّ من الجلاء عن البلاد التي تمّم فتحها.(١)

في السنة ١١٠٠، غادرت إيطاليا حملة جديدة قاصدة الشرق، وكان عديدها حوالى العشرين ألف نسمة فقط، لا كما قدّرها المؤرّخ ألبرت أسقف لاشابل، بحوالي المائتي ألف.(٢) وقد كانت هذه الحملة عديمة النظام والانضباط ما يمنع ضبطها والسيطرة عليها وعند وصولها إلى بيزنطية، انقسم رجالها إلى ثلاث جماعات. عسكرت في ثلاث مناطق متباينة. وصارت كلّ جماعة تغير على البقعة الواقعة خارج معسكرها، تنهب القرى وتقتحم مخازن الحبوب وتسلب الكنائس وتسرقها.(٢) وعندما وصلوا إلى القسطنطينية، لم يضبطهم إلا ريمون كونت تولوز الذي كان يقضي الشتاء في ضيافة الامبراطور البيزنطي. وكان لهذا القائد الشهرة الكبيرة بين الفرنج. كانت الحملة هذه تهدف إلى الوصول إلى فلسطين. وقد سلكوا الطريق التي سلكتها الحملة الصليبية الأولى الذي يجتاز قونية. ولم يكد هذا الجيش يغادر نيقوميديا حتى استدار واتخذ الطريق المؤدّي إلى أنقرة.(٣) وفي نية هؤلاء تحرير أمير انطاكية الذي وقع في صيف ١١٠٠ في أسر الأمير السلجوقي غازي المالك ابن دانيشمند السيواسي. وكان الأسير في «نيكسار» غير بعيد عن ساحل البحر الأسود. إنها فكرة سخيفة طبعاً.(٤) ففي ٢٣ حزيران ١١٠١، فتح هؤلاء الفرنجة انقره وسلّموها لبيزنطية.

في هذا الوقت تشكّل تحالف قوي من الأمراء السلجوقيين لمواجهة زحف الافرنج الجديد وهم: سلطان قونية قلج ارسلان

---

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٣٨.

(٢) رنسيمان، مماثل، ص ٣٩.

(٣) رنسيمان، ج٢ ، ص ٤٢.

- زابورروف، ص ١٢٧.

(٤) زابورروف، ص ١٢٨.

الأول والأميران غازي المالك السيواسي ورضوان أمير حلب.[1]

لما غادر الفرنجة أنقرة، اتخذوا الطريق الذي يتجه نحو الشمال الشرقي ويؤدّي إلى «جنجره»، كيما يسلكوا الطريق المؤدي إلى آماسيا و«نيسكار». فتقهقر أمامهم قلج ارسلان وأخذ يخرّب البلاد أثناء تراجعه، حتى لا يجدوا ما يقتاتون به. عند ذلك بادر الملك غازي بتجديد التحالف مع قلج ارسلان وحثّ رضوان أمير حلب على أن يبعث قوات من الجنوب. وصل الفرنجة إلى «جنجره» في تموز ١١٠١، فوجدوا السلاجقة هناك، فلم يتمكّنوا من الاستيلاء على قلعتها نظراً لمناعتها، فنهبوا القرى وحصلوا على ما صادفوه من مؤن.[2] وانطلقوا بناء على نصيحة ريموند، باتجاه الشمال الشرقي إلى كستموني ومنها إلى إحدى المدن البيزنطية على ساحل البحر الأسود. كانت الرحلة بطيئة وشاقة، إذ نفذ الماء ودمّر السلاجقة كلّ المحصولات، وكانوا يتقدّمون في دروب موازية للصليبيين، لإثارة الفوضى والاضطرابات والارتباك: تارة في مقدّمة الجيش الفرنجي وتارة في الساقة، ولم يبتعدوا كثيراً حتى تعرّضت المقدّمة لهجوم سلجوقي مفاجىء، وكان عديدها حوالى السبعمائة مقاتل. فولّى الفرسان الأدبار، وتركوا المشاة منهم يلقون القتل والذبح.[3] بعد ذلك وقعت الساقه بالتحام مستمر مع السلاجقة. فقرّر قادتهم أن يتحرّك الجيش كتلة متراصة الأمر الذي استحال عليهم أن يبعثوا بجماعات للاحتطاب وجمع الأعشاب واستطلاع أخبار عدوّهم. ولما بلغ الجيش الفرنجي أطراف كستموني، قرّروا شق طريقهم مباشرة إلى الساحل، فهي الفرصة الوحيدة لنجاتهم، لكنهم عادوا وتوجّهوا نحو الشرق. وسارت الحملة فاجتازت نهر هاليس إلى بلاد الأمير الدانشمندي، الغازي مالك.[3] وصل الفرنجة إلى مدينة «مرسيڤان» حيث

---

(١) زابوروف، ص ١٢٨.

(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٤٣.

(٣) رنسيمان، ج ٢، ص ٤٣ - ٤٤.

وقعت مجموعة منهم في كمين سلجوقي فقتل منها بضعة مئات من عساكرها. وصار واضحاً أن الغازي مالك وحلفاءه يحشدون قواتهم للقيام بهجوم عنيف على الصليبيين المتقدمين. بعدها أخذ السلاجقة يستخدمون ما تعودوا عليه من الخطط الحربية، فكان الرماة يحملون على العدو ويطلقون السهام ثمّ ينسحبون فيأتي غيرهم من جهة أخرى. ولم يمضِ وقت طويل حتى فقد الجيش الفرنجي تماسكه، فهرب قسم منه مذعوراً ولحق به قسم آخر. أما ريموند، الذي أدرك تخلّي جنوده عنه، فحاول أن يتراجع بحرسه إلى تلّة صخرية صغيرة، بانتظاو نجدة من كونت بلوا. وظلّ الفرسان الفرنسيون والالمان يقاتلون طوال بعد ظهر ذلك اليوم، حتى ارتدوا إلى معسكرهم. أما ريموند فقد هرب ليلاً مع حرسه متجهاً نحو الساحل. ولما وصل الخبر إلى بقية الجيش، فدبّ الذعر في صفوفهم وهرب الباقون تاركين المعسكر ومن كان به من غير المحاربين، ليقع غنيمة باردة في أيدي السلاجقة.(١) فقتلوا الجميع ثمّ تحمّسوا لمطاردة الفارين وعندما لحقوا بهم قتلوا المشاة كلّهم ولم ينج إلاّ القادة على ظهور خيولهم. وبلغت الخسائر ٤/٥ الجيش الصليبي. وزخرت أسواق الرقيق ودور الحريم بالشرق، بما أصابه السلاجقة في ذلك اليوم من الفتيات والأطفال.(٢)

بعد هذا الانتصار، عادت إلى السلجوقيين الشهرة والثقة في النفس. وزاد فخرهم، إذ صار بوسع السلطان السلجوقي أن يعيد سلطانه إلى جوف هضبة الأناضول، فأقام عاصمته في قونية على الطريق الرئيسي الذي يربط بيزنطية بسوريا. أما الأمير غازي الدنيشمند فقد واصل غاراته في وادي الفرات حتى بلغ أطراف إمارة الرها الصليبية. فانقطع من جديد في وجه الافرنج الطريق البري من أوروبا إلى بلاد الشام.(٣)

---

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٤٥.

- زابوروف، ص ١٢٩.

(٢) رنسيمان، المصدر السابق، ص ٤٦.

(٣) مماثل، ص ٤٧.

٤٦ - القضاء على جيشين صليبيين في هرقلة (١١٠١):

لم يمض وقت قصير على الكارثة في مرسيڤان، حتى وصل إلى القسطنطينية جيش فرنسي بقيادة وليم الثاني كونت نيڤر. وفي نهاية شهر تموز وصل وليم إلى أنقرة بغية اللحاق بالصليبيين الذين سبقوه مباشرة. وهناك لم يتمكّن من معرفة الجهة التي سار هؤلاء السابقون إليها. فرجع وليم واتخذ الطريق المؤدي إلى قونية بكلّ انضباط ونظام. ولدى وصوله إلي المدينة حاول الاستيلاء على الحامية السلجوقية فيها والدخول إلى قونيه، لكنه فشل، فتركها وسار من جديد نحو الشرق في هذه الأثناء علم قلج ارسلان والملك غازي بقدوم هذا العدو الجديد، فأسرعا وسبقا وليم إلى هرقلة بعدما طمرا كافة آبار المياه الواقعة على امتداد الطريق. ولما اقترب الجيش الصليبي، وكان متعباً وضعيفاً، فلم يسع الجيش السلجوقي الذي يفوقه عدداً إلاّ أن يطوّق الفرنجة ويوقعهم في كمين كانا قد أعداه مسبقاً.(١) فانهارت مقاومة الصليبيين بعد معركة لم تستمر طويلاً. ولقي الجيش الفرنسي بأسره مصرعه، ولم ينج منه إلاّ الكونت وليم وعدد قليل من الفرسان، الذين اقتحموا خطوط السلاجقة وتمكّنوا من الهرب خلال جبال طوروس حتى بلغوا حصن بيزنطي ومنه إلى انطاكية.(٢)

لم يكد كونت نيفر يعبر البوسفور، حتى قدم إلى القسطنطينية جيش ضخم آخر، مؤلّف من الفرنسيين والالمان. وقاد القوات الفرنسية، وليم التاسع دوق اكيتانيا ومعه هيو كونت فرماندوا. أما الالمان فقادهم السير ولف Welf، دوق باڤاريا. ولدى وصولهما إلى بيزنطية، سارا بقواتهما على الطريق ذاتها التي سلكها قبلهما كونت نيفر. وقد اكتشف وليم التاسع والسير ولف، في تلك المنطقة، أن الآبار قد جفّت أو انطمرت. فنهبوا إحدى المدن هناك بعد أن هجرها أهلها. أما الحامية التركية في قونيا التي قاومت عسكر

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٤٨ - ٤٩.
(٢) زابوروف، ص ١٢٨ - ١٢٩.

نيفر، فكانت قد غادرت المدينة.قبل قدوم هذا الجيش الضخم.[1] غير ان السلاجقة كانوا قد أخذوا معهم المؤن كلّها، وجرّدوا البساتين والحدائق بأرباض المدينة من كلّ ما فيها. فلم يجد الصليبيون بها ما ينعشهم. وفي هذه الأثناء بالضبط، كان قلج ارسلان وغازي الدانيشمندي يجريان مذبحة في جيش نيفر.

خرج الصليبيون هؤلاء من قونية واجتازوا الصحراء قاصدين هرقلة، وقد استبدّ بهم الجوع والعطش. وكان السلجوقيون ينقضّون عليهم بين الفينة والفينة ويمطرون قلب الجيش بالسهام، ويقتلون كلّ من خرج من صفوفه. وفي أوائل أيلول ١١٠١، دخلوا هرقلة وقد هجرها سكانها على أن النهر الذي يجري وراء المدينة فاضت مياهه، وهو من الأنهار القليلة في هضبة الأناضول التي يغزر فيضانها طوال شهور الصيف. فاندفع المحاربون الصليبيون إلى الماء لإرواء عطشهم. غير أن الجيش السلجوقي كان مختبئاً في الغابات الواقعة على شاطىء النهر، فانقضّ عليهم وأحاط بهم، مما أحدث الفوضى والبلبلة في صفوفهم فانتشر الذعر في الجيش الصليبي واختلط الفرسان بالمشاة، فأنزل بهم السلجوقيون القتل والذبح، واستطاع وليم التاسع من الهرب الى الجبال وبقي أيام طويلة حتى وصل إلى طرطوس. أما هيو فقد جرح بليغاً في المعركة، غير أن بعض رجاله أنقذوه، فوصل إلى طرطوس أيضاً ومات من جراحه، في ١٨ تشرين الأول ١١٠١. أما كونت بافاريا فقد وصل بعد عدّة أسابيع إلى انطاكية يصحبه اثنان أو ثلاثة من أتباعه.[2]

وهكذا لقيت الجيوش الثلاثة الصليبية السنة ١١٠١ خاتمة مفجعة، وأثرت كوارثها في مسيرة الحركة الصليبية بأسرها. لقد أخذ السلاجقة بالثأر لما حلّ بهم من هزيمة في

---

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ٥١.

- زابوروف، ص ١٢٩.

(٢) رنسيمان، ج ٢، ص ٥٢.

دوريـلـيـوم، وبـقـوا في بـلاد الأنـاضـول ولم يطْردوا منها. وظلّ الطريق الذي يجتازها غير مأمون للجيوش الصليبية أو البيزنطية، ولم يعد في وسع الفرنج القدوم إلى الشرق إلاّ بحراً.

٤٧ - معركة الرملة الأولى (١١٠١):

قرّر الوزير الفاطمي، الأفضل، أن ينتقم لمعـركـة عسـقـلان الـتـي وقـعت بـيـنـه وبين الـفـرنجة، في ١٢ آب ١٠٩٩، فـأعـدّ حـمـلـة عسـكـريـة بـقـيـادة مملوكـه سـعـد الـديـن الطواشي. انطلقت الحملة من مصر ووصلت إلى عسقلان في منتصف أيار ١١٠١ ومن هناك تابعت تقدّمها حتى وصلت إلى مدينة الـرملـة، وكـانت تأمل فيما يبدو، بالتـوغّـل حـتـى تصـل إلى مـديـنـة الـقـدس، مستغلّة ذهاب بودوان إلى مهاجمة قيسارية.

وعندما بلغه الخبر عجّل بودوان بالمسير بـقـواتـه إلي الـرمـلـة، فتراجـع سـعـد الـدولـة «الطواشي» إلى عسقلان، بانتظار أن تصله الإمدادات،(١) أما بودوان فقد حصّن الرملة وأقام معسكره في يافا، كي يبقى على اتصال بالسفن البحرية التي كان بإمكانها مساندته مـن جـهـة الـبـحـر في حـال وقـعت المعـركـة المنتظرة. أما من جهة عدوّه، فقد وضع عدّة مخافر أمامية لمراقبة تحرّكات المصريين.

في شهر آب وقع في يد القائد الفرنجي كتاب، علم منه أن قوات جديدة قد وصلت إلى المعسكر المصري وهي تستعد للزحف نحو مدينة القدس. «لإبادة الفرنجة إبادة تامة أو حملهم مقيّدين بالسلاسل إلى مصر، وقـيـل إن الـقـوات الـتـي كانت برفقة سعد الدولة الطوشى تألّف من اثني عشر ألف فارس وعشرين ألفاً من الرجالة».(٢)

في الرابع من أيلول، تحرّك سعد الدولة بـقـواتـه في بـطء و«بـصـفـوف متراصـة مـعـبّـأة بـتـرتـيـب المعـركـة» حتى بلغ أطراف الرملة. وعـنـدما علـم بودوان، أمر باستدعاء قواته، وركّـز قـوّة كـبـيرة بـقـدر الإمـكـان حول اللد والرملة. وكانت هذه القوّة مؤلّفة من مائتين

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ١٢٢.
- وليم، ج ٣، ص ٤٩٨.
(٢) وليم، ج ٣، ص ٤٩٨.

وستين فارساً وتسعماية من المشاة.[1] أما الباقي من قواته فقد نظّمه في ست كتائب وزحف للتصدّي للمصريين. وقد اشتهر الفرنجة بجودة التسليح وحسن التدريب، بينما كان الجيش الفاطمي الضخم المؤلّف من أحد عشر ألف فارس وواحد وعشرين ألف من المشاة، لم يتوافر لديه السلاح الجيّد، ولم ينل شيئاً من التدريب.[2] زحف الفرنجة إلى الرملة، ثمّ انقضوا عند بزوغ الشمس على المصريين قرب «يبنه» الواقعة إلي الجنوب الغربي من المدينة.

قاد بيرفولد الفرنجي كتيبة الطليعة، في الهجوم، لكن المصريين حصدوهم ولقي القائد حتفه، فهرع جيلدمار حاكم يافا وقائد الكتيبة الثانية لنجدته، فهلك مع رجاله، ومن بقي، وكانوا بضعة فرسان، فرّوا بسرعة من أرض المعركة، ملتمسين النجاة بأرواحهم. وتلى ذلك هجوم قوات الجليل بقيادة هيو كونت سانت اومر، غير أنه لم يكن لها أثر في الحشود المصرية، ولم يستطع أن يخلّص رجاله إلاّ بعد خسائر فادحة، ففرّ إلى يافا، فطاردتهم ميسرة المصريين إلى هناك فروّعت المدينة. بدا أن كلّ شيء قد ضاع وانتهى غير أن بودوان، ملك القدس، قاد الكتيبتين الباقيتين وامتطى جواده العربي الأصيل المعروف باسم «الغزال» وانطلق على رأس الفرسان إلى قلب الجيش المصري، فصدمه صدمة قوية فاجأته وأزاحه عن مركزه بعد قتال قصير، فولّى الأدبار، وامتدّ الذعر إلى الميمنة المصرية وطاردهم الفرنجة حتى أسوار عسقلان. وقد أحدثوا مجزرة مخيفة لا يمكن وصفها، خاصة بعدما فقد المصريون قائدهم سعد الدولة الطواشي[3] الذي قتل وهو يحارب بشجاعة في ميدان المعركة.

انهارت صفوف الفاطميين، وهلكت بعض كتائبه، بينما فرّت كتائب أخرى إلى مسافة أبعد من ان يتمّ إرجاعها إلى ساحة المعركة. وقد أعطى بودوان أمراً لقواته، تحت

---

(١) وليم، ج ٣، ص ٤٩٩.
- رنسيمان، ج ٢، ص ١٢٢.

(٢) رنسيمان، ج ٣، ص ١٢٣.

(٣) وليم، ج ٣، ص ٤٩٩ - ٥٠٠.

عقوبة الموت، بعدم أخذ المغانم من القتلى أو الجرحى بل على العكس، فقد أمرهم بالمطاردة لاستغلال النجاح. وقد طارد المصريين حتى مسافة ثمانية أميال تتبعه فرق عديدة من الخيالة والمشاة الرشيقين، ووضع الليل حداً للمذبحة المخيفة. ووفقاً لإحدى الروايات، قتل نحو خمسة آلاف من جنود مصر وسبعون فارساً وعدد أكبر منهم بكثير من المشاة، لكن الخسارة الحقيقية غير معروفة.(١)

٤٨ - معركة الرملة الثانية (١١٠٢):

في السنة التالية ١١٠٢، جهّز الوزير الأفضل جيشاً كبيراً، يستطيع به استئناف القتال والأخذ بالثأر من الفرنجة غزاة المشرق العربي. ففي شهر نيسان من تلك السنة، تردّدت الأنباء بأن جيشاً إسلامياً آخراً يسير من مصر باتجاه مملكة القدس. ففي منتصف أيار ١١٠٢، احتشد في عسقلان، جيش مصري، قوام عديده، حوالى عشرين ألف من العرب والسودانيين، بقيادة شرف المعالي، ابن الوزير الأفضل، وتحرّك إلى الرملة.(٢)

أتمّ بودوان الملك استعداداته الحربية، ففي يافا تجمّع جيش كبير من الفرنج. وتأهّبت حاميات الجليل لأن ترسل ما يطلب منها من قوات قتالية، غير أن كشافة الملك، ضلّلوه. ونظراً لاعتقاده بأن المصريين ليسوا إلاّ فئة قليلة من المغيرين، فلم ينتظر حتى يجمع القوات من المدن المجاورة، أو ليستدعي النبلاء الذين كانوا معه في المدينة بل قرّر الانطلاق بنفسه، على رأس مجموعة من الفرسان لا يتجاوز عديدها الخمسماية، للقضاء عليهم.(٣)

---

(١) وليم، ج ٣، ص ٥٠٠.
- رنسيمان، ج ٢، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) رنسيمان، مماثل، ص ١٢٥.
- وليم، مماثل، ص ٥٠٢.

(٣) رنسيمان، مماثل، ص ١٢٦.
- وليم، مماثل، ص ٥٠٢.
- Maalouf, P. 86 - 87.

في ١٧ أيار، خرج بودوان من القدس مع فرسانه لملاقاة الجيش المصري. وقد غمرهم الفرح بركوبهم فلم يحفلوا بالنظام، فلمّا بلغوا السهل ورأوا أمامهم، فجأة، الجيش المصري الضخم، أدرك الملك ما وقع فيه من الخطأ، غير أن الانكفاء بدا متعذّراً. فقد أسرع المصريون وأرسلوا لصدمه ولقطع طريق العودة عليه، فرقة من الخيالة الخفيفة فلم يسعه إلاّ المبادرة بشنّ الهجوم عليهم. وإذ اعتقد المصريون بأن هذا الهجوم لم يقم به إلاّ مقدّمة جيش ضخم، تخلّوا عن مواقعهم حتى لا يتعرّضوا للصدام. وعندما تبيّن لهم أن هذه الفرقة كانت يتيمة، فاحتشدوا وأطبقوا على الفرنج، فانهارت صفوف جيش بودوان وهرب الجميع وعلى رأسهم الملك، ولم ينجو من القتل والأسر إلاّ لأنه اختبأ متخفّياً بين العشب والقصب. فقد قتل أو أسر العدد الكبير من رجاله ولم يصل إلى يافا آمناً إلاّ قلّة من الفرسان بقيادة روجر وهيو بعد أن شقّوا لهم طريقاً في صفوف الجيش المصري. أما الملك وكبار مرافقيه فاتخذوا طريقهم إلى حصن الرملة الصغير، حيث حاصرهم الجيش المصري.(١)

في هذا اليوم كان الجيش المصري على أتم الاستعداد للاستيلاء على مدينة القدس. فالمدينة كانت خالية ممن يدافع عنها والملك الفرنجي كان هارباً بعيداً عنها،(٢) لكنّ ميوعة شرف المعالي بأخذ القرار، سرق منه هذه الفرصة النادرة.

ولم ينقذهم من الهجوم المباشر سوى حلول الظلام، غير أن أسباب الدفاع عن الرملة كانت بالغة السوء. فأبراجها قديمة ومتداعية ولا يوجد إلاّ برج واحد يمكنه الصمود، كان قد شيّده بودوان في السنة الماضية، فتموضع به الملك وأتباعه. أثناء الليل، تسلّل الملك مع سائسه وثلاثة من أتباعه، واجتازوا بخيولهم خطوط المصريين. في اليوم التالي باكراً هاجم المصريون أسوار

---

(١) رنسيمان، مماثل، ص ١٢٦.
- ابن الأثير، ج ٩، ص ٦٨.
(٢) ابن الأثير، ج ٩، ص ٦٨.
Maalouf, P. 86. -

المدينة، وكدّسوا أكواماً من الأخشاب حول البرج ليشعلوا بها النيران. فعندما رأى الفرسان الفرنج ان هلاكهم سوف يأتي عاجلاً، حملوا على المصريين بقوّة وكانت النتيجة، من لم يلق منهم مصرعه لم يسلم من الأسر. وقد قتل عدد كبير من القادة الصليبيين أمثال ستيڤن برجنديا، وهيو لوزجنان، وستيڤن بلوا.(١)

«سار شرف المعالي من المعركة، ونزل قصر بالرملة وبه سبعماية من أعيان الفرنج وفيهم بغدوين، فخرج متخفياً إلى يافا وقاتل ابن الافضل بمن بقي معه خمسة عشر يوماً ثمّ أخذها فقتل منهم ٤٠٠ وأسر ٣٠٠ إلى مصر».(٢) في هذه الأثناء وصل الملك إلى يافا واستقبله أهاليها بالفرح. ووصل في الوقت نفسه إلى ارسوف هيو سانت اومر صاحب طبرية، جاء مسرعاً لنجدة بودوان، وحالما علم الملك بهذا انطلق فوراً لمقابلته ومعه القوّة التي تمكّن من جمعها من يافا. توحّدت القوتان وعاد الجميع إلى يافا خلال بضعة أيام، بعدما واجهوا مصاعب جمة، لأن المصريين كانوا يسيطرون على المنطقة، مما اضطرّهم إلى سلوك طريق غير مباشر. وكان عديد الذين وصلوا لتوّهم نحو تسعين فارساً من الأشداء. بعدها عبأ الملك سرايا خيالته وكتائب مشاته حسب قواعد الحرب يومذاك، وانطلق نحو المصريين غير مبال بأعدادهم الكبيرة. وكان المصريون على بعد ٣ أميال فقط وكانوا منشغلين في صنع الستائر الواقية والسلالم ومعدّات الحرب المتنوّعة من مواد معيّنة. وقد هاجمهم الفرنجة وهم في غمرة نشاطاتهم المتنوّعة فشتّتوا شملهم بسيوفهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم وأجبروا الباقين على الفرار من ساحة القتال. ونظراً لقلّة عددهم أعطي الأمر بعدم مطاردتهم. بعدها داهموا المعسكر واستولوا على كمية كبيرة من المغانم والحمير والجمال والسرادقات والخيم ونقلوا معهم جميع أنواع الأطعمة والمؤن. بعد هذه المعركة، نعم الفرنجة بالهدوء والسلام لمدّة سبعة أشهر

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ١٢٧ – ١٢٨.

(٢) ابن الأثير، ج ٩، ص ٦٨.

فقط، بعدها عادت المناوشات وحرب العصابات إلى الظهور بين المسلمين والفرنجة.(١)

٥ - دفاع الفاطميين عن عكا - سقوط المدينة (١١٠٤):

في العام ١١٠٣، وبين شهري نيسان وأيار، جمع ملك القدس الصليبي قواته وألقى الحصار عل مدينة عكا. تقع عكا على الساحل الفلسطيني ويقدّم ميناؤها المزدوج داخل أسوارها وخارجها، مرفأ هادئاً وآمناً للسفن القادمة. وهي قائمة بين الجبال والبحر، وتمتلك أراضي واسعة ذات حقول خصبة ويتدفّق نهر «عين البقر» منساباً داخل المدينة.(٢)

انطلق الصليبيون بفيالقهم إلى عكا، وحاولوا تطويقها وإرغامها على الاستسلام، لكنهم فشلوا لافتقارهم إلى أسطول يساندهم من البحر، وللدفاع المستميت التي أبدته حامية المدينة وأهاليها. عند ذلك، قام الفرنجة بقطع أشجار البساتين التي كانت تحيط بها وقتلوا عدداً كبيراً من ساكينيها الذين كانوا خارجها، وساقوا أمامهم كغنيمة، القطعان والمواشي التي وجدوها في الأراضي المجاورة، ثمّ رفعوا الحصار ورحلوا إلى مناطقهم عبر «قيسارية». وقد حصل أن وقع الملك في كمين مسلّح قرب قرية «الممر» فأصيب في بحربة اخترقت ظهره والأضلاع قرب القلب، لكنه شفي منها.(٣)

في أيار ١١٠٤، حشد بودوان الملك قواته وأسرع لمحاصرة عكا للمرة الثانية، عندما علم بوصول أسطول من جنوى (٧٠ سفينة) إلى المياه السورية، وتمّ التوصّل إلى اتفاق مع هؤلاء القوم بشرط إعطائهم بشكل دائم ١/٣ من عائدات ميناء عكا ومن الواردات المنقولة بحراً، بالإضافة إلى منحهم كنيسة في

---

(١) وليم، ج ٩، ص ٥٠٥ - ٥٠٦ - ٥٠٧.
Grousset, P. 61 - 62. -
(٢) وليم، ج ٩، ص ٥١٠.
(٣) وليم، مماثل، ض ٥١١.

المدينة، «وسلطاناً تاماً على واحد من شوارعها».(1)

في اليوم المحدّد أقفل الأسطول الجنوي المداخل البحرية إلى عكا، وحاصرها الصليبيون من جهة البر، وأصبحت منافذ الدخول والخروج مقفلة تماماً. وكابد السكان المسلمون، المحن المخيفة من جراء الحصار، خاصة عندما وضع الفرنج المنجنيقات وراحوا يقصفون المدينة باستمرار بالصخور الكبيرة فدمّرت المنازل على أصحابها، كما شيّدوا الأبراج للسيطرة على الأسوار.

دافع الأهالي عن مدينتهم بكلّ ما عندهم من قوّة، وقد قتل عدد كبير منهم. وبعد مضي عشرين يوماً على الحصار، قرّر حاكم المدينة تسليم عكا إلى الصليبيين بعدما انتظر المساندة الفاطمية التي لم تأت. سلّم الحاكم المدينة بشرط أن يسمح له وللذين رغبوا بترك عكا بالرحيل بحرية إلى حيث شاؤوا، آخذين معهم عوائلهم وجميع مقتنياتهم المنقولة. ويقول المؤرّخ العربي ابن القلانسي، أنه ما أن خرج الناس حسب الشروط، حاملين مقتنياتهم، حتى هاجمهم الفرنج ونهبوهم وقتلوا الكثير منهم. وقد أقسم، الفاضل، بأنه سيثأر يوماً لهذا الاذلال المهين. فكان يرسل كلّ سنة، جيشاً كبيراً للقيام بمهاجمة الفرنج وفي كلّ مرّة كانت تصاب قواته بهزيمة منكرة.(2)

٦ - دفاع العرب عن طرابلس - سقوط المدينة (١٢ تموز ١١٠٩):

بعدما استولى الكونت سان جيل على مدينة طرطوس السورية، وضع نصب عينه الاستيلاء على مدينة طرابلس، عاصمة بني عمار العرب. ففي سنة ١١٠٣، عسكر سان جيل مع قواته في ضواحي طرابلس، وبنى قلعة ضخمة على هضبة تواجه المدينة وتبعد عنها نحو ثلاثة كيلومترات، ودعاها المواطنون

---

(١) وليم، مماثل، ص ٥١٢.
- Maalouf, P. 87.

(٢) Maalouf, p. 87 0 88.
- وليم، ج ٣، ص ٥١٣.

آنذاك بقلعة «صنجيل» ولا تزال حتى اليوم تعرف بهذا الاسم.[١]

وقلعة سان جيل، محصّنة بشكل ممتاز بموقعها ومهارة الذين شيّدوها. لقد استخدمها الكونت سان جيل كقاعدة له، لتخلق مشاكل يومية ومتاعب لسكان طرابلس العرب. ونتيجة لذلك، لا يمكن لأية قافلة، الدخول إلى المدينة أو الخروج منها بدون أن يعترضها رجال الكونت وفرسانه،[٢] مما اضطرّ سكان المنطقة بأسرها وحتى الذين كانوا يقيمون في المدينة نفسها، إلى أن يدفعوا للكونت، جزية سنوية «وأطاعوه في جميع الأمور وكأنه كان يملك طرابلس بلا منازع».[٣]

في مطلع آذار ١١٠٤، قدم أسطول جنوي كبير إلى اللاذقية، فانتهز الكونت سان جيل هذه الفرصة، وطلب مساعدة الأسطول لاحتلال طرابلس. ولكن الهجوم على المدينة فشل، فرفع الصليبيون الحصار عنها واتجهوا نحو جبيل فحاصروها «وقاتلوا عليها قتالاً شديداً، فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أماناً، وسلّموا البلد إليهم فلم تفِ الفرنجة لهم بالأمان، وأخذوا أموالهم واستنفذوها بالعقوبات وأنواع العذاب»[٤] وكان ذلك في ٢٨ نيسان ١١٠٤.

بسقوط جبيل بدأ يظهر تطويق سان جيل لإمارة طرابلس: من الشمال: جبلة وطرطوس، ومن الجنوب جبيل. فلم يبق أمام طرابلس إلاّ البحر وبعض مناطق عكار الموصلة إلى الداخل. وتمكّن سان جيل من احتلال اقسام كبيرة من عكار. وهكذا يكون حصار طرابلس الجدّي قد بدأ سنة ١١٠٤. وبسقوط عكا وجبيل وتطويق طرابلس، بدا ضعف الفاطميين في الدفاع

---

(١) Maalouf, p. 95.
- وليم، ج ٣، ص ٥٠٠.

(٢) Maalouf, p.

(٣) وليم، مماثل، ص ٥١١.

(٤) مكي، محمد علي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٧، ص ١١٥.
- ابن الأثير، ج ١٠، ص ٣٧٢.

عن المناطق التابعة لهم. ولعلّ ذلك هو الذي جعل بقية المناطق اللبنانية تتجه نحو حكام دمشق وبغداد لطلب المساعدة.(١)

كان بنية فخر الملك بن عمار تدمير قلعة سان جيل التي تسيطر على مدينته. ففي الليالي كان جنوده، يقومون بالإغارة على القلعة وجوارها فيقتلون الحرّاس بواسطة الخناجر أو يدمّرون حائطاً من حيطانها أو قسماً منه. وفي أيلول ١١٠٤، استغلّ فخر الملك انصراف معظم الصليبيين من منطقة عكار وطرابلس إلى عكا، فهاجم القلعة «فقتل من بها ونهب ما فيها وأحرق وأخرب، وأخذ منها السلاح والمال والديباج والفضّة».(٢) وحين عاد سان جيل إلى قلعته، وجدها مهدّمة. وأثناء تفقّده إياها، وقف على سقف من سقوفها المحترقة فانخسف به وسبّب له جروحاً مات متأثّراً بها في ٢٨ شباط سنة ١١٠٥. فاستلم القيادة بعد وفاته ابن اخته وليم جوردان.(٣) ويقال إن الكونت سان جيل وأثناء احتضاره على فراش الموت، طلب الاجتماع برسل من لدن ابن عمار فخر الملك وعرض عليهم ما يلي: «يتوقّف العرب الطرابلسيون عن مهاجمة القلعة، بالمقابل يتعهّد قائد القلعة الصليبي بعدم إزعاج حركة التنقّل والتجارة إلى طرابلس» فوافق القاضي ابن عمار.(٤)

تابع جوردان أعمال الحصار واستنجد بالبيزنطيين فأمدّوه بحراً بالمعونة، ولكنها وقعت في يد أسطول بني عمار في طرابلس فاستفادوا بها. مقابل ذلك استنجد فخر الملك بأمراء المسلمين وملوكهم في دمشق وحلب والموصل وديار بكر وماردين. لكن النجدة لم تصل بسبب اختلاف هؤلاء الأمراء فيما بينهم. فوقعت الضائقة الاقتصادية في طرابلس، فصادر القاضي أموال الأغنياء ووزّعها على الفقراء، مما أدّى

(١) مكي، ص ١١٦.
(٢) كرد، علي، محمد، خطط الشام، دمشق ١٩٢٥، ج ١، ص ٢٨٦.
(٣) مكي، ص ١١٦.
(٤) Maalouf, p. 96.

إلى هرب بعض الأثرياء والاتصال بالصليبيين ومعاونتهم على القضاء على حكم بني عمار.(١)

دام حصار طرابلس حتى سنة ١١٠٨ ولم يأتِ أحد من الخارج لمساندة أهاليها عندها قرّر القاضي الذهاب إلى بغداد لجلب النجدة لفك الحصار، فعيّن محلّه ابن عمه أبا المناقب ابن عمار الذي استغلّ الفرصة وأعلن تبعيته للفاطميين على أمل الحصول على المساعدة من مصر، لكن اتباع القاضي وبناء لأمره، قبضوا عليه ووضعوه في السجن. في بغداد حصل القاضي على وعود كثيرة لم ينفّذ منها شيء. عيّن الفاطميون والياً على طرابلس هو شرف الدولة ابن أبي الطيّب. ولما وصل إلى المدينة قبض على كلّ رجال بني عمار وأنصارهم وأنهى حكمهم رسمياً.(٢)

عاد القاضي فخر الملك إلى دمشق، فساعده الأتابك طغتكين بجنوده فاسترد مدينة جبلة من الفرنج وأقام فيها. أما حاكم عرقه فقد سلّم المدينة إلى طغتكين لكنّ جوردان هاجمها واحتلّها. في هذه الأثناء وصل من أوروبا ابن سان جيل، برتران على رأس أربعة آلاف جندي وأسطول جنوي كبير، ودعا بودوان لمساعدته. فعقدوا في قلعة طرابلس الصليبية مؤتمراً صليبياً كبيراً وتمّ الاتفاق على أن تكون طرابلس حتى جبيل لبرتران ويكون للجنويين امتيازات تجارية.(٣)

٦١ - معركة طرابلس وسقوط المدينة (١٢ تموز ١١٠٩):

في حزيران ١١٠٩، اجتمع خارج أسوار طرابلس كلّ أمراء الشرق الفرنجة. فحضر برتران بجيشه، وقدم بودوان من الجنوب بكتيبة من الخيالة قوامها خمسماية فارس وعدد كبير من المشاة. وجاء تانكرد ومعه سبعماية من خيرة الفرسان، أما كونت الرها

(١) ابن الأثير، ج ١، ص ٤١٢.
(٢) مكي، ص ١١٧.
(٣) مماثل، ص ١١٨.

وجوسلين فقد وصلا مع حرّاسيهما. وفي الجلسة التي انعقدت بقلعة سان جيل، تمّ الاتفاق بين الجميع على اقتسام الأراضي المحتلّة. وانعقد الصلح بين القادة الفرنج، ونهض الجميع للاستيلاء على طرابلس. أمام هذا الواقع ألحّ شرف الدولة في طلب المساعدة من السلطات الفاطمية، فأعدّت هذه أسطولاً ضخماً تألّف من حاملات لنقل الجند، وسفن للمؤن. غير أن ما حدث بين القادة المصريين من المؤامرات والمنازعات أدّى إلى تأجيل إقلاع الأسطول من مرافىء دلتا النيل.(١) وعندما تمّ الاتفاق والوفاق، أقلعت السفن القليلة العدد. وكان الوقت قد فات.

في بداية الصيف، يقول ابن القلانسي، بدأ الفرنج هجومهم على طرابلس بكلّ ما عندهم من قوى مجتمعة، وتمكّنوا من إيصال الأبراج المتحرّكة، إلى قرب الأسوار. ودكت أسوار المدينة من جهة البحر، وقاموا بأطباق تلو الأخر بعناد وشراسة، ورأى سكان المدينة أنه لم يبق لهم أي حظ بالمقاومة، فخانتهم شجاعتهم، فأرسل شرف الدولة إلى الملك بودوان يعرض شروط التسليم فطلب الأمان لكلّ من أراد أن يغادر المدينة من سكانها، بما يحمل من أمتعة ومعدّات، ومن أراد البقاء، يعتبر من رعايا الفرنج، ويحتفظ بأملاكه، على أن يؤدّي ضريبة سنوية. وطلب لنفسه الإذن بالرحيل مع جنوده إلى دمشق. وافق الملك على هذه الشروط. وفي ١٢ تموز يوم عيد الأضحى دخل الفرنج طرابلس، بعد ألفي يوم من المقاومة(٢) «ونهبوا ما فيها وأسروا الرجال، وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال وغنمو من أهلها من لأموال والأمتعة».(٣) وفي غمرة هذه الفوضى، أتى الحريق على كلّ مكتبة بني عمار التي كانت من تعتبر أروع مكتبات العالم، فحلّ الدمار

(١) رنسيمان، ج ٢، ص ١١٢.

(٢) مماثل، ص ١١٣.

- Maalouf, p. 101.

- مكي، ص ١١٨.

(٣) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٣٦.

بكلّ ما تحتوي عليه، أي حوالى مئة ألف كتاب (مكتبة دار العلم).(1)

ويقول ابن القلانسي «إن الفرنج قرروا إعطاء ١/٣ المدينة إلى الجنويين والـ٢/٣ إلى برتران ابن الكونت سان جيل. أما الملك بودوان فقد أعطي له ما كان يرغبه».

٧ - معركة بيروت - سقوط المدينة (١٣ أيار ١١١٠):

كانت بيروت سابقاً قد صالحت الصليبيين لدى مرورهم أمام المدينة سنة ١٠٩٩ وقدّمت إليهم المساعدات. وفي السنة الثانية، كمن التنوخيون أمراء الغرب في لبنان، بقيادة عضد الدولة علي وبناء لطلب الأمير السلجوقي في دمشق، دقاق، للصليبيين، فكانت معركة نهر الكلب. وقد أثرت جرأة عضد الدولة التنوخي لدى السلاجقة، فولاّه الأمير دقاق بالإضافة إلى إمارة الغرب وبيروت، إمارة صيدا، وأمره بتحصين المدينتين.(2)

وكانت بيروت تتلقّى المساعدة المتواصلة براً من سلاجقة دمشق وبحراً ومن الأسطول الفاطمي. لم يتمكّن الصليبيون من إقامة الحصار على بيروت كما حصل في طرابلس، بسبب وجود السلاجقة في الجبال المطلّة عليها. ولكن سقوط جبيل سنة ١١٠٤، قرّب من بيروت الخطر الفرنجي. ولما سقطت طرابلس، انتقل النشاط الصليبي نحو الجنوب. وفي الوقت ذاته وصلت قوّة بحرية فاطمية لتنجد السواحل اللبنانية، بعد ٨ أيام من سقوط طرابلس، فأبعدت هذه القوّة مؤقتاً خطر سقوط بيروت وصيدا حتى كانت سنة ١١١٠.(3)

في شباط ١١١٠ بدأ الصليبيون هجومهم على بيروت، بقيادة برتران ومعاونة الملك الصليبي بودوان. فشرع الفرنجة في بناء برج لنصبه على سور المدينة، ولما أتمّوا صنعه

(١) مكي، ص ١١٨ - ١١٩.
- رنسيمان، ج ٢، ص ١١٣.
(٢) الشدياق، أخبار الأعيان في جبل لبنان، مكتبة العرفان، بيروت ١٩٥٤، ج ٢، ص ٢٩٤.
(٣) مماثل، ص ٢٩٥.

زحفوا به، ولكن أهل بيروت قذفوه بحجارة المنجنيق، فحطّموه، فشرع الصليبيون بصنع غيره، وصنعَ برتران برجاً آخراً. ثمّ وصل أسطول فاطمي كبيرٍ مؤلّف من ١٩ سفينة حربية، فتغلّب على مراكب الفرنج واستولى على بعضها. وبذلك تمكّن المصريون من فك الحصار عن بيروت وتموينها. لكن الملك بودوان استنجد بالأمراء الصليبيين وبالسفن الجنوية فقدّم أربعون سفينة جنوية، وقدم المردة الموارنة من الشمال وقوّة صليبيّة من الجنوب. وركّز الجميع جهدهم الهجومي على منطقة الغرب أولاً،[١] فسيطروا على المنطقة وقتلوا كثيراً من أهلها، أما في البحر فانتصر الأسطول الجنوي على الأسطول الفاطمي، وبذلك انكشفت بيروت من الغرب. فشدّد الفرنجة هجومهم واحتلّوا بيروت بالقوّة في ١٣ أيار ١١١٠، بعد أن دام حصارها حوالى شهرين. وقد قامت مذبحة رهيبة وقاسية في أهل المدينة.[٢]

٨ - معركة صور - سقوط المدينة (٧ تموز ١١٢٤):

كانت مدينة صور في هذه الأونة، ما تزال وحدها تحت حكم الفاطميين، من بين جميع المدن الساحلية، ابتداءاً من اللاذقية إلى عسقلان، التي تعتبر آخر المدن على الشاطىء في مملكة القدس. لقد اتخذ الفاطميون هذه المدينة مركزاً لأسطولهم البحري يغيرون به على المراكز الصليبية المختلفة. في السنة ١١٠٥، بنى الفرنجة قلعة تبنين وفي سنة ١١٠٨، بنوا حصن آخر خارج صور. عند تلّ المعشوق لتشديد الحصار على المدينة، لكن حاكم المدينة هاجم هذين المركزين ودمّرهما.

شعرت صور أن الحماية الفاطمية ليست كافية بعد سقوط بيروت وصيدا وطرابلس، فعمدت إلى الاتصال بالأتابك طغتكين، طالبة منه المساعدة، لأن الأهالي لاحظوا أن دور السلاجقة في محاربة الفرنج هو دور فعّال أكثر من دور الفاطميين.[٣]

(١) الشدياق، ج ٢، ص ٢٩٤.

(٢) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨، ص ١٦٨ - ١٦٩.

- وليم، ج ٣، ص ٥٣٩ - ٥٤٠ (الاستيلاء على بيروت عند هذا المؤرّخ كان في ٢٧ نيسان ١١١١، خطأ شائع).

(٣) مكي، ص ١٢٥.

في السنة ١١١١، جمع بودوان كافة السفن التي وجدها على طول الساحل، وأعدّ منها أسطولاً وأمره بالتقدّم إلى صور لحصارها من البحر، وقام شخصياً بجمع كلّ القوات البرية والناس «من جميع أنحاء مملكته وزحف إلى هناك، ووضع جنوده في دائرة حول المدينة وحاصرها».(١) لقد أقام الفرنج ثلاثة أبراج خشبية متحرّكة على المدينة، وفي كلّ برج ألف رجل، ونصبوا عليها آلات القذف وألصقوا أحدها إلى سور البلد وأخلوه من الرجال. وأن رجلاً شيخاً من صور، أخذ معه ألف رجل بالسلاح التام ومع كلّ رجل منهم حزمة حطب فقاتلو الفرنج إلى أن وصلوا البرج الملتصق بالمدينة، فألقى الحطب فيه واستعمل سائلاً ووقوداً أحرق به الأبراج.(٢) استجار أهل المدينة بطغتكين صاحب دمشق، يستنجدونه ويطلبونه ليسلموا المدينة إليه، فسار بعسكره إلى نواحي بانياس، وبعث إلى صور بمائتي فارس لنجدتها. ثمّ أغار على ظاهر صيدا وأحرق نحو ٢٠ مركباً على ساحلها. وقاتل أهل صور من يئس من الحياة. فدام القتال إلى الربيع، بعدها، ترك الفرنج المدينة وساروا إلى عكا، فأصلح أهل صور ما دمّر من سورها وخندقها. وهكذا نجت صور بفضل ثباتها ونجدة السلاجقة من دمشق بعد حصار شديد دام ٤ أشهر ونصف. استلم طغتكين المدينة وعيّن عليها حاكماً من قبله هو الأمير مسعود، فأصبحت صور تابعة لسلاجقة الشام.(٣) في سنة ١١١٤، اتصل الفرنجة بالأمير مسعود عارضين عليه الهدنة فقبلها واستقرّت الحال على المهادنة لتعمّر الأحياء بعد خرابها، فامّنت المسالك وصلحت الأحوال.(٤)

ويبدو أن خلاف طغتكين مع أمير الموصل، مودود، ومقتل هذا الأخير، جعل طغتكين يتخوّف على مركزه كحاكم في الشام فبدأ سراً يهادن الفرنج مما شجّع صور على اتخاذ هذا الموقف.

(١) وليم، ج ٣، ص ٥٤٥.

(٢) ابن الأثير، ج ٩، ص ١٤٥.

(٣) مكي، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٤) كرد، علي محمد، خطط الشام، دمشق ١٩٢٥، ج ١، ص ٢٩٩.

استغلّ الصليبيون هذا التفسّخ في صفوف المسلمين، فبنوا في جنوبي صور قلعة جديدة لتطويق المدينة، وهي قلعة «اسكندرونة» قرب قرية الناقورة اليوم، وذلك السنة ١١١٦. استمرّت صور صامدة حتى وصل إليها أسطول فاطمي السنة ١١٢٢، فألقى القبض على الأمير مسعود وأعيدت المدينة إلى الحكم المصري المباشر، «ولما سمع الفرنج بانصراف مسعود عن صور قويَ طمعهم فيها، وحدّثوا نفوسهم بملكها، وشرعوا في الجمع والتأهّب للنزول عليها وحصرها. فسمع الوالي بها بالمصريين الخبر...». أعيدت صور إلى طغتكين اتفاقاً مع المصريين، فملكها ورتّب بها الجند وغيرهم ما ظنّ فيه كفاية.(١)

«وسار الفرنج إليهم ونازلوهم وضيّقوا عليهم، ولازموا القتال، فقلّت الأقوات وسئم من بها القتال وضعفت نفوسهم».(١) وصل طغتكين إلى بانياس، مقترباً من صور للدفاع عنها. بقي الفرنجة على وضعهم الحالي حول صور ولزموا الحصار. فأرسل طغتكين يستنجد المصريين فلم ينجدوه، وتمادت الأيام وأشرف أهل صور على الهلاك من جراء مجاعة خطيرة، واجتمع الأهالي وبدأوا يناقشون كيفية إنهاء التعاسات التي كانوا يكابدونها، واتفقوا على أن تسليم المدينة إلى الفرنج سيكون أفضل بكثير، بحيث يتمكّنون من التحرّر والهرب إلى مدن أخرى في منطقتهم بدلاً من أن تموتوا من الجوع في مدينتهم، وأفضل بكثير من أن ينتظروا وصول المساعدة وهم يائسون... فقرروا الاستسلام وتحقيق السلام مهما كانت المجازفة أو مهما كانت الشروط.(٢)

تحرّج الموقف في داخل صور في آخر حزيران ١١٢٤، فالمؤونة والمياه أخذت في النفاذ بشكل سريع، وهلك عدد كبير من رجال الحامية، وجرى إنذار طغتكين وإبلاغه أن المدينة ستستسلم، فأرسل إلى معسكر الفرنج يعرض عليهم تسليم المدينة بالشروط المألوفة، بأن يُؤمّن كلّ من أراد من السكان أن يغادر المدينة بما يحمله من متاع، ومن أراد البقاء في صور، احتفظ بحقّه مواطناً،

(١) ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٨٨.

(٢) وليم، ج ٤، ص ٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٦٥.

فاستقرّت القاعدة على ذلك. وقبل الفرنج بهذا العرض بالرغم من اشتداد ثائرة البحارة والجند، حين سمعوا بأنه لا مجال للنهب والسلب، فهدّدوا بالتمرّد والثورة. وفي ٧ تموز ١١٢٤ فتحت المدينة أبوابها، وتولّى أمرها الجيش الفرنجي، وخرج المسلمون في موكب طويل مجتازين المعسكر الصليبي في أمن وسلام. وبذا انتقلت إلى أيدي الصليبيين، آخر مدينة مسلمة على الساحل شمالي عسقلان. لقد صمدت صور أمام الفرنج ربع قرن من الزمن.(١)

لقد أدّى سقوط صور سنة ١١٢٤ إلى اختلال التوازن التقليدي الذي أوجده طغتكين وبودوان الأول. ففي السنة ١١٢٦ عمد بودوان إلى مهاجمة دمشق محاولاً احتلالها من جهة حوران، لكنه لم يوفّق على الإطلاق. وبالرغم من شعور طغتكين بالوحدة والانفراد أمام الصليبيين، فإنه ظلّ متابعاً على خطته التوازنية، إلاّ أنه زاد من اعتماده على الباطنية وسلّمهم حصن بانياس ليكون مركزاً لهم. وفي شباط ١١٢٨، توفي طغتكين وهو على هذه السياسة.

٩ - معركة ساحة الدم وانتصار المسلمين (١١١٩):

منذ انتصار روجر أمير انطاكية في تل دامث، أضحت حلب عاجزة عن منع اعتداء الفرنج عليها، إذ وضعت نفسها على كره منها، تحت حماية الأمير الغازي الارتقي. غير أن استيلاء روجر على البزاعة السنة ١١١٩، أدّى إلى تطويق حلب من ثلاث جهات، فإن ضياع البزاعة كانت خسارة، لم يكن بوسع الأمير الغازي أن يتحمّلها. ولم يكن خو أو حليفه طغتكين، حتى وقتذاك، مستعدّين لأن يخاطرا بكلّ ما لديهما من قوّة في قتال الفرنجة، نظراً لأنهما لا زالا بالغا الخوف والكراهية لسلاطين سلاجقة المشرق. توفي السلطان محمد في

---

(١) وليم، ج ٤، ص ٦٢٦ - ٦٢٧.
- رنسيمان، ج ٢، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥.
- مكي، ص ١٣٨.
- ابن الأثير، ج ٩، ص ٢٢٨.

نيسان ١١١٨، فانطلقت أطماع سائر الولاة والأمراء في كافة أنحاء الإمبراطورية السلجوقية. وحاول ابنه محمود أن يوطّد سلطته، غير أنه اضطرّ في آخر الأمر، إلى أن يسلّم السلطة في آب ١١١٩ إلى عمّه سنجر، سلطان خراسان، الذي كان بالغ القوّة والنشاط فالواقع أن مصالحه كانت قد توطّدت في الشرق، فلم يحفل مطلقاً، بما كان يجري في بلاد الشام. وكذلك سلاجقة الروم فلم يكن بوسعهم التدخّل في أمور الشام، لانصرافهم لما وقع بينهم من منازعات داخلية ومن شجار بينهم وبين الدانشمند من جهة، وبين بيزنطية من جهة أخرى.

لقد رغب الغازي، الأقوى بين الأمراء المحليين، القضاء على إمارات الفرنج كي يستحوذ على حلب.

خلال ربيع السنة ١١١٩، طاف الأمير الغازي بأملاكه، يحشد عسكراً من التركمان والأكراد النازلين بالشمال، ومن القبائل العربية الضاربة في بادية الشام، وشكلياً طلب المساعدة من السلطان محمود، فلم يتلقّ ردّاً على طلبه. وافق طغتكين على مساندته من دمشق وكذلك بنو منقذ، أمراء شيزر، فقد وعدوا بأن يحملوا روجر أمير أنطاكية على الإنصراف إلى جهة أخرى، بأن يتظاهروا بمهاجمة الأطراف الجنوبية لممتلكاته[1].

في نهاية شهر أيار، زحف الجيش الإسلامي، الذي بلغ عدده أربعين ألفاً من الجنود الأشداء. وتلقّى روجر الأنباء في شيء من الهدوء وطلب مساعدة بودوان وكونت طرابلس فأنجداه. وفي نفس الوقت تحتّم على روجر أن يلتزم خطة الدفاع.

بينما كان بنو منقذ يغيرون على أفاميا، أرسل الغازي فصائل من جيشه التركمان نحو الجنوب الغربي للاجتماع مع قوات بني منقذ وجيش الشام، بينما قام بجيشه الأساسي بالهجوم على بلاد الرها ما عدا العاصمة. ففي منتصف حزيران ١١١٩، عبر نهر الفرات، عند بالس ومضى في سيره حتى أقام معسكره في «قنسرّين» على بُعد خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب من حلب، ينتظر قدوم طغتكين. قرّر روجر الفرنجي

(١) رنسيمان، ج٢، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

ملاقاة المسلمين. ففي ٢٠ تموز قاد جيشه المؤلّف من سبعمائة فارس وأربعة آلاف من المشاة، فاجتاز جسر الحديد وأقام معسكره أمام حصن تل عفرين الصغير على الحافة الشرقية لسهل سرمدا.[١]

تمكّن الغازي معرفة ما يدور في الجيش الفرنجي بواسطة عملاء له تنكّروا كتجّار فأفادوه عن ضعف هذا الجيش من الناحية العددية.

في ٢٧ حزيران تحرّك إلغازي بقسم من جيشه لمهاجمة قلعة الأثارب، التي كانت بحوزة الفرنج. فأرسل روجر بعض رجاله إلى القلعة وفي الليل بعث كل أموال الجيش إلى قلعة ارتاح الواقعة على الطريق المؤدي إلى أنطاكية.[٢]

في ٢٨ حزيران طوّق المسلمون معسكر الفرنج، وهبّت من الجنوب ريح الخمسين، وتضاءل الطعام والماء في المعسكر، فقرّر روجر اقتحام صفوف المسلمين وإلاّ تعرّض للهلاك. أرسل دورية من الكشافة فوقعت في كمين فقتل من قتل وعاد البعض منهم ليفيدوا روجر أن المعسكر الإسلامي لا يمكن اختراقه، عندها قسّم روجر جيشه إلى أربعة فيالق في الرعيل الأمامي وفيلق كاحتياط للجبهة وانطلق الجميع لملاقاة الخصم.[٣] على أنه لم يكن ثمة أمل منذ البداية، فلا مجال للنجاة من جحافل فرسان التركمان ورماتهم. فأول من دبّ فيه الذعر والخوف، كانوا المشاة الذين جرى تجنيدهم محلياً من الأرمن والسوريين، ففرّوا من أرض المعركة ولكن إلى أين المفرّ، فقتلهم التركمان جميعهم. ثم تغيّر اتجاه الريح فجأة نحو الشمال، فساقت غمامة ملبّدة بالتراب إلى وجوه الفرنج. وفي بداية المعركة، افترق عن الجيش حوالي المائة فارس، والتحقوا بالقوّة الآتية من الأثارب

---

(١) ابن الأثير، ج٩، ص ١٨٥.
- مماثل، ص ٢٣٧.
- ابن الأثير، ج٩، ص ١٨٥ - ١٨٦.
(٢) رنسيمان، ج٢، ص ٢٣٧.
(٣) مماثل، ص ٢٣٨.
- ابن الأثير، ج٢، ص ١٨٦.

والتي لم تتمكن من الإشتراك في القتال فهرب الجميع إلى إنطاكية، وبعدها بفترة قصيرة، فرّ رينالد مازوار الفرنجي مع عدد من الفرسان، فوصلوا إلى سرمدا. ولم ينجُ من جيش أنطاكية من القتل، غير هؤلاء، إذ سقط روجر صريعاً، وهو يقاتل، ومن حوله قتل عدد كبير من فرسانه وما تبقّى وقع في الأسر. وعند الظهيرة انتهت هذه المعركة بحمام من الدم فملأت الجثث أرض المعركة. وقد أطلق الفرنجة على هذه المعركة «ساحة الدم».[1] وعند صلاة العصر وصلت إلي حلب أولى طلائع الجنود المسلمين الظافرين المنتصرين. أما الغازي فاتجه نحو سرمدا فاستسلم له رينالد مازورا، فأبقى على حياته وقتل رفاقه، وجرى تكبيل الأسرى بالأغلال وجرّهم في عرض السهل خلف المنتصرين، حيث نكّل التركمان بهم وأجهزوا عليهم بين كروم العنب. وما تبقّى منهم نقلهم الغازي إلى حلب التي دخلها في موكب عظيم، عند غروب الشمس، وفي شوارع حلب، حلّ بهؤلاء الأسرى من التعذيب ما أودى بحياتهم.[2] «فما مدح به الغازي في هذه المعركة قول الشاعر العظيمي:[3]

قُل ما تشاء فقولك المقبول
وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حيت نصرته
وبكى لفقد رجاله الإنجيل

لم يواصل الغازي قتاله لاستغلال النجاح، بل اكتفى بأن كتب إلى ملوك العالم الإسلامي، يخطرهم بما حازه من انتصار، فبعث إليه الخليفة بالخلع والتشاريف ولقبّه بـ «نجم الدين». بعدما تقدّم نحو قلعة ارتاح فملكها وعاد إلى حلب حيث استسلم إلى حياة اللهو والعبث حتى ساءت صحته.

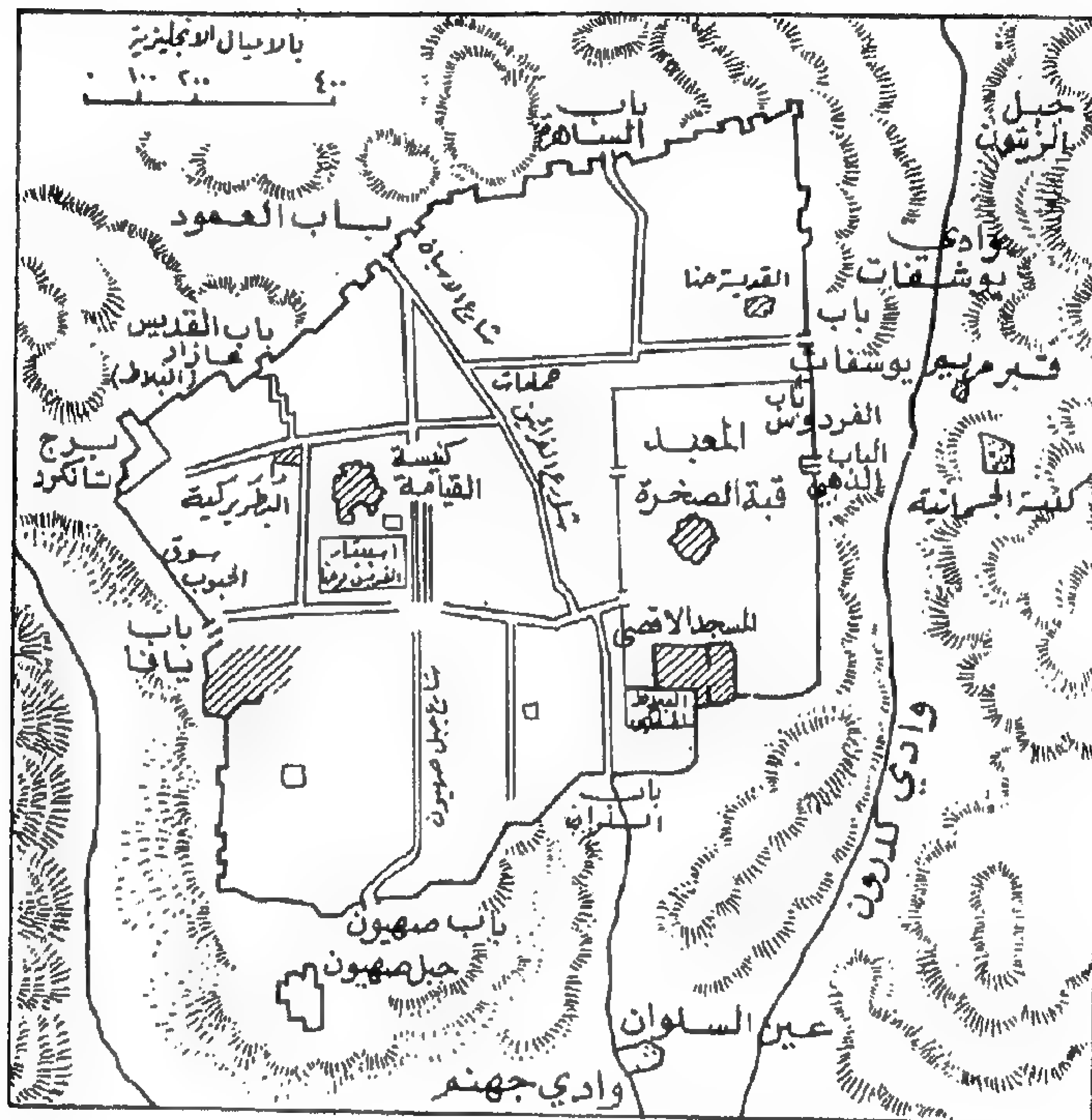
---

(١) رنسيمان، ج٢، ص ٢٣٩.
(٢) مماثل، ص ٢٤٠.
- ابن الأثير، ح٩، ص ١٨٥ - ١٨٦.
(٣) ابن الأثير، ج٩، ص ١٨٦.

مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر



بيت المقدس زمن ملوك اللاتين



المراجع العربيّة والأجنبيّة

١ - المراجع العربيّة:

١ - الشدياق، طنوس، «أخبار الأعيان في جبل لبنان» - مكتبة العرفان - بيروت ١٩٥٤، جزءين.

٢ - الأمين، حسن، «غارات على بلاد الشام»، توزيع دار قتيبة، طبعة أولى، بيروت عام ٢٠٠٠.

٣ - القرآن الكريم - صورة الأنعام ٤٤.

٤ - ابن القلانسي، «تاريخ ابن معلى حمزة» - بيروت ١٩٠٨.

٥ - ابن الأثير، «الكامل في التاريخ» - دار بيروت للنشر ١٩٦٥ - عدّة أجزاء.

٦ - «العهد الجديد - الأناجيل» - أعمال الرسل - بيروت ١٩٩٨.

٧ - أوسابيوس، «التاريخ الكنسي» (بالإنكليزية) - لندن ج١ - ١٩٢٨.

٨ - الصوري، وليم، «تاريخ الحروب الصليبيّة» - دار نوبليس، بيروت ١٩٩٠.

٩ - بولس جواد، «التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام»، دار عواد للنشر، دون تاريخ - بيروت.

١٠ - جواهر لآل نهرو، «لمحات من تاريخ العالم» - منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، طبعة ثانية، بيروت. ١٩٥٧

١١ - جريدة «البلد»، بيروت ٢/١٢/٢٠٠٥.

١٢ - حتّي، فيليب، د. - «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين»، جزء ٢ ، بيروت دون تاريخ.

١٣ - حتّي، فيليب، د. - «مختصر تاريخ العرب»، نقله إلى العربيّة، عفيف البعلبكي، بيروت، دون تاريخ.

١٤ - حتّي، فيليب، د. - «صانعو التاريخ العربي»، ترجمه أنيس فريحة، بيروت ١٩٦٧.

١٥ - حتّي، فيليب، د. - «لبنان في التاريخ» - دار الثقافة - بيروت ١٩٦٨.
١٦ - حنظل، فالح، «العرب والبرتغال في التاريخ»، منشورات المجمع الثقافي - أبو ظبي ١٩٩٧.
١٧ - رنسيمان، ستيفن، «تاريخ الحروب الصليبيّة» - عرّبه الباز العريني، بيروت - دار الثقافة ١٩٨٥.
١٨- زابوروف، ميخائيل، «الصليبيون في الشرق» - دار التقدّم، موسكو، ترجمه الياس شاهين ١٩٨٩.
١٩ - ضوميط، أنطوان، د. «المماليك والعثمانيون وعهد السلطان سليم الأول»، لبنان - مكتبة حبيب، طبعة أولى ١٩٩٥.
٢٠ - كرد، علي محمد، «خطط الشام»، ج١، دمشق ١٩٢٥.
٢١ - مجلس كنائس الشرق الأوسط، «المسيحيّة عبر تاريخها في المشرق»، بيروت، طبعة أولى، بيروت ٢٠٠١.
٢٢ - مكّي، محمد علي، «لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني»، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٧.

٢ - المراجع الأجنبيّة:

1 - BEHIER, L, L'Eglise et l'Orient au M.A.: Les Croisades, Paris, T III, 1928.

2 - Couret, A, La PALESTINE Sous les Empereurs Grecs, Grenoble, France 1869.

3 - Encyclopedie, UNIVERSALIS, FATIMIDES, vol. 6.

4 - Grusset, RENÉ, L'Epopée des Croisades, Perrin, Paris 1995.

5 - Jonathan, Riley, Smith, Les Croisades, Pygmalion, Paris 1990.

6 - Lammens, Henri. L'ARABIE Occidentale avant L'Hégire, Beyrouth, 1928.

7 - Maalouf, AMIN, Les Croisades Vus par les Arabes, Ed, J'ai lu, Paris 1983.

8 - Michel, Le Syrien, Chroniques, 4 volumes, Paris 1910, vol 2.

9 - NIKITA, Elisséeff, Nur. Ad. Din, Damas, Syrie, 3 volumes, 1967.

10 - Ramsay, W.M. The Historial Geography of ASIA. Minor Royal, Geo, Sociéty, vol. IV, London 1890.

11 - Rosiere, E. De. Recueil. General des Formules usitées dans l'Empire des Francs du V^{ie} au X^{ie} Siècle, vol 2, Paris 1879.

فهرس الجزء (١٦)

فهرس الخرائط والصور

١ - الخرائط:

٢ - الصور:


Bibliotheca Alexandrina
0587032